الصاوى محمد الصاوى

هولاكو

الأمير السفاح



مكتبة النافذة

الصاوى محمد الصاوى

هولاكـــــو

الأمير السفاح

مكتبة النافذة

دار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الصاوى ؛ الصاوى محمد

هولاكو :الأمير السفاح //الصاوى محمد الصاوى

الجيزة :مكتبة النافذة ؛2011 ص؛س

تدمك--8 292-436-977-978

1-المغول والتتار

2هولاكو خان 1217 -65

الطبعة الأولى :2012

رقم الايداع :2011/20015

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

النـــاشر

مكتبـــة النـــافذة

1 ش المستشار حسن دياب (برج مكة 3) المتشية

(ميدان الساعة) _ إمتداد الثلاثيني

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 _ 39848568

محمول: 0123595973 فاكس: 37827787

Email:alnafezah@hotmail.com

إهداء

إلى عُشّاق التاريخ، وإلى من أرَّختُ لهم

إلى كل من نَهلتُ من عِلمهِ، أو استفدت من تجاربه.

إلى كل من نظر في أحدٍ من كُتبي،

من أهل المغرب والمشرق، فشكر جهدي، وتَحاشى مَذمتي.

إلى كل من شَجّعني وآذَرَني،

وكل من ساهم في إخراج هذه الكُتب إلى النور.

وإلى روح والديَّ،

وإلى أبنائي وزوجتي، وأحفادي.

وإلى أنصارِ الحقِ والعدلِ في المشرقِ والمغربِ جميعاً

تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلي اللهم على سيدنا محمد وآله والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،

فهذا هو الكتاب الثاني لي عن إمبراطوريات المغول، أختص به دولة التتار، التي أسسها جنكيزخان،

ولكن لكي نتكلم عن التتار، لابد في البداية أن نتكلم عن الدول الإسلامية المجاورة لتلك البقعة، التي انبعثت منه هذه الفئة من البشر التي علت في الأرض، فهاجت وماجت، واكتسحت أمامها القوي والضعيف من بلاد العلم الإسلامي وغيره، حتى وصلت أسيا الصُغرى، وحاربت بايازيد الأول أحد أهم ملوك العثمانيين، فأسرته واحتلت بلاده، ولو أرادوا لأخذوا أوربا بأثرها، ولغيروا تاريخ وخريطة العالم بأثره.

لقد ظهرت تلك الدولة الغريبة الأطوار، في زمان هو بالضبط زمانها، ففي وقت الضعف تطفوا الشوائب، وتتأسد الحشرات، وتسود الفئات الخاملة، والتي لم يكن لها من قبلُ من الأمر شيئاً، فتصول وتجول ثم تأتي الصحوة، وينتبه الغافلون، فتهدأ تلك الفورة، وتَرجع الأمور إلى نِصابها.

فبينما كانت الدولة الإسلامية في أشد أوقات تشرذمها، واقتتال أهلها مع بعضهم البعض، طمعاً في الحكم، وغفلة عن الدين، ظهر أمر تلك الشعوب المغولية، فانتشرت وتطورت وارعدت وسادت في زمنٍ قياسي، ليس بالقصير، ولكنه بالنسبة لم تحقق من سيطرتها وتملكها لتلك المساحا الشاسعة من العالم، وما وقع منها من تخريب ودمار، يعد في عمر الزمان قصير.

وكما تحالفت الأسباب لظهورهم، فقد جاء نفاد أمرهم، وذهاب أسطورتهم على يد مملوك من مصر. أخلص النية هو ورجاله لله؛ فكانوا سبباً في عتق العالم من هذا التوسونامي البشري المُخرب. لقد توقف زحف المغول، وذَهب الروع عن العالم بتوفيق الله لهذه الفئة الصادقة. التي تكاتفت من أجل الذب عن دينها وعِرضها وأهلها. فكسروا تلك الشوكة الحادة التي كسحت أمامها الأخضر واليابس. وما راعت حُرمة ولا دين، وما تَركت صغيراً ولا كبيراً، ولا رجل ولا امرأة ولا طفل. لقد وصفها الكُتاب والمؤرخون بكل نقيصة، وهي أهلاً لذلك، وكان الزمان يَسمح بذلك، وكانت الظروف كلها مواتية لأفعالهم ففعلوه ولم يتوانوا.

لقد كانت الهجمة التتارية على العالم الإسلامي خاصة، ابتلاء من الله على تفرقهم وشرذمتهم وقتَال بعضهم البعض، وسعي كل واحد من الأمراء لاستفراغ ما في إناء أخيه، ولو بسفك دمه، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، فكان الواحد منهم يُسْلم نفسه ويستسلم دون مقاومة، أو طمعاً في رشوة قائد هؤلاء الغُزاة، الذين لم يكن لهم بقاء على من استسلم أو قاوم، لقد أتوا على الصغير قبل الكبير، وعلى النساء قبل الرجل، وهدموا البيوت وقَطعوا الأشجار والزُروع، لقد أرادوها بقدر الله خراباً وعِبرة، والحكمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فهل ننتبه، وهل يَعرف الناس طريق الصواب فيسلكوه؟

الصاوي محمـــــد الصاوي

كفر صقر الشرقية.

الاثنين: ٣ شعبان ١٤٣٢هـ، ٤/ يوليو٢٠١١م

المقدمة

المغول، قبائل بدوية رعوية، يُشار إليهم غالباً باسم التتار أو التَّتر، وهو الاسم الذي كان يُطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر، وكانت القبائل المغولية في مستهل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، تَعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبي في أواسط آسيا، بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان (Khingan) ، على حدود منشوريا في الشرق.

وقد استطاعت تلك القبائل أن تؤسس لهم أكبر إمبراطورية دموية عرفها تاريخ البشرية، من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوربية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً، إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً.

وكانت هذه القبائل تَعيش على الصيد والقَنص، ويتغذون باللحم ولبن الخيل.

كان المجتمع المغولييتكون من:١ ـ قبيلة القيات الصغيرة، ٢ ـ قبيلة الأويرات، ٣ ـ قبيلة النايمان، ٤ ـ قبيلة الكراييت (Kerait) ، ٥ ـ قبائل المركييت (Markit) ، ٦ ـ قبائل التتار.

وكان التتار في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يَسكنون جنوب غربي بحيرة بايكال، وحتى نهر كيرولين، وهم ثلاث أقسام:

١ - التتار البيض: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

٢ – التتار السود: وكانوا ينزلون شمال صحراء جوبي، وكانوا بدواً رحلاً.

٣ - تتار الغابة: وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري أونون،

وكيروتين. ومارسوا حياة الصيد.

وكانت قبائل التتار في صراع دائم وشديد مع قبائل المغول، وكانت مراعي المغول تمتد صيفاً حتى أقاصي سيبريا. وقد كان كلاً من الشعبين التتري والمغولي. وهما أبناء عمومة مع التُرك، يعيشان على الرعي. إلا أنه كان للتتار حضارة بدائية، نتيجة احتكاكهم بالصينيين. بل إن آخر الأُسر الحاكمة لشمال الصين قبل سقوطها في أيد جنكيزخان كانت تَرجع أصولها إلى التتار!!

ومن المعلوم أن المغول في بدء هجومهم على العالم الإسلامي كانوا يُعرفون بالتتار، كما أُطلق عليهم اسم: المغول، ومُغل. واشتهروا في التاريخ بهذه الأسماء.

وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تَسكن بعض السهول الخصبة أحياناً، إلا أنهم لم يُحاولوا زراعتها، بل كانوا يُهاجرون في فصل الصيف من السهول إلى الجبال، فإذا انعدم فيها العشب رحلوا عنها، حيث يتعذر عليهم البقاء مع قُطعانهم بها.

أما عن الحياة الأجتماعية للمجتمع المغولي، فقد كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، الطبقة الأولى: وهي طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب: هادر، أي الباسل. وتوبان، أي النبيل، وستسن، أي الحكيم.

والطبقة الثانية: هي طبقة النوكور، أي الأحرار. وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن جنكيز خان" وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة: هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً "خان، قان" أو زعيماً "باكي أو بكي، وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال "أويرات، ومركيت.

وكان المغول يتخذون طعامهم من لحوم الحيوانات على اختلافها، وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يَعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات، ولم يكن سمة فرق

كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكانوا يَطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة.

ولم يكن للمغول أو التتار في هذه الفترة عقيدة معلومة، ولقد وضع لهم جنكيز خان قانون دولتهم، ودستور عملهم، وكتابهم الذي يعتقدونه ولا يُخلفون منه شيئاً، فقد وضع لهم كتاب: الياسا أو السياسا التي يتَحاكمون إليها، ويحكمون بها.

وكانت الديانة الرسمية للمغول تُسمى: بالشامانزم. وتَتمثل في عبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها.

أما العالم الإسلامي في نهاية القرن السادس الهجري وأول القرن السابع، وهي نفس الفترة التي بدأ فيها ظهور المغول. كان منقسماً إلى مجموعة من الدول، والممالك والدويلات الصغيرة، بعضها قوي وبعضها ضعيف، وكل هذه الممالك والدويلات يتنازع مع بعضها البعض من أجل السيطرة والتوسع على حساب الأخرى.

أما الدولة العباسية فقد صار خلفاؤها أوّل أمرهم، ومنذ عهد أبي العباس السفاح - (١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م) إلى أيام هارون الرشيد - (١٤٩ - ١٩٣ هـ = ٧٦٦ - ٨٠٩ م)، على الاستبداد بالحكم دو الوزراء أو الأمراء من غيرهم، فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكيّ - (١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ - ٨٠٥ م). فكان بداية سيطرة الوزراء على الخلفاء، وكان هو أوّل من وقّع من وزراء خلفاء بني العباس، وصارت لمن بعده، وربما انفرد رجلٌ بديوان السرّوديوان الترسل، ثم أُفردت في أخريات دولة بني العباس، واستقلّ بها كُتاب لم يَبلغوا مَبلغ الوزراء، وكانوا يُقال لهم كُتاب الإنشاء، وكبيرهم رئيس ديوان الإنشاء، أو صاحب ديوان الإنشاء، أو كاتب السرّ ومَرجع هذا الديوان إلى الوزير، وكان يُقال له الديوان العزيز، وهو الذي يُخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء.

ثم أخذت الخلافة العباسية في الضعف مبكراً، وتناهت في الضعف أيام الراضي بالله بن المقتدر - (٩٣٤/ ٩٤٠م- ٣٢٢/ ٣٢٩هـ)، وتغلب عُمال الأطراف عليها، ولم تعد الخلافة غير اسم فقط.

وكانت الدولة الخوارزمية هي المجاورة لتلك المنطقة التي خرج منها الطوفان المغولي المدمر، ولأن الدولة الخوارزمية هي الأحسن شأناً، والأقوى بين دول العالم الإسلامي في هذا الوقت، حتى من دولة الخلافة التي لم يعد منها غير اسم فقط. لذلك كان الأملُ فيها أن تصد الهجوم المغولي.

وخوارزم ليس اسماً للمدينة، إنما هو اسم للناحية بجملتهاأيضاً، فأما القصبة العُظمى فقد يُقال لها الجرجنية، وأهلها يُسمونا كركانج، وهي إحدى مدن خوارزم.

وكان أو لقاء بين الخوارزمية، في أيام علاء الدين خوارزم شاه، مع جنكيز خان، ويكتب بالصينية: 成吉思汗 وهجاؤها بطريقة پن يـن pinyin هو: cheng1 ji1 si1 kang1، أو تيموجن: بالصينية: 鐵木真، وهجاؤها بطريقة پن ين pinyin هو: tie mu zhen، عاش ما بين عامي ١١٦٥ و ١٢٢٧ ميلادية.

وجنكزخان المغولي، من قوام صُفر الوجوه، بشعور سوداء كالحة، سبط غير مُجعَّدة، وأنف أفطس، وعيون منحرفة، يشوب سمارها زُرقة، وبشرة يغلب عليها الصُفرة، ومنهم الأسمر والبرنزي والنُّحاسي. بن بيسوكي بن بهادر بن تومان بن برتيل خان بن تومنيه بن بادسنقر بن تيدوان ديوم بن بغا بن بودنجه، وقيل: بقابن مودنجه، بن ألان قوا. وألان قوا هذه امرأة من قبيلة من التتر تُسمى قبات. من أعظم قبائلهم شهرة، كانت متزوجة بزوج أُولَدها ولَدَين، اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة، ثم مات زوجها، وبقيت الان قوا أيما، فحملت فأُنكروا عليها الحمل، وحُملوها إلى ولي أمرهم، فقالت إني كنت جالسة وفرجي مكشوف، فنزل نور ودخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور كل مرة من دخول ذلك النور بذكر، فأمْهلوني حتى أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور فاعلموا

صدقي، وإلا فدونكم وما ترون.

فأتت بثلاثة ذكور فسَمت احدهم برقد، والآخر قونا، والثالث نجعو، وهو جد جنكز خان. وأولاد هذه الثلاثة يُعرفون بين التتر بالنورانيين.

ولد جنكيز خان على نهر "اوتون" سنة ١١٦٥م، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وقيل بل ولد، وقد كان الابن البكر ليسوگيه Yesügei شيخ قبيلة كياد Kiyad و تكتب مفردا ب كيان Kiyan. وتسمى عائلة يسوگيه Yesügei ب بورجيگن Borjigin ومفردها هو بورجيگيد Borjigid. وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته، ولم يَلبث الأب يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره، ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، مع كل ما أصاب هذه الأسرة من عنت من قومهم، إلا أنهم احتفظوا، بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب. فاجتهد الصبيان في صيد ما يلزم لإعاشتهم من نهر أنون، وحرصت الأم يولون على ان تتوطد المودة بين أفراد الأسرة.

أخذت أحوال تيموجين تستقر، وذاع سيطه. وسعت القبائل المختلفة لكسب صداقته، فكان من الذين انحازوا إليه، اربعة أمراء من المغول، يجري في عروقهم الدم الملكي، اجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا فيما بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون اقدم الأسرات الملكية، واعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول، وبالفعل أُختير تيموجين خانا وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان.

حَرِص جنكيز خان على أن يوزع الوظائف الأساسية بين أنصاره الموالين له، وجَعل من اقرب الناس إليه، حرساً خاصاً له، وخَصَّ آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العَربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخُدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية، والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي)، وقام جنكيز خان بإرسال الرُّسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة، يُخبرهم بأنه قد نُصِّب أميراً على القبائل التي قبلت به. وفي مرحلة ما بعد التنصيب، خاض جنكيز خان معارك كثيرة، أكدت أهليته لقيادة الشعوب

المغولية.

وفي شهر رجب عام ٦٠٢هـ/ فبراير ـ مارس، سنة ١٢٠٦م، عقد جنكيز خان مجلساً عاماً وعمومياً، حيث تم تنصيبه كخانٍ أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا، ولم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك، وقد قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت، في السنوات: ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، ٦٠٤هـ /١٢٠٧م، ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، فاكتسح جميع أراضيها، ولكنه لم يُفلح في دخول عاصمتها ننج ـ هسيا.

عندما بدأ جنكيز خان، في هجومه على مملكة كين القوية، لاقى صعوبات لم يقابلها خلال غزوه لمملكة التانغوت، وفي عام ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، على ضفاف نهر كيرولين استعداداً للهجوم على بكين، ومضى عاما/ ٦٠٨هـ / ٦٠٩هـ / ١٢١١م /١٢١٢م، ولم يستول سوى على مراكز قليلة الأهمية، لصعبة تضاريس تلك البلاد، وفي عام ٦١٠هـ/١١٢٣م، توجهت جيوش جنكيز خان إلى الصين للمرة الثانية، وكان هدفه السيطرة على طريق كالجان / بكين الإستراتيجي.

ولقد اجتمعت الروايات على أن فتوحات المغول، كانت مصحوبة بالمجازر البشرية، ويمكن تصنيف الحروب المغولية عموماً ضمن حروب الإبادة الجماعية، فإنه ليصعب علينا أن نعرف أي صرعى جنكيز خان أكثر عدداً؟ صرعى حروبه مع القبائل وفي الاستبس، أم صرعاه في البلاد المتحضرة، ويصعب أيضا أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعاً خالصاً أو ضراً خالصاً لأهل تلك المجتمعات المختلفة التي غزاها، فإنه لم يكن يبيد تلك المجتمعات تماماً. إلا أن أسعد الأوقات عنده، هي التي يحطم فيها قوى أعدائه ويُطاردهم، ويستولي على ممتلكاتهم، ويَرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم. وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يَركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونسائهم.

ولكن وعلى كل حال لا يمكننا إلا أن نؤكد بأنه ما كان يتيسر لجنكيزخان

فتح تلك المناطق الفسيحة، وتكوين هذا الملك العريض، إلا إذا كان مزوداً بكثير من التعقل والتبصر والكفاءة الممتازة، وأنه لابد وأن يكون على جانب كبير من الدهاء والسياسة. ولا يمكننا أن نُسلم بأنه كان فقط ميالاً إلى الغزو والفتح وإراقة الدماء، بل كان كذلك لديه هدف معين يَبغي الوصول إليه، ويَرى أن تحقيقه لا يجب أن يحول دونه حائلٌ. مهما أُريق من دماء، وأُزهق من أنفس، وخُرب من مدن، فكل ذلك لا يُعد شيئاً ما دام هو الطريق الذي سوف يُبلغه مُراده.

ولما كان جنكيزخان لا يؤمن بأي دين أو دولة، فإنه كان يتجنب التعصب ورجحان أمة على أمة، أو دين على دين، ولكنه كان يُكرم العلماء والزهاد من كل طائفة، ويعفيهم من الضرائب. وكان يميل إلى الإصغاء إلى أقوال الحكماء، والاستفادة بتجاربهم.

كان المغول على مقربة من الحضارة الصينية، لذا فإن تأثير الثقافة الصينية المتفوقة على المجتمع المغولي أمر لا يمكن تجاهله، وهناك احتمال بأن يكون جنكيز خان قد تأثر، بالتفكير العسكري الصيني في مجال المحاربة، وسبب ذلك أن جنكيز خان، بعد أن نجح في تدمير إمبراطورية كين الصينية، التي كانت تُعرف بالإمبراطورية الذهبية، أَكره عدداً كبيراً من العلماء والعسكريين وأصحاب الحرف والفنون الصينيين على العمل في خِدمته.

وكان المغول يُعدون لكل حرب خططها بعناية ودقة، في المجلس العام (الكوريلتاي)، لقد كانوا يُرسلون العملاء والجواسيس إلى أراضي العدو، ليأتوا بالخبر عن أموره العسكرية، والسياسية والاقتصادية، والجلوغرافية في تلك البلاد المقصودة، وكانوا يَستعملون تكتيك الرتل الخامس بكفاءة عالية، وهذه تسمية حديثة، إلا أنهم كانوا يستخدمون نفس خطواته، ويتعاطون المحاربة النفسية. وكانت تعليمات جنكيز خان تقضي، كنوع من الحرب النفسية ضد الخصم، بأن يعم الرعب والهلع جميع الأرجاء عقب الضربة الأولى. لقد كشف إذن جنكيز خان عن القيمة الحقيقية للحرب النفسية والإعلام الموجه تجاه

الخصم، وتحقيق المزج العسكري بين: الاستعداد، والإعلام، والانضباط، والحركية، وضربة المطرقة. وصارت حروبه دروساً مُستفادة، تنتفع بها الجيوش إلى اليوم في خططها.

في عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، بعث بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، ودرس علاء الدين محمد خوارزمشاه بإمعان هذه المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورُسلهم، وندم على ذلك، ولكنه لم يكن وقت الندم الآن،

وبالفعل كان أول لقاء بين الخوارزميين والمغول، وتجالد الفريقان، أما المسلمون فإنهم صبروا حِمية للدين، وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

وأما المغول فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتد بهم الأمر، حتى إن أحدهم كان يَنزل عن فرسه ويقاتل قرنه رجلاً، ويتضاربون بالسكاكين، فلما كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مُقابل بعض، فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا، وكذلك فعل المسلمون أيضاً، كل منهم سئم القتال.

ومن أجل إضعاف الخلافة العباسية، ثم إسقاطها، قرر جنكيز خان في خوض حروبٍ متتالية مع دول المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تُعرف بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم عدة أقاليم إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان هناك شبه اتفاق بين جنكيز خان ومحمد خوارزم شاه على حُسن الجوار، إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، أما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية، فكان من أسبابهم في ذلك، أيضاً:

١ . الجدب الذي ساد أقاليم آسيا الشرقية، ٢ . حالة الحماسة والنشاط المغولي، ٣ . مقتل بعض تجار المغول. حيث وصل من بلاد التتار تجار إلى أترار، وهم: عمر خواجه الأتراري، والجمال المراغي، وفخر الدين الدنزكي البخاري، وأمين الدين الهروي. وكان ينال خان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه، ينوب عن السلطان بأترار بصحبته عشرين ألف فارس، فشرهت نفسه في أموال أولئك التجار، فكاتب السلطان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار، وليسوا بتجار، وإنما هم أصحاب أخبار، وإنهم إذا خلوا بأحد من العوام يهددونه، ويقولون إنكم لفي غفلة عما وراءكم، وسيأتيكم ما لا قِبل لكم به. فَأَذِن له السلطان في الاحتياط عليهِمْ إلى أن يَرى فيهم رأيه، فقَبضَ ينال خان عليهِمْ، وانقطع خبرهم، وأخذ ما كان معهم من الأموال والأمتعة.

في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بدأ الغزو المغولي شرق الدولة الإسلامية، فقد وصل جغتاي، ابن جنكيزخان، إلى حافة نهر سيحون على مقرُبة من مدينة أترار، على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهر سيحون في الشرق، وجيحون في الغرب.

وكان علاء الدين خوارزم شاه قد قسم جيشه في البلاد، منذ عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥- ١٢١٦م، تَرك ينال خان بأَترار: في عشرين ألف فارس. وقتلغ خان في جماعة أخرى: في عشرة آلاف فارس بشهر كنته إحدى مدن أطراف تركستان، والأمير اختيار الدين كشكي أمير آخور، وأمير الأخوار أي أمير العلف، أي أمير اسطبلات السلطان. واغل حاجب الملقب باينانج خان: في ثلاثين ألف فارس ببخارى. وطغانخان خاله وأمراء الغور، مثل جر ميخ، وحرور، وابن عز الدين كت، وحسام الدين مسعود، وغيرهم: في أربعين ألف فارس، وقيل خمسين ألفاً، بسمرقند. وفخر الدين حبش المعروف بعنان النسوي وعسكر سجستان بترمذ. وبلخمورخان: بوخش إحدى مدن نواحي بلخ. وأبا محمد خال أبيه ببلخ. وأسرك بهلوان: بخندروذ، إحدى مدن فارس. وعلجق ملك: بجيلان، وهي مجموعة بلدان

وراء طبرستان. والبرطاسي بقندز. ولم يترك بلداً مما وراء النهر خالياً من عسكرٍ كبيرٍ. فكان ذلك من أعظم الأسباب التي استولى بها جنكزخان على البلاد الإسلامية، ولو جمع عساكره ولقي التتار لهزمهم.

ولقد قسَّم جنكيز خان جيوشه إلى أربعة أقسام، جَعل على رأس كل جيش منها أحد بنيه، فقد أراد أن يُهاجم أكبر عدد من المدن الإسلامية في وقت واحد، فلا يترك إليهم فرصة للتوحد ضده.

وبالفعل تحركت الجيوش الجنكزخانية نحو بلاد خوارزم شاه، في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م، وكان هذا التحرك حسب خطة مرسومة مُحكمة، ونظام حربي وضعه جنكيز خان صوب عينيه، وبعد أن استولى على مابين نهري سيحون وجيحون، قصد بلاد خوارزم شاه بعِدة جيوش.

فملكوا: بلاد مازندران، وفتحوا المدن الواقعة على نهر سيحون، وسُرعان ما وصلوا إلى مشارف سقناق، على مسافة أربع وعشرين فرسخاً من أترار، ومدينة سقناق، مدينة بنكَت، وخُجندة، ومدينة بخارى إحدى مدن جمهورية أوزبكستان، بعد أن حاصرها ثلاثة أيام، وفتحت المدينة أبوابها رابع ذي الحجة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م. بعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها انتقلوا إلى سمرقند، وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى، فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل.

وبعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها ومساجدها ومدارسها، انتقلوا إلى سمرقند، وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى، فساروا بهم على أقبح صورة، فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل، وألحق جنكيز خان كل المهرة من الصناع وأصحاب الحرف ببلاده. وهرب علاء الدين خوارزم شاه، ولم يثبت لحرب بعدها.

فرَحل السلطان علاء الدين خوارزم شاه، من حافة جيحون إلى نيسابور،

إحدى مدن خُراسان، وتسلل عنه الناس فلم يُقم بنيسابور إلا ساعة من نهار، وغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي

شهر ربيع الأول من سنة ٦١٧هـ/ مارس ١٢٢٠م، عَبرت الجيوش المغولية كلها نهر جيحون دَفعة واحدة، وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل، كما أمرهم جنكيز خان، بل جدوا في السير طلبا لخوارزم شاه علاء الدين، فلا يُمهلونه حتى يَجمع لهم رجاله، فلما سَمع بقربهم منه رحل منها إلى الاستنداد، وهي أمنع ناحية في مازندران، ذات دربندات ومضايق، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الري وما بعدها.

وهرب السلطان لما وركب علاء الدين خوارزم شاه المركب وساق به أصحابه، كان به علة ذات الجنب، فكان ذلك مما آيسه من الحياة، وهو يُظهر الاكتئاب، ويقول: سبحان الله مالك الملوك، لم يبق لنا من مملكتنا مع سعتها قدر ذراعين ندفن فيها، فاعتبروا يا أولي الأبصار. فلما وصل الجزيرة سُر بذلك فرح بذلك كثيراً، وكأنه كان لا يصدق أن يصل إلى البر. فأقام بها فريداً طريداً والمرض يزداد به.

فكانت وفاته، في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م. وغَسَّله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش، ومقرب الدين مهتر مهتران مقدم الفراشين، ولم يكن عنده ما يكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه، ودفن بالجزيرة، فكانت مدة سلطنته إحدى وعشرين سنة.

وصلت القوات المغولية إلى الري، على حين غفلة من أهلها، فدخلوه بخيانة بعض رجاله، فكان لسقوط هذه المدينة من الأثر النفس السلبي ما لا يُقدر على المسلمين عامة، وعلى الخوارزميين خاصة، فلما قاربوا همذان خَرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يَطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم، ثم فارقوها، ومرو بزنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم أهلها، ثم صالحوهم، ثم اتجهوا إلى إقليم أذربيجان، وقبل أن يصلوا

إلى مروا عاصمة الإقليم، مروا بمدينة سنجار فنهبوها، ثم ساروا إلى قوس، ووصلوا إلى مدينة تبريز عاصمة ازربيجان، صالحهم أوزبك بن البهلوان. واستولوا على حصون جورجيا وخربوها، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

في صفر سنة ٦١٨هـ، ملك التتر مدينة مراغة، ثم رحلوا عنها نحو مدينة اربل، ووصل الخبر بذلك إلى الموصل، ولقد انزعج الخليفة الناصر أخيراً، فأرسل إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وارسل الخليفة إلى الملك الأشرف موسى، (٥٧٨ - ٦٣٥ هـ = ١١٨٢ - ١٢٣٧ م)، أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام. يأمره بالحضور ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم، فتجمعوا، ولما لم يروا العدو يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، فتفرقوا، وعادوا إلى بلادهم، سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م.

وفي رجب من سنة ثماني عشرة وستمائة، دخل التتار إلى همذان المدينة بالسيف، ولما فرغ التتر من همذان ساروا إلى أذربيجان، فوصلوا إلى أردويل فملكوها، وساروا إلى مدينة كنجة، ثم ساروا إلى بلاد الكرج، لما عاد التتر من بلد الكرج، وهي تقع في شمالي أرمينية، على البحر الأسود، وكانت تدعى (كرجستان) ، قصدوا دربند شروان، فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها، وقتلوا فيهم فأكثروا، ونهبوا الأموال فاحتازوها.

وسار التتر إلى بلاد قفجاق فأقاموا فيها، وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وسارت طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس، ثم إنهم ساروا سنة ٦٢٠هـ، إلى بلاد الروس، وقصدوا بلغار في أواخر سنة ٦٢٠هـ.

وكان جنكزخان لما بلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم وجّه إليها عسكراً كثيفاً، وكان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه، ملك بعد وفاة أبيه في سنة ٦١٧هـ، وعبر أولاد السلطان علاء الدين خوارزم الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وزلاغ شاه، وأق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم، ومعهم زهاء سبعين نفساً لقصد خوارزم، فلم علم جلال الدين منكبرتي بقدوم التتار،ترك خوارزم، وحاصر

جنكيز خان أبناء علاء الدين أزلاغ شاه، وآق شاه ومن معهما، ولما أرادا الاشتباك معهم حلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين.

وأقام السلطان جلال الدين بنيسابور شهراً بعد خروجه من خوارزم، فأسرع المغول نحوه وأعجلوه عن مُراده، فخَرج من نيسابور، فوصل إلى القلعة القاهرة، وفَارَق القلعة القاهرة، وجَدَّ السير إلى تخوم بست فأُعلم أن جنكزخان مقيمٌ بالطالقان بجيوش عظيمة، واتفقا على كبس التتار المُحاصرين قلعة قندهار، فنَهضا إليهم وأوقعا بهم، فلم يَسلم من التتار إلا من وصل بخبرهم إلى جنكزخان وهم نفرٌ يسير، عادوا إليه وهو بالطالقان.

وساق جلال الدين منكبرتي حتى أتى غزنة، فوصل إليها جلال الدين في سنة ٦١٨هـ، واتصل به: سيف الدين بغراق الخلجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية، والحسن قزلق، وهم في زهاء ثلاثين ألف فارس ومعه عسكرهم وعسكر أمين ملك مثلها، فاجتمع عنده من الجيوش نحوا من ستين ألفاً، فجرَّد إليهم جنكيز خان ابنه تولي خان في عسكر كثيف، قوامه نحو اثني عشر ألفاً، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة. استقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية، فانتصر المسلمون وانهزم التتار ثانياً، وقُتل تولى خان فيمن قُتل، وكَثُر الأسر في التتار، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان.

وقام جنكيز خان مغموماً مكبوتاً لموت ابنه، وفناء جنوده بصورة لعالها الأولى منذ بدأوا حروبهم، فقام بنفسه وعساكره لقصد حرب جلال الدين. واتفق أن العساكر الخلجية الذين حابوا معه ضد تولي خان، فارقوا جلال الدين في ذلك الوقت، زرماً وضيق أُفق، صُحبة سيف الدين بغراق، وسار إلى الهند، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه، وذَكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه، فلم يَرجع، وسار مُفارقاً، وازداد في عناده، ولم يَنظروا إلى ما يترتب على خلافهم من سوء العواقب فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا.

ولما بَلَغ جلال الدين أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه، عَلم أنه لا طاقة له

بملاقاته بعد مُفارقة هذه الجيوش له، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند، ووصل جنكزخان إلى حافة ماء السند، وبرزت الجيوش الجنكزخانية، فلقيهم جلال الدين واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت هزيمة منكرة.

ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسير النفس، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يَصحن بأعلى أصواتهن: بالله عليك اقتلنا وخَلصنا من الأسر، فأمر بهن فغُرقن في ماء السند. وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين، فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال والحصون، وقَتلهم اجمعين.

لما كان من الغد على عبور جلال الدين نهر السند، عاد التتار إلى غزنة، اواخر سنة ٦١٩هـ، ١٢٢٢م، فقَتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم فألحقوهن بخُرسان، وكان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية، وآخر حصون الخوارزميين التي غزاها المغول في عهد الخليفة العباسي، الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق، ثبَّتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية.

ولأن إقليم خوارزم هو الإقليم النواة للدولة الخوارزمية، فقد بدأ جنكيز خان على الفور، ومنذ هرب السلطان علاء الدين خوارزم شاه منه سنة ٦١٧هـ، وتبعه ابنه جلال الدين، في نفس السنة فهرب، بدأ جنكيز خان يُعد العدة لاجتياح هذا الإقليم، ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية، قام ثلاثة آلاف منهم بالهجوم على المدينة، فكان النصر في هذه الهجمة حليف الخوارزميين، واستاء جنكيز خان بالطبع عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد، فأخذ المغول يطوون البلاد محلة محلة، واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، ثم لم يُبقي على أحد من أهلها.

وفي نفس عام اجتياح خوارزم، وفي خريف عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م، صدرت الأوامر إلى تولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خُراسان، وقصدوا مدينة بلخ، فلما

وصلوها بقيادة تولوي، طلب أهلها منهم الأمان، وعلى غير عادة التتار فقد قبلوا أن يُعطوهم الأمان، فتسلَّموا البلد في محرم من سنة ٦١٧هـ، ثم قصدوا الزوزان، وميمند، وأندخوي، وقاريات، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة، وفي أول محرم سنة ٦١٨هـ . ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١م، سار تولي في خمسمائة من الخيالة لاختيار حصون مدينة مرو، وأرسل ابن جنكزخان إلى ما حوله من البلاد، وأمرهم بجمع الرجال لحصار مرو، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية، فتقدموا إلى مدينة مرو وحصروها، وجَدوا في حصرها، ولازموا القتال.

وأخيراً استسلمت البلاد. فأمر ابن جنكيز خان، أن يُقتل أهل البلاد أجمعون، وبدأ المغول يَقتلون كل سكان مرو، الرجال والنساء والأطفال، وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره. وهكذا أصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين، وهَلك سكانها أجميعن. الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً.

وفي أواخر سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م. سار المغول إلى مدينة نسا، وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يُحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، بالصغار والنساء. والضجيج يشق جلباب السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا، بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا، وأَمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر. كما أَمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قَتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال.

ثم توجه التتار إلى مدينة نيسابور، بعد أن تركوا خلفهم مدينة مرو، ومذبحة نسا، وقد خُرِّبتا تماماً، سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م. والبطبع كانت أخبار مرو كانت قد وصلت إلى نيسابور، فدب الرعب والهلع في أوصال المسلمين، وما استطاعوا أن يقاوموا التتار، ودخل التتار المدينة. فلم يكن لأهلها أي قوة لدفعهم، فعَرضوا على تولوي التسليم، وتَعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، ولكن تولوي رفض، وفي يوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨هـ/٧ أبريل سنة ١٢٢١م أمر بمهاجمة مدينة نيسابور من كل مكان، وأخيراً تمكن المغول من احتلال

مدينة نيسابور، وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً، زالت فيها معالمها، ولم يُبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم.

وسار الجيش المغولي بعد نيسابور، إلى مدينة هراة، إحدى مدن خراسان الهامة، وطلب أهلها التسليم على أن يُؤَمِّن المغول حياتهم، ووافق تولوي على هذا الطلب مُكرهاً، وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سقط بكامله في أيدي التتار، ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة.

في سنة ٦٢٠هـ، توغل المغول في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة، وفي أول سنة ٦٢١هـ، وصل طائفة من التتار من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية، وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها، فلم يَشعوا بالتتار إلا وقد وصلوا إليها، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقَتلوهم كيف شاؤوا، ونَهبوا البلد وخرَّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، أول سنة ٦٢١هـ، وصل طائفة من التتار من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية، وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها، فلم يَشعوا بالتتار إلا وقد وصلوا إليها، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقَتلوهم كيف شاؤوا، ونَهبوا البلد وخرَّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، وفي أعوام، ٦٢١، ٦٢٢هـ، خفت قبضة جنكيز خان على غرب الدولة، الخوارزمية، وفي آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفى الخليفة الناصر لدين الله، في الرابع عشر من رجب، سنة، ٦٢٣هـ، توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين.

وفي عام ٦٢٤، وقيل ٦٢٥هـ، توفي جنكيزخان، عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة.

كان لجنكيز خان من الأولاد تسعة عشر ولداً، من امرأة واحدة، وهي تسوجي خاتون، وقيل: يَسُونجين بَيْكي، ومنهم دوشي خان بن جنكيز خان، منهم تلي خان وهو طلوخان، وهو الأكبر، وهو الذي قُتل في سنة ٦١٧هـ، في الحرب التي كانت بينه وبين السلطان جلال الدين منكوبرتي. وكان جنكزخان قد جَعل وظيفة

دوشي خان ترتيب الصيد، وهي عندهم أكبر المراتب.

ومنهم أوكتاي خان بن جنكيزخان. ومنهم جغطاي بن جنكيزخان، فهؤلاء الأربعة هم المُشار إليهم من أولاد جنكيزخان.

ولقد ظل العرش المغولي خالياً من ملك، وكان جنكيزخان قد كتب وصيته قبل وفاته بمحضر إخوته وبعض بنيه، وقرر معهم أن يَعملوا بها إذا دخل فصل الربيع، في سنة ٦٢٥، فيجتمع إخوته وأولاده، والخواتين والأمراء، ويقيموا الأفراح أربعين يوماً، ويذبحون الذبائح، من حين اجتماعهم، ثم تُقرأ وصيته ويُعمل بمقتضاها. وقد رأى الأمراء الكبار، وكبار رجال العشيرة، ضرورة التعجيل بتنصيب خاناً جديداً، واستقر رأيهم على اتخاذ هذه الخطوة، فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى: القوريلتاي.

فوفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش. وشَرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد. فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، وبعد انتهاء مراسم التتويج خَرج: أوكتاي خان، من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات. ثم جَلسوا لتناول الشراب والاحتفال، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يَطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان.

لقد كان انتخاب أوكتاي بن جنكيز خاناً أعظم للمغول، إيذاناً بإعادة الهجوم من جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية، والقضاء عليها نهائياً، وبالفعل استطاع المغول تدمير جيش جلال الدين منكبرتي، وبعد أن تخلصوا من أخطر عدو، استطاع أن يواجههم ببسالة، أصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق.

وبدأت خطة الفتوحات المغولية للعالم: فقسَّموا قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية: فتح الجيش الأول ديار بكر، وما في اتجاهها. والجيش الثاني قصد مدينة بدليس، وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان، وشَرَع يَفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وفي عام ٦٣٢ . ٦٣٣هـ/ ١٢٣٤ . ١٢٣٥م، دَخل المغول إقليم إربل وغزوا

حاضرته، وهاجمت القوات المغولية العراق في سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، فردتها جيوش الخليفة، وقصدوها مرة ثانية، عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حيث هزموا المسلمين في الخانقين، ثم رجعو عنها.

واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية، فدمروا وخرّبوا، وسيطروا على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، وسيطروا على سلاجقة الروم عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م، وسيَّر جيوشهم إلى الصين، سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً، وفي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، سقطت العاصمة: كاي فونج.

بعد أن عاد اوكتاي من الصين مُظفراً، كوَّن جيشاً عظيماً تعداده ١٥٠٠٠٠ جندي، أَسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجي، وكلَّفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوربا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور: سبوتاي، يتولى القيادة الفعلية، فنجح في مهمته، وهزم حكام روسيا، وأحرق مدينة موسكو، وفي سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م، دمروا مدينتي: سوزدال وفلاديمير، ودارت المذبحة في كل سكان تلك المناطق، وانسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف ٦٣٦هـ - ٨٨٦هـ.

ثم زحفت الجيوش المغولية بعد أن تم لها فتح روسيا، وانقسم قسمين، فقصدا بولندا والمجر، وتقدموا حتى مدينة برلين، وفي هذا الإقليم وحده، جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم، فبلغ مجموعها ٢٧٠٠٠٠ أذن، أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأسٍ وسطوة.

وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوربا، إذا بالأنباء ترد إلى أوربا تُعلن وفاة أوكتاي في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، على أثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، ونظراً لمرور وقت طويل دون الاتفاق على الخان الجديد، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب، وما أن علمت توراكينا خاتون زوجة الخان المتوفى، والتي تدين

بالمسيحية، بهذه التدابير، حتى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتجكين، أخو جنكيز خان، والطامع في العرش بالقوة، فاستمالته إليها، وبذلت كل ما في وسعها لمدة أربع سنوات، من أجل أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب، وتتبعت الأمراء وأركان الدولة الكبار في عهد أوكتاي بالعزل، مثل: جينقاي الوزير الأعظم للقاآن، ومحمود يلواج صاحب الديوان، وحاكم الخطا، كذلك قامت بعزل وإعدام: كوركوز، حاكم إقليم خُرسان، وجَعلت محله: أرغون.

وفي عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، انعقد القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، وتم فيه تنصيب كيوك خان خاناً أعظم للمغول كان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح. فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان، ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا، وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها، وأمر بمعاقبة الذين قصَّروا في أداء واجبهم.

وفي عصر الخان: كيوك خان، الذي ظل يَحكم من سنة ٦٣٩ هجرية إلى سنة ٦٤٦ هـ، ارتفع شأن المسيحيين، في حين لم يرتفع صوت للمسلمين، وذلك بتأثير أُمه من جهة، وكانت تدين بالمسيحية، وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى، كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً للإشراف على الشئون الطبية في البلاط المغولي، وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية. وأيضاً توقفت تقريباً حركة التوسعات الخارجية في مدته.

وفي شهر ذي الحجة ٦٤٨هـ/ابريل١٢٥٠م، عُقد القوريلتاي بالفعل، وبحضره الأمراء والعظماء تم إقرار تنصيب: منكو- (٦٤٨ — ٦٥٥/ ١٢٥٠ — ١٢٥٧). خاناً أعظم للمغول بصفةٍ رسمية. في منطقة قراقورم. بصورة رسمية، ورغم أنف المعارضين. فأمر بقتل كل الذين كانوا يرغبون في إبعاده عن المنصب.

وقد اهتم منكوقاآن بالإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة، وكان منكوقاآن لا يُفرِّق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين

والبوذيين على قدم المساواة،وكفل الحرية للجميع، وكان من أهم ما اتصف به، أنه كان يَكره الترف والمباذل، وهوايته الصيدفقط، وكان بالغ النشاط، بارعاً في تسيير الإدارة، جُندياً باسلاً وسياسياً ماهراً وذكياً، فأعاد القوة والحيوية ميراث جده جنكيز خان، ووهب الإمبراطورية المغولية أساليب إدارية محكمة، وجَعل منها دولة بالغة القوة.

وفي السنة التالية لحكم منكوقاآن، ٦٤٩هـ، فجهز حملتين كبيرتين، نصَّب أخاه الأصغر: هولاكو، على رأس إحداهما وكلفه بالقضاء على الإسماعيلية، وإدارة إقليم فارس، وإخضاع الخليفة العباسي، ونصَّب أخاه الأوسط: قوبيلاي، على رأس الحملة الأخرى، المكلفة بفتح أقاليم الصين الجنوبية، وكوريا، فكان هذا أو ظهور لهولاكو، هذا الأمير السفاح، على مسرح الأحداث المغولية والإسلامية.

لقد جاء القدر بمن سيدمر الخلافة العباسية، ويُذيق أهل بغداد، بل وأهل العراق ومن هوله كل صُنُف العذاب، القدر بمن سيدمر الخلافة العباسية، ويُذيق أهل بغداد، بل وأهل العراق ومن هوله كل صُنُف العذاب، وعندما تجهز هولاكوا للقيام برحته نحو بغداد، أرسل الخان الأعظم للمغول رسالة لأخيه هولاكو، يشرح له خطة سيره، وطريقة تعامله مع الأعداء، وأن الخليفة العباسي لو دخل في الطاعة حسب إرادة المغول، وعاونهم على أعدائهم، أن لا يتعرض له، وإلا فليذيقه صنوف العذاب.

بدأ هولاكو في إصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، أقام الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار، جهز الناقلات العملاقة، صُنعت خصيصاً لحمل أدوات الحصار، سيطرة على كل المدن والمراكز التي تتحكم في محاور الطرق، قام بإخلاء كل الطرق من الصين إلى بغداد، من قطعان الماشية،لتتوافر الأعشاب لدوابه أثناء تنقله.

في نفس الوقت بدأ التتار في محاولة عقد بعض الأحلاف السياسية، فتحالفوا مع مسيحيوا غرب أُوروبا خاصة، والأمراء الصليبيين في الشام والعراق،

ومع مملكة الكرج النصرانية، في جورجيا الآن. وتبادلت بينهم الرُّسل والسفارات، وجاء بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل. وجاء سُلطانا السلاجقة وهما: كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع، فتحالفا أيضاً مع هولاكو، وجاء الناصر يوسف، أمير حلب ودمشق، كما اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، وزير الدولة العباسية.

أيضاً مارس المغول الحرب النفسية على المسلمين، فقام ببعض الحملات الإرهابية في المناطق المحيطة بالعراق لبث الرعب، كما مارس ضد المسلمين الحرب الإعلامية، عن قُدرات التتار الهائلة. واستعداداتهم الخُرافية، والتي يصعب مقاومتها، أيضا تابع هولاكو كتابة رسائل التهديدية، وإرسالها إلى أُمراء المسلمين، وإعلان التحالفات بين التتار وبين الأرمن والكرج وغيرهم.

بعد خمس سنوات كاملة من الإعداد والتجهيز للحرب، وفي ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ/ يناير ١٢٥٦م، أصبحت كل الطرق الواصلة بين الصين والعراق قادرة على استيعاب القوات المغولية، سيطر التتار على كل المساحات التي تقع بين الصين والعراق، توفرت لدى هولاكو المعلومات الكافية عن أرض العراق، وتحصينات بغداد، تم توقيع المعاهدات والتحالفات مع نصارى الأرمن والكرج وانطاكية، وأخذ منهم الوعود بالمساعدة العسكرية والمخابراتية في المعركة القادمة. انهيار الروح المعنوية عند المسلمين في العراق وما حولها. أقام هولاكو علاقات وثيقة مع وزير الدولة مؤيد الدين العلقمي.

وزيادة في تأكيد قدرات الجيش المغولي المتجه للعراق، ضم جيش التتار في منطقة فارس وأذربيجان، ضم فرقة من جيش التتار المتمركزة في حوض نهر الفولجا الروسي، أرسل هولاكو في طلب فرقة من جيش التتار المكلف بفتح أوروبا، طلب المساعدة من هيثوم ملك أرمينيا. ومن ملك الكرج، وضم أكبر عدد من أمراء المناطق القريبة.

ولوجود طائفة الإسماعيلية في الشريط الغربي لفارس والشرقي للعرق، ولخطرهم الذي لا يؤتمن، أحب هولاكو أن يتخلص منهم أولاً، وقبل مهاجمة

الخلافة العباسية ببغداد، في ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ/ يناير ١٢٥٦م، اصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق، وإقامة جسر على نهر جيحون حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الإسماعيلية، ثم انتظر لمرور الشتاء ثم هاجمهم واستطاع ان يستولي على تلك القلاع، الواحدة تلو الأخرى، وتحركت أخيراً الجيوش المغولية الهائلة صوب معقل الإسماعيلية الأعظم، وهو حصن آلموت، في غرب فارس، في أواخر سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م، وخضع ركن الدين خورزمشاه زعيم الإسماعيلية، لما رأى هذه الأعداد التي لا تُحصى، وتم فتح القلعة وذبح كل من بها.

وفي سنة ٦٥٥ هـ، أصبح الطريق آمناً ومفتوحاً إلى بغداد، وبدأت الجيوش المغولية، تزحف ببطء، ولكن بنظام معلوم ومحدد، وفي رمضان سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م، أرسل هولاكو رسالة إلى الخليفة مليئة بالتهديد والوعيد، ويأمره فيها بالتسليم والخضوع، ورفض المعتصم بشدة كل ما جاء برسالة هولاكو، وردَّ عليه برسالة كلها احتقار، فاجتمع هولاكو مع كبار مستشاريه في مجلس حرب، في مدينة: همدان الفارسية - في إيران حالياً- وهي تقع على مسافة حوالي٤٥٠ كيلو مترًا من بغداد إلى الشمال الشرقي، وقرر هولاكو تقسم جيشه ثلاث أقسام كما هي العادة الغالبة، ميمنة وميسرة وقلب، وفي أول المحرم سنة ٦٢٥هـ/١٢٥٧م، نزل هولاكو من من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان، وفي يوم ١٢ محرم من سنة ٦٥٦ هجرية.

وبينما أهل بغداد في لهوهم ودنياهم، ظهر جيش هولاكو قبالة الأسوار الشرقية لبغداد، وحاول الخليفة أن يجرب موضوع الجهاد، بجيش لا يصلح لمقاومة أي معتدٍ، بقيادة الرجل المخلص: مجاهد الدين أيبك، ولكن ماذا يفعل، لقد انهزم وفر، وبدأ في عملية إبادة واسعة النطاق في العراق، ووصل الأمير المغولي: بيجو، إلى شمال بغداد وغربها، وهولاكو من الشرق، وتحركت رسل الخليفة نحو هولاكو لطلب الصلح، في شهر آخر محرم سنة ٦٥٦ هـ، الموافق شهر يناير من سنة ١٢٥٨م، وكانت شروط المغول مجحف، إنهم لا يرغبون في الصلح،

وفي الأول من صفر سنة ٦٥٦ هـ، بدأ قصف بغداد، واستمر أربعة أيام متصلة.

وقرر الخليفة العباسي المعتصم بالله أن يتخذ خطوة إيجابية، فاستشار وزيره ابن العلقمي، فأشار عليه بالخروج بنفسه إلى هولاكو، الذي اشترط لمقابلتها أن يصحبه سبعمائة من خيرة أهل العراق، وعلى باب هولاكو قال الحرس: سيدخل ومعه سبعة عشر رجل فقط، أما الباقون فسيخضعون للتفتيش الدقيق، ولكنه كان القتل.

وأخير دخل هولاكو بغداد، وأمر بقتل الخليفة رفساً بالأقدام، وأمر بنهب المدينة، بل نهب كل العراق، وتدميره، وتم تدمير مكتبة بغداد الزاخرة، وبعد أن فرغ المغول من تدمير مكتبة بغداد، انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق، وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أصدر هولاكو قراراً بتعيين الوزير: مؤيد الدين العلقمي، رئيساً على مجلس الحكم ببغداد، فمات كمداً، في مستهل جماد الآخر من هذه السنة، وتولى بعده ابنه، وفي ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ، وبعد سقوط بغداد بسنة واحدة، توفي الوزير عز الدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي. فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطاء ملك الجويني.

لقد أصاب سقوط بغداد العالم الإسلامي بالفزع والذهول والحيرة، وهرع المستضعفون من حكامه إلى الطاغية هولاكو. يُقدمون له فروض الطاعة والتهنئة، ويتملقونه خوفاً من بطشه واتِّقاء شره، ولم تتوقف هجمات المغول، ففي سنة ٦٥٨هـ، استولى هولاكو على ميافارقين. وفي سنة ٦٥٦ هـ، نقم هولاكو على القائد بيجو فسمه، وفي سنة ٦٥٧هـ، وجَّه هولاكوا، القائد أرغون إلى كرجستان، ذي الحجة من سنة ٦٥٧هـ، وفي سنة ٦٥٨هـ، عَبر هولاكوخان الفرات بجُموعه، ونازل حلب، وتسلمها في يوم الإثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، وجرد هولاكو إلى دمشق مقدماً يُسمى السبان، تسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى من السنة ٦٥٨هـ. وعاد هولاكو سنة ٦٥٨هـ، من حلب إلى بلاد قراقروم لطلب القانية لنفسه، فوجدها قد استقرت لأخيه قُبلاي – (٦٥٨ –

٦٩١هـ/ ١٢٦٠ – ١٢٩٤م)، فاستقر لهولاكوخان الأقاليم التي فتحها وغيرها.

وفي التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ، وبالقرب من كورة مراغة. مات هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان.

الصاوي محمد الصاوي



لقد قامت دولة المغول، وعندما نقول المغول أو التتار فهما بمعنى واحد، لأنهم وإن كانوا فريقين قبل قيام جنكيز خان، إلا أنهم بقيامه صاروا كلهم واحد. كما قامت الدول من قبلها: وكما قامت من بعدهم، أي أنها قامت على أنقاض ودماء دول غيرها، دب فيها الضعف، واختلف أهلها، إما على المال أو على الحُكم، أو كلاهما، في هذه الظروف يحدث التفكك بين أبناء الشعب، ويقل ولاؤهم لمثل هؤلاء الحكام، حين يَنظرون ولاة الأمر وقد تركوا مهمتهم الأولى، وهي حماية بلادهم وشُعوبهم، والتفتوا للبطش والتنكيل ببعضهم، وكلٌ يُريد الانفراد بالأمر الذي يوشك أن يَخرج من أيديهم بالكلية: وبعده لا تَبقى دولة ليحكموها، ولا تبقى شعوباً ليقودوها، بل في الغالب يَأول أمرهم إما إلى القتل أو الأسر، وكلاهما مُر.

وهناك حالات أخرى، تذهب بها الدُّول القديمة. ويحل محلها تلك الدولة البازغُ نجمها، وقد حدث ذلك تقريباً بالنسبة لمجموعة الدول الإسلامية المحيطة ببلاد المغول، مع أن تلك الدول لم تكن بالضعف الشديد، إلا أن رؤساء تلك الدول لم يكونوا بالحكمة الكافية لإدارة بلادهم في فترةٍ كتلك، التي نبغ فيها نجم تلك الشعوب المغولية التترية، علاوة على أن تلك القوة قد تنامت بسرعة مُدهشة، جَعلت من شبه المؤكد أن تلك الدول المحيطة بها زائلة لا محالة، ولكن عجل بهذه النتيجة، تهور بعض القادة بها، أو عدم قُدرتهم على مُجارات الأحداث للمد في عُمر دولهم أكبر فترة ممكنة.

فلقد كانت الدولة الخوارزمية من أقوى دول العالم الإسلامي في الفترة التي ظَهر فيها نجم الدولة المغولية، كما كانت الدولة الغورية بخير، ولكن هبّة

المغول كانت بالقوة ما مكنهم من كسر تلك الدول وطيِّها كأن لم تكن، في فترة قصير في عمر الزمن.

وقبل أن نتعرض لتاريخ المغول، سوف نُقدم نبذة مختصرة عن الدوَل الإسلامية التي حطمها جنكيزخان، وضمها إلى دولته في أيام قيادته لدولة المغول التي أسسها.

أصل المغول وبدايتهم وحياتهم

المغول هم عدة قبائل بدوية رعوية، كان يُشار إليهم غالباً باسم التتار أو التَّتر، وهو اسم كان يُطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر، وكانت القبائل المغولية في مستهل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، تَعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبي في أواسط آسيا، بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان (Khingan) ؛ على حدود منشوريا في الشرق [١].

وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في اقصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال الثلاثة عقود الأخرى من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوربية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً، إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً.

وكانت هذه القبائل تَعيش على الصيد والقَنص، ويتغذون باللحم ولبن الخيل [٢].

ولم يكن لهم دورٌ يُذكر في التاريخ قبل ظهورجنكيزخان، بل كانوا ينقسمون إلى عدة قبائل كما يلي.

القبائل المكونة للمجتمع المغولي.

١ ـ قبيلة القيات الصغيرة، التي ظهر منها جنكيزخان وكانوا يَسكنون على شواطيء الشِّعب العُليا الآمور، وجبال قراقورم، أي يابلونوي الحالية (Iablonoi) ولم يكن لهم شأن بين الأمم حتى في اول أيام جنكيزخان، لأنهم كانوا لا يَزيدون على ٤٠.٠٠٠ خيمة، فإذا حسبنا في الخيمة عشرة أنفس لم يَزد عدد هم على ٤٠٠.٠٠٠ نفس، فَحَمل جنكيزخان بهذا العدد القليل من بدو المغول

على ما يُحيط ببلادهم من الممالك العامرة، فاكتسحوها في بضعة عشر عاماً [٣].

٢ ـ قبيلة الأويرات، وكانوا يُقيمون في المنطقة الواقعة مابين نهر أوتن (Onan) وبحيرة بايكال، وكانوا كثيري العدد، وقد انقسموا إلى عدة فِرق، إلا انهم كانوا يأتمرون بأمر ملكٍ واحد، ولما جاء جنكيزخان استطاع ان يُخضعهم لطاعته، وكانت تلك القبائل تتكلم بلغة تختلف قيلاً عن لغة القبائل والطوائف المغولية الأخرى [٤].

٣ ـ قبيلة النايمان، وهي من قبائل الأتراك الذين غَلَبَ عليهم الطابع المغولي، وكانوا يُقيمون في أقاصي الغرب بين أعالي نهر أرتش ونهر أرخون، شمال جبال آلتاي. وحول البحيرات الواقعة بتلك المنطقة. كما كانوا يمتلكون غرب منغوليا كله، ابتداء من شمال نهر آورخون إلى نهر آيرتيش، وبسبب اقتراب هذه القبيلة من قبائل الأوغور في الجنوب، فقد اعتنقوا الديانة المسيحية حسب الطقوس النسطورية، وكان النايمان بدو رُحل يُقيمون يقيم بعضهم في الجبال الوعة والبعض الآخر في الصحراء. وقد استعاروا مبادىء ثقافتهم من الترك والأيغوريين جيرانهم في الجنوب، وكان النايمان يُعدون من ارقي أنواع الترك في هذا الوقت، وكانوا يتكلمون اللغة المغولية [٥].

٤ ـ قبيلة الكرايت (Kerait) وكانت تَقطن الواحات الشرقية لصحراء جوبي [٦].

وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين، وكانت هذه القبيلة من أقوى قبائل المغول في القرنين الخامس والسادس الهجريين، واستطاعت السيطرة على معظم القبائل التي حولها، وقد اعتنق رئيس هذه القبيلة الديانة المسيحية عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م، وأنه قد ذاع أمره في أوروبا، وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم. ومنذ ذلك الحين صاروا يَعتنقون النسطورية على يد أسقف نسطوري مقيم في مرو، وفي القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، اتخذ زعماؤهم أسماءً مسيحية [٧].

وكان طغول من أشهر ملوكهم، وقد استطاع أن يطرد عمه الذي كان ينافسه على العرش، وذلك بمساعدة رئيس المغول: يسوكاي والد جنكيزخان الذي ظل من أتباعه، وقد استطاع طغول أن يَهزم التتار، وصار بذلك أقوى ملك ورئيس قبيلة في منغوليا، فمَنحه الامبراطور(كين) الصيني القب الصيني للمل، وهو: وانج wang. وعُرف طغول في التاريخ بلقبيه الملكيين، الصيني والتركي: وهما: وانج خان [٨].

٥ ـ قبائل المركييت (Markit) وهم من المغول، وقيل إنهم مستقلون عن الشعب المغولي، ولكنه كان قوياً وصاحب نفوذ كبير، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالي بلاد الكراييت على مجرى نهر سلنجا، وجنوبي بحيرة بايكال، وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد، وعُرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن، ولهذا شنّ عليهم جنكيزخان حرباً شعواء، استعمل فيها أقصى ما عُرف عن المغول القسوة والشدة، ولم يقف عند هذا الحد، بل أصدر جنكيزخان اوامر بالقضاء عليهم جميعاً، فلم ينج من سيوف رجاله إلا القليل من الهاربين، او من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون امهاتهم [٩].

٦ ـ قبائل التتار، وكانوا يَقطنون المنطقة التي تُحد شمالاً بنهري " أرخون " و "سيلنجا " (Selenga) ومملكة القرغيز، وشرقاً بإقليم الخطا (الصين الشمالية) وغرباً قبائل الأويغور، وجنوباً بإقليم التبت [١٠].

وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً في اقاليم آسيا الشمالية، وكانوا يتمتعون باحترام زائد نتيجة قوتهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر القبائل رفاهية وتنعماً [١١].

وكان التتار في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يَسكنون جنوب غربي بحيرة بايكال، وحتى نهر كيرولين، وهم ثلاث اقسام:

١ - التتار البيض: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

٢ - التتار السود: وكانوا ينزلون شمال صحراء جوبي، وكانوا بدواً رحلاً.

٣ - تتار الغابة: وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري أونون، وكيرولين، ومارسوا حياة الصيد.

ومع أن المغول الذين قاموا بالغزوات والفتوح المشهورة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، كانوا يُعرفون باسم التتار في كل مكان، كما سُحب على أسلاف جنكيز خان، وعلى النايمان، إلا أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول، بينما صار اسم مغول يُطلق على جميع الشعوب التي خَضعت لجنكيز خان بعد قهره لها، ولم تلبث لفظة تتار ان تغلبت عليها، خاصة في الجهات الغربية من الإمبراطورية المغولية، مع العلم بأن لفظي: المغول والتتار، اسمان لقبيلتين كانت تعيشان في القسم الشرقي من آسيا الوسطى، وفي الشمال الغربي من الصين، على أنهار اولدزا وكيرولين، وأرخون، وأونون وسائر روافد نهر عامور[١٢].

وكانت قبائل التتار في صراع دائم وشديد مع قبائل المغول، وكانت مراعي المغول تمتد صيفاً حتى اقاصي سيبريا، وقد كان كلاً من الشعبين التتري والمغولي، وهما أبناء عمومة مع التُرك، يعيشان على الرعي، إلا أنه كان للتتار حضارة بدائية، نتيجة احتكاكهم بالصينيين. بل إن آخر الأُسر الحاكمة لشمال الصين قبل سقوطها في أيد جنكيزخان كانت تَرجع أصولها إلى التتار!! و حين ظَهرت حركة جنكيزخان قتل الكثير من التتر، ثم استطاع توحيد الشعبين، وذلك في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، وكان هو قد بلغ الأربعين من العمر، حيث ولد ما بين ١١٦٥م، و١١٦٧م. ثم قادهما لغزو الصين، وأَطلقَ اسم التتار علي نفسه وقبيلته، ربما لما كانوا يتمتعون به من القوة والشجاعة والثراء والنُبل، فصار يُعرف هو وقبيلته المغولية ومن انضم تحت لوائه من التتر الأصليين، باسم: التتر، ثم انطلق بهم لبلاد خوارزم وفارس وروسيا، ثم بلاد العرب.. إلخ [١٣].

ومن المعلوم أن المغول في بدء هجومهم على العالم الإسلامي كانوا يُعرفون بالتتار، كما أُطلق عليهم اسم: المغول، ومُغل. واشتهروا في التاريخ بهذه الأسماء [١٤].

وسُرعان ما اتسعت مملكة جنكيزخان، حتى بلغت حدودها من كوريا شرقاً، إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غرباً، ومن سهول سيبريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً. أي أنها كانت تضم من دول العالم حاليًّا: الصين ومنغوليا وفيتنام وكوريا وتايلاند وأجزاء من سيبيريا، إلى جانب مملكة لاوس وميانمار ونيبال وبوتان [١٥].

كانت هذه القبائل مستقرة في السهول الواقعة بين سلاسل الجبال في هذه المنطقة، حيث الدفء شتاءً، وحيث تتوافر المراعي لحيواناتهم، وفي الصيف يَستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثة، حيث تكون المنطقة باردة، وتتوافر فيها المياه والمراعي [١٦].

وقد أسهم البُعد الشديد لهذه المناطق عن البحر، فضلاً عن ارتفاعها عن سطحه، في إكسابها مناخاً قارياً، إذ تتراواح درجات الحرارة في معظم أجزائها ما بين ٣٨ فوق الصفر، و٤٢ تحت الصفر، مما يؤدي إلى تجميد أنهارها وبحيراتها فترة طويلة من السنة، بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب عليها من منطقة سيبيريا الواقعة شمالاً [١٧].

وقد انعكست هذه الحالة في فصل الصيف، حيث تَرتفع الحرارة وتهب الرياح الشديدة المحملة بالأتربة [١٨].

في هذه البيئة القاسية،كانت هذه القبائل، التي تعيش على الصيد والرعي تتنقل وراء الماء القليل في صحراء جوبي، التي تعني الجدب والفقر [١٩].

سواء في السهول بين الجبال، أو في المرتفعات، وكانت كلما زحف الجفاف وقل العُشب تَرحّلوا إلى منطقة أخرى مجاورة، تَدفعهم الحاجة وكثرة القُطعان، وكان ذلك طبيعياً بالنسبة لهم، عدم الاسقرار في مكان معين [٢٠].

حتى إننا نجد المغولي يكن لحرفة الزراعة كراهية شديدة. وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تَسكن بعض السهول الخصبة أحياناً، إلا أنهم لم يُحاولوا زراعتها، بل كانوا يُهاجرون في فصل الصيف من السهول إلى الجبال، فإذا انعدم فيها العشب رحلوا عنها، حيث يتعذر عليهم البقاء مع قُطعانهم بها [٢١].

وإذا احتبست الأمطار أو تعرضت المراعي للآفات وقلة الأعشاب تبعاً لذلك وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته، وهي مصدر رزقه، ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يَدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر[٢٢].

وبالرغم من وحدة أصول هذه الأقوام، إلا أنه كانوا ينقسمون إلى قبائل عديدة تتزايد أعدادها يوماً بعد يوماً بحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعض حاملة أسماء جديدة، تفرعت إليها وعرفت بها[٢٣].

الحياة الاجتماعية عند المغول

كان المجتمع المغولي يقوم على الطبقية، فقد كانت القبيلة مقسمة إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: وهي طبقة النبلاء، وكانوا يلقبون بالألقاب: هادر، أي الباسل. وتوبان، أي النبيل، وستسن، أي الحكيم.

والطبقة الثانية: هي طبقة النوكور، أي الأحرار. وعلى هؤلاء كان يرتكز النظام العسكري والسياسي في منغوليا، زمن جنكيز خان" وكانوا يؤلفون طبقة المحاربين والموالين له.

والطبقة الثالثة: هي طبقة العامة، وطبقة الأرقاء وكان لكل جماعة أو عشيرة من المغول رئيساً، قد يكون ملكاً "خان، قان" أو زعيماً "باكي أو بكي، وبهذا اللقب اشتهر رؤساء قبائل الغابة أمثال "أويرات، ومركيت [٢٤].

وكانت بعض القبائل الصغيرة تلجأ أحياناً إلى إحدى القبائل الكبيرة على عادة البدو في كل مكان، وذلك لعجزها عن الدفاع عن نفسها كما حدث لقبيلة الجلائر، في علاقاتها مع أجداد جنكيز خان، وما جرى أيضاً لقبيلتي: القنقرات، والأويرات. حينما خضعتا لجنكيز خان.

لقد أثّرت البيئة التي عاشت فيها تلك القبائل تأثيراً كبيراً على حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، فمناخها القاري والسعي وراء الأعشاب لرعي الماشية والأغنام، فرضت عليهم مع مرور الزمن نمطاً معيناً من الحياة. فقد عاش الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات، حول بحيرة بايكال، ونهر عامور، عيشة المتبربرين، حيث يَعيشون على صيد الحيوانات في الغابات، وعلى صيد السمك في الأنهار والبحيرة.

وأما الذين كانوا يَعيشون في الاستبس، فقد عاشوا على تربية الخيل والماشية والأغنام، يلتمسون العشب، ويسير الرجل في أثر قطعانه، وتوزيع المراعي والمياه حدد مجال تحركهم في فصول السنة، وكثيراً ما كانت تحرُّكاتهم نحو المراعي سبباً في المنازعات والغارات والسلب والنهب، وما كان يُمارسه الرُّعاة من التدريب المستمر على ركوب الخيل، والسعي لاكتشاف المراعي والمياه، واستخدام الأسلحة، وما يتصفون به من قوة الاحتمال، ومعاناة الجهد والتعب، والشجاعة، والميل إلى الحركة، وحب المخاطر، واتساع الأفق، وحب التسلط، كل ذلك جَعل رجال هذه القبائل عبارة عن جنود بارعين وجيوش جاهزة في كل لحظة [٢٥].

وعندما جاء جنكيز خان واستطاع توحيد هذه القبائل تحت حُكمه، نظّم لهم نوعاً من الحياة الاجتماعية، مستفيداً من التجارب التي عاشها والشدائد التي عاناها، وما قام به من حروب وغزوات، وكان ذلك كله مسطوراً فيما يُعرف بالياسا، وهي أحكام أو دستور "جنكيز خان" دونها له الاويغور بخطهم وهي مزيج من القوانين موضوعة على ارادة الخان المغولي تسجل العادات القبلية كان المغول يرجعون إليها عندما يجلس خان جديد للعرش، وفي حالة تعبئة الجيوش

والاستعداد للقتال. ذلك لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل الخاضعة له، وعلى كبح جماحها، والزامها بالنزول على حُكمه، فاشتمل هذا القانون على عقوبات بالغة الصرامة، حتى يَقضي على أسباب الفوضى، ويُعيد الأمن إلى نِصابه.

وتحدد في هذا القانون علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع [٢٦].

وقد نجح جنكيز خان، في هذا الغرض واستطاع أن يُحول جموع المغول إلى جيوش منظمة، تسير وفقاً لخطط حربية مرسومة، وكان المغول يتخذون طعامهم من لحوم الحيوانات على اختلافها: من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران، وغذائهم قليل وخاصة في الشتاء، إذ تقسوا عليهم الطبيعة، ولهم طريقة في حفظ اللحوم، وهي أنه إذا مات عندهم حيوان قطعوا لحمه شرائح رقيقة وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها العفونة [٢٧].

وكانت ملابسهم بسيطة جداً تتفق والبيئة التي يَعيشون فيها، وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف أو وبر الإبل أو من جلود الحيوانات، ولم يكن ثمة فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء، وكان من عادة المغول أنهم لا يُغيرون ملابسهم طول فصل الشتاء، وأما في الصيف فيكتفون لتغيرها مرة واحدة كل شهر، ومن عادتهم الا يغسلوا ثيابهم أبداً بل يلبسونها حتى تُبلى، حيث كان غسل الملابس ضد عقيدتهم، وكان من عادتهم أن يَطلوا أجسادهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة [٢٨].

دين المغول

إن دارس تاريخ هؤلاء القوام يَجد صعوبة في التعرف على المبادئ الصحيحة، فبعض المراجع تذكر نتفاً قليلة لا تشفي غليلا وبعضهم لا يذكر شيئاً، فقد قال ابن كثير عن عقيدتهم: وهم مع ذلك يَسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات [٢٩].

ولقد وضع لهم مؤسس دولته الأول جنكيز خان قانون دولتهم، ودستور عملهم، وكتابهم الذي يعتقدونه ولا يُخلفون منه شيئاً، فقد وضع لهم كتاب: الياسا أو السياسا التي يتَحاكمون إليها، ويحكمون بها، وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شئ اقترحه من عند نفسه، وتبعوه في ذلك، وكتابه الياسا أو السياسا يُكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل، ثم يصعد ثم ينزل مرارا حتى يعيى ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلا يقول له إنا قد ملكنا جنكيزخان وذريته وجه الارض.

قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون بهذا ويأخذونه مسلما.

ثم ذكر الجويني بعضاً من الياسا من ذلك: أنه من زنا قتل، محصنا كان أو غير محصن، وكذلك من لاط قتل، ومن تعمد الكذب قتل، ومن سحر قتل، ومن تجسس قتل، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل، ومن بال في الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل، ومن أطعم أسيرا أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل، ومن وجد هاربا ولم يرده قتل، ومن أطعم أسيرا أو رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحدا شيئا فليأكل منه أولا ولو كان المطعوم أميرا لا أسيرا، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانا ذبح مثله بل يشق جوفه ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولا.

وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الانبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الانبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين [٣٠].

وقد جاء في حديث لأحد ملوكهم وهو منكو خان ١٢٥١م . ١٢٦٠م، في لقائه مع الرحالة رويركي قال: ... نحن المغول نعتقد بأن هناك إلهاً واحداً له نحيا وله

نموت وعندنا قلب يخفق بحبه، لكن الله أعطى اليد أصابع مختلفة كذلك أعطى الناس طرقاً مختلفة، فقد أعطاكم الكتاب المقدس، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه، وقد أعطى الشماناس ونحن نفعل ما يأمروننا به ونعيش بسلام [٣١].

وذكر الجويني: ... أن جنكيز خان لم يكن متحمساً لدين مُعين، وان أولاده مالوا مع رغباتهم، فمنهم من مال إلى الإسلام ومن مال إلى المسيحية، وآخرون إلى عبادة الأصنام، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والأجداد[٣٢].

وأما ابن فضل الله العمري فيقول: ... الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله، وأنه خلق السماوات والأرض [٣٣].

الديانة التي يعتنقها المغول

كانت الديانة الرسمية للمغول تسمى: بالشامانزم. وتَتمثل في عبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم الحياة الخاصة لأتباعها، كما يَدل على ذلك حديث منكوخان إلى الرحالة رويركي. ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الدّيانات الأخرى التي احتك بها المغول عندما غَزو البلاد، الأمر الذي أدى إلى ذوبان ديانته الباطلة تلك. وتحول المغول عنها إلى البوذية في الصين، والإسلام في البلاد الإسلامية والمسيحية في روسيا [٣٤].

وأما أرنولد فقال: كانت الشامانية الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا على الرغم من اعترافهم بإلهٍ عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا، لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم [٣٥].

كما كانوا يَعبدون أرواح أجدادهم القدامى، التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، ولكي يُوَفق المغول بين هذه القوى السماوية

والعالم السفلي، كانوا يلجأون إلى القسيسين، وهم الشامان والسحرة أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يَعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب، على عناصر الموتى وأرواحهم، ولم يكن دينهم معدوداً من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم كثيراً جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار، ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة، للمعلمين الدينيين، ومن ثم تأثر المغول بديانات تلك الشعوب، عندما تعاملوا معها [٣٦].

هكذا كان حال عقيدة المغول وتدينهم قبل تحركهم العسكري، وتجوالهم في بلاد العالم الإسلامي والمسيحي، أما عن تلك العقائد التي كانوا يتمثلونها، فما هي إلا نتف ومعلومات شتات خلطوه. وربما كانت عندهم من القدم عقيدة سماوية، ولكن التدخلات البشرية من بعض الحكام أو العلماء، بالإضافة أو الحذف إتباعاً للهوى أو وصولاً إلى شهوة ، أو رغبة في انتقام أو إظهاراً لمكانة، أو غير ذلك، كل هذا جعل هذه العقيدة تصل إلى هذا الشكل المشوه، ولكن المتفحص لهذه النتف القليلة يُرجح أن هذه النصوص ما هي إلا بقايا عقيدة وصلت عنهم مشوهة، خاصةً وهم يعترفون بوجود إله واحد وأنه خلق السماوات والأرض، ولكنهم يُشركون معه بعض المخلوقات، مثل الشمس والأرواح وغيرها، وهم يستنكرون القتل والزنا واللواط، والكذب، والسحر، والتجسس، وكلها من صميم النواهي والمحرمات، التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده بواسطة الرسل الكرام.

وإذا وجدنا العقاب قاسياً على بعض هذه الجرائم، فإن هذه القسوة علامة التشويه التي وضعتها يد الإنسان الظالمة، ظانين أنهم بهذا إنما يكملون نقصاً أو يستفيدون من تجربة.

ويري البعض أن تلك النواحي، وهذه الشعوب كانت لها عقيدة صحيحة شوهتها الأيام، وأنا لا أظن ذلك، فلم يكن قبل الإسلام عقيدة سليمة بصورة كاملة، ولا يُعقل أن يكون الإسلام وصل إليهم ثم تلاشت تعليماته في هذه الفترة الوجيزة، فهم في أواخر القرن الخامس الهجري، بل أرجح أنهم كانوا يتبعون

هواهم، وما عرفوه من خلال رحلات قام بها بعضهم، أو من خلال غُرباء قَدِموا عليهم. إلى أن جاء جنكيز خان فأمر بكتابتها بالخط الأويغوري وكتبت بعد أن أضاف إليها ما يعتقد أنه ينفع أمته ويقوي ملكه [٣٧].

وكان من آداب هؤلاء القوم الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يخاطبوا الملك باسمه، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولا يتخطى موقد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على أسكفة الخركاه ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذكر شيئا من الجنايات، ولا يتعرضون لمال ميت، ومكارم أخرى كان يَفعلها لسجيته، وما أداه إليه عقله وإن كان مشركا بالله، ويعبد معه غيره، وقتل من الخلائق ما لا يعلمه إلا الله تعالى [٣٨].

أحوال العالم الإسلامي الأخلاقية

ولنرجع لعرض نواحي القصور والضعف التي تفشت في العالم الإسلامي من أواخر القرن السادس الهجري، وحتى القرن السابع الهجري.

في هذه الفترة من الزمان، وهي نهاية القرن السادس الهجري، بل وقبلها، وأول القرن السابع الهجري وبعده، كان العالم الإسلامي، خاصة على مستوى النُّخبة، قد تفشى فيه الانحلال، وصارت الأمور المنافية للشرع تُقْترف بصورة عادية ودورية وتلقائية، والناس على دين ملوكهم، إذن فقد عمَّ البلاء في العالم الإسلامي، وبَعُد الناس بمسافات مختلفة عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وصارة آية، مثل: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ [الأنفال/٦٠]. وآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) [التوبة/١٢٣]، وآية: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) [التوبة/٣٦]. صارت هذه الآيات وأمثالها تُقرأ بالأفواه، ولا تَعقلها القلوب، وإن عقلتها، لم تُلق لها بالاً. وكان من جملة الابتلاءات الأخلاقية التي أصابت العالم الإسلامي:

انتشار الموبقات في العالم الإسلامي

يقول الله تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً". الإسراء، آية ١٦. ولقد انتشرت الموبقات في العالم الإسلامي، بصورة تخالف كل ما جاء في الكتاب والسنة، فمن ذلك:

١ ـ انتشار شرب الخمر: قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد

الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" (المائدة، آية ٩٠، ٩١). عندما نزلت تلك الآية قال المسلمون: انتهينا يا رب، وقام كل واحد منهم إلى ما عنده من الخمر، وسكبها، فجرت في سكك المدينة، ولم يقتصر سرب الخمر على العامة، بل انتشر بالأساس بين الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم، هؤلاء الذين تدور عليهم مصلحة البلاد، ويُعتد بفعلهم الناس [١].

لقد كانت هناك دائماً جماعات حاقدة أو ناقمة على العالم الإسلامي، تُحرض على نشر الفساد وشراب الخمر والمُسكرات، وتُحاول بكل الطرق دفع الشباب المسلم ناحية المرأة وجمالها ووصلها، ذلك لأنهم يَعلمون أن هذه هي أقصر الطرق للقضاء على المسلمين، وذلك بتحطيم المجتمع الإسلامي من الداخل، ودَفع الشباب المسلم إلى إشباع أحط الرغبات والشهوات بالحرام، وحصر تفكيره ونشاطه في ذلك، وكانت الحانات مملوءة بالجواري الفاتنات، وغالباً ما كن أجنبيات من أجناس مختلفة، لا يردعهن خُلق ولا دين، والشباب والشعراء يأتون إليهن، وكانت النساء والفتيات يَعرضن أنفسهن على الشباب والشعراء، بلا تحفظ، وبلا حشمة أو كرامة، يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الشباب، بطرقٍ غير مستقيمة، فكان يقع بينهم الفجور والمجون، وكل شيء حولهن يَدفعهن إلى هذا السلوك الآثم ويُشجعه [٢].

وكانت الأديرة متناثرة في ضواحي بغداد وسامراء، وفي طول البلاد الإسلامية وفي عرضها، فأكثر الشُعراء والشباب من الاختلاف إليها طلباً للخمر والمجون، وأكثروا من التغني بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها، حتى لقد أُلفت الكتب فيها، مثل كتاب: الديارات للشباشتي. وهو مليء بأشعار ابن المعتز وغيره، وكان لكل دير عيد تقريباً يَخرج فيه الناس للهو والمجون، وكانت هذه الأديرة تستغل أعياد النصارى لدعوة شباب المسلمين وتَسهيل وصولهم إلى الموبقات، ومن تلك الأعياد: عيد الميلاد، الذي كان يُكثرون فيه إيقاد الشموع والنيران ومنها: عيد الشعانين، أو عيد الزيتونة، وكان يُقام في أكتوبر: عيد للقديسة أشموني

في قُطرَبُّل، وهي قرية في شمال بغداد، كانت أشبه بحانة للخمارين، وكان الناس يَذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب براً، والسفن في دجلة بحراً، متنافسين فيما يُظهرونه هناك من زيهم، وزينتهم، ومباهين بما يعدونه لهذه الاحتفالات، وكانوا يَضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط، وتَعزف عليهم القيال، وهم يحتسون الخمر، وبالمثل كانوا يَسمعون في عيد الزندورد بالجانب الشرقي لبغداد. بالإضافة إلى الأعياد النصرانية التي كانت تُقام فيها الحفلات الماجنة الداعرة، أحيا الفُرس أعيادهم القديمة، وأخذوا يحتفلون بها ويُقدمون من الخمور والمأكولات الترفية [٣].

ومنها: عيد النيروز، في أول الربيع وهو للسنة الفارسية. وعيد المهرجان، في أول الشتاء. ولا شك في أن كل هذه الأعمال ساعدت على انتشار المجون والخلاعة في بغداد وسامراء، بل وفي كثير من البلاد الإسلامية، إذ كانت الخمر منتشر إنتشاراً كبيراً ومعها القيان المبتذلات وعمَّ تبعاً لذلك الشعر الصريح، بل المفرط في الإباحية وفي التعبير عن الغرائز الجسدية، التي تدفع الشباب إلى الجري إلى إشباع غرائزهم تاركاً واجبه نحو دينه، ووطنه الذي سُرعان ما اجتاحه العدو فدمره [٤].

الجواري والنساء والغلمان

أيضاً انتشر الرقيق في المجتمع الإسلامي، وخاصة في مجتمعات الصفوة التي عليها مدار شئون البلاد، كما انتشروا في كل مكان، في القصور والأكواخ والمصانع والمزارع، وكان منهم الزنجي الأفريقي والحبشي والتركي والصقلي، ومنهم الصيني، والخرساني والأرمني، والبربري، فكان المجتمع الإسلامي في تلك الفترة يَجمع كل الأجناس وقلد المسلمون الشعوب الأخرى، فشاركوهم في تجارة الرقيق وخَرجوا بها عن حدودها الشريعة، فبنوا لها في كل مدينة كبيرة سوقاً خاصة يقوم على مراقبتها موظف يُسمى: قيم الرقيق [٥]. وقد انتشر الخصيان في المجتمع الإسلامي انتشاراً سريعاً، مع أن الإسلام حرَّم الخِصاء

تحريماً قاطعاً، فكان العبيد يُخصون خارج حدود الدولة الإسلامية ثم يُجلبون ويُباعون في أسواق الرقيق في بغداد، وغيرها من المدن الإسلامية، وكان عدد الجواري والإماء في البيوت والقصور أكثر من الخصيان والرجال الأرقاء، وكان كثير من الرجال يُفضلونهن على الحرائر اللواتي كانوا يتزوجون بهن وهم لا يَعرفونهن، بخلاف الجواري اللائي كن مَعروضات لهم في الأسواق وبيوت النخاسين، فكانوا يختارونهن على حسب وقوعهن في نفوسهم ومن أجل ذلك كان يندر تزوجهم بأكثر من واحدة من الحرائر، فقد اكتفوا بالإماء عن تعدد الزوجات من الحرائر، فأقبل العامة والخاصة إقبالاً كبيرا اقتناء الجواري والإماء والغلمان والخصيان، متخذين من الخُلفاء والأمراء قُدوة لهم، وإن كانت قدوة غاية في السوء، بل كانت أمهات عدد من الخلفاء أمهات أولاد، خاصة التُّركيات، والروميات، وكن يَتدخلن في شئون الحكم [٦].

وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق، ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجديدات من الجواري الحسان وكثيراً ما كانوا يحملون معهم الهدايا للجواري، وللنخاسين، وكان هذا يكلفهم كثيراً من الأموال وكانت الجواري يظهرن حبهن الشديد لهؤلاء الزوار وكلفهن بهم، وحزنهن لفراقهم أو لتأخرهم في الزيارة، وربما زودت الواحدة منهن من تظهر له الحب بخصلة من شعرها أو قطعة من ثيابها، وكان النخاسون في سبيل الحصول على المال والهدايا - يتغافلون عن سفاهة بعض الزوار الذين كانت تمت أيديهم للعبث بأجسادهن خاصة إذا كُن راضيات عن ذلك [٧].

الغناء والطرب والخلاعة

وكان للجواري في ذلك الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الخلاعة والانحلال الخلقي بين الشباب، وكثير من الشيوخ، والشعراء، إذ أصبحت قلوبهم مشغولة باللهو والطرب، والسعي وراء إشباع الغرائز، كما انتشر في العصر العباسي الثاني حب الغلمان والغزل بهم، واتخاذهم بدل الخليلات، وقد انتشرت هذه الموبقات بين قادة الجيش والسلاطين، وقد قال أحدهم عن

غلامه: ضياع هذا الغلام مني أشد عليَّ من أخذ بغداد من يدي، بل أرض العراق كلها، وكان أحدهم يُقبل المردان جهاراً من غير ريبه أو خجل [٨].

وكانت الحفلات والسهرات تقام، للغناء والطرب وكان إذا طرب الملك أو السلطان بزل الأموال العظيمة، بينما الدولة في أشد الحاجة إليها، وكان للزانيات والفُساق بيوت تكاد تكون معروفة للجميع، وتَنتشر في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية الكبيرة، وكان يَرِدُها عدد كبير من الناس، يقتلون فيها ثروتهم وأعمارهم ودينهم، غير مُبالين بدين ولا هيابين من سلطة، ولم لا ؟ والناس على دين ملوكهم، وما الأمس ومن اليوم من الأمس ببعيد، وها نحن في تونس ثم في مصر ثم في ليبيا، نرى مِن فساد الأسرة الحاكمة ورجال الحكومة وأصحابهم وشُركائهم، وهم على درجة من الفساد الديني والمالي والخُلقي، يَفوق ما كانت عليه الدولة الإسلامية في تلك الفترة التي نحكي عنها، وكما بَعث الله تعالى على المسلمين من طهَّرهم من فسادهم، وقد قُتلَ الخليفة العباسي المستعصم بالله بن المستنصر، في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ، بالركل بالأَقدام، كما قُتل أهله ورجاله، وها هم رؤساء الدول العربية ابتاءً من اواخر سنة ٢٠١٠م/ ١٤٣٢هـ، وقد انفرط عقدهم، وتهاووا تحت أقدام الثوار الذي طال صبرهم ولم يَجدوا لدى هؤلاء القوم أي حياء: فكان ما كان من فرار حاكم تونس وأهل بيته، والقبض على مبارك وأهل بيته ورجاله، وتقديمهم للمُحاكمة، وما ربك بظلام للعبيد [٩].

ومع ما تقد من قول، فإن المجتمع الإسلامي كله لم يكن قد انقلب إلى مجتمع فاسد، بعيد عن الإسلام، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً، وكانت طبقة العامة فيه التي تمثل الأغلبية بعيدة عن هذا الفساد الكبير، بل كانت حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه، وشعائره، ولم تكن تَعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، بل كانت تعيش الشظف والبؤس والحرمان، بل كانت ساخطة على هذا الفساد والظلم، وكان المؤمنون يُعمِّرون مساجد الله، وكان الدعاة إلى الله لا يزالون يُذكِّرون الناس بالله واليوم

الآخر، وأنهم قادمون على الله يوم الحساب، فإما الجنة والنعيم وإما النار، وقد نشأت في تلك الفترة طبقة من الزُّهاد، عاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، ولا يخلو الفساد في عامة الناس ولكن الطبقة الفاسدة المترفة هي التي كانت تقود الأمة وتمسك بزمامها، فقادتها إلى ضد ما يجب أن تقودهم إليه، قادتهم إلى كل ما يحقق رغبات هؤلاء المترفين وإرضاء لشهواتهم، وهو ما دار في العالم العربي في أوائل القرن الحادي والعشرين، ونتجت عنه الثورات العربية، فتخلصت من اشد تلك الأسر الحاكمة فساداً: في تونس ومصر وليبيا .[١٠]

وفي ظل هذه الأوضاع الضارية في الفساد والتفكك، أصبح العالم الإسلامي ينتظر أمراً يغيره أو ينبهه إلى ضرورة التغيير، وأن يحل رجال أقوياء محل هؤلاء الضعفاء في كل هذه الأقطار، ليأتي بعد ذلك جيل من المسلمين قوي الإيمان، يعيد للإسلام هيبته ومجده.

وبينما كانت القوة الإسلامية على هذا الحال، كانت القوة الثانية في الأرض في أوائل القرن السابع الهجري وهي قوة الصليبيين

ومركزها الرئيسي غرب أوروبا، حيث لهم هناك أكثر من معقل. وقد انشغلوا بحروب مستمرة مع المسلمين. فكان نصارى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا يقومون بالحملات الصليبية المتتالية على بلاد الشام ومصر، وكان نصارى أسبانيا والبرتغال وأيضاً فرنساوغيرهم، في حُروب مستمرة مع المسلمين في الأندلس، حتى انزووا في غرناطة.

التجمعات والقوة السياسية المسيحية

بالإضافة إلى هذا التجمع الصليبي الضخم في غرب أوروبا، كانت هناك تجمعات صليبية أخرى في العالم، كانت أيضاً على درجة عالية من الحقد على الأمة الإسلامية، وكانت الحروب بينها وبين العالم الإسلامي على أشدها، وكانت أشهر هذه التجمعات كما يلي:

١- الإمبراطورية البيزنطية: وحروبها مع الأمة الإسلامية شرسة وتاريخية، ولكنها كانت في ذلك الوقت في حالة من الضعف النسبي والتقلص في القوة والحجم، فلم يكن يأتي من جانبها خطر كبير، وإن كان الجميع يَعلم قدر الإمبراطورية البيزنطية، ولكنها سرعان ما ذهبت بغير رجعة على يد الأتراك العثمانيين.

٢- مملكة أرمينيا: وكانت تَقع في شمال فارس وغرب الأناضول، وكانت أيضاً في حروب مستمرة مع المسلمين، وخاصة السلاجقة [١١].

٣- مملكة الكُرج: وهي دولة جورجيا حالياً، ولم تتوقف الحروب كذلك بينها وبين أمة الإسلام، وتحديداً مع الدولة الخوارزمية، وما لبثت هذه الرقعة كلها أن صارت في بدايات القرن السابع بيد المغول.

٤- الإمارات الصليبية في الشام وفلسطين وتركيا: وهذه الإمارات كانت تحتل هذه المناطق الإسلامية منذ سنة٤٩١ هجرية.

وعلى الرغم من انتصارات صلاح الدين الأيوبي على القوات الصليبية في حطين وبيت المقدس وغيرها، إلا أن هذه الإمارات لا زالت باقية، بل ولا زالت من آن إلى آخر تعتدي على الأراضي الإسلامية المجاورة غير المحتلة، وكانت أشهر هذه الإمارات: أنطاكية وعكا وطرابلس وصيدا وبيروت.

وهكذا استمرت الحروب في كل بقاع العالم الإسلامي تقريباً، ومع أن نهاية القرن السادس الهجري سعيدة جداً على المسلمين، وتعيسة جداً على الصليبيين، بفضل انتصارن صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين في الشام، عام ٥٨٣ هجرية، وبعدها بثماني سنوات فقط انتصر المنصور الموحدي زعيم دولة الموحدين على نصارى الأندلس في موقعة الأرك الخالدة، في سنة٥٩١ هجرية.

وبالرغم من هذين الانتصارين إلا أن المسلمين في أوائل القرن السابع الهجري، كانوا في ضعف شديد، وذلك بعد أن تفكك شمل الأيوبيين بوفاة صلاح الدين الأيوبي، وكذلك انفرط عقد الموحدين بعد وفاة المنصور بن عبد المؤمن، غير أن الصليبيين كانوا كذلك في ضعف شديد، لم يمكنهم من السيطرة على البلاد

المسلمة، وإن كانت رغبتهم في القضاء عليها قد زادت [١٢].

كان هذا هو وضع العالم في أوائل القرن السابع الهجري.

وبينما كان حال العالم الإسلامي على هذه الصورة في ذلك الوقت، ظَهرت قوة جديدة ناشئة قَلبت الموازين، وغيَّرت من خريطة العالم، وفرضت نفسها كقوة ثالثة في الأرض. بل صارت القوة الأولى في الأرض، منذ بداية القرن السابع الهجري. إنها قوة التتار او المغول!!.

الخلاف بين خوارزم شاه والخليفة العباسي

لقد أدى ضعف السلاجقة في إيران إبان الفترة الأخيرة من حكم السلطان سنجر إلى اختلال التوازن العسكري والسياسي في آسيا الوسطى، ففي الشرق تفاقم خطر القراخطاي في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وفي الجنوب ازدادت سطوة قبائل الغز وبخاصة في كرمان ومكران، وفي الشمال ظهرت أطماع الخوارزميين في الاستيلاء على إقليم خُراسان بثرواته الطبيعية، وعلى هذا لم يتوقف الصراع بعد وفاة السلطان الخوارزمي آتسز في التاسع من جمادي الآخرة سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، أو وفاة السلطان السلجوقي سنجر بعده في الرابع عشر من ربيع الأول سنه ٥٥٢هـ/١١٥٧م، فقد شرع خوارزم شاه أيل أرسلان بن اتسز سنة: ٥٥١ هـ. ٥٦٨هـ، في بسط سلطانه على غربي خُراسان عقب وفاة سنجر، وبعد ذلك تمكن السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش بن ايل أرسلان - (٥٦٨هـ، ٥٩٦هـ)، من هزيمة السلطان السلجوقي طغرل الثالث عند مدينة الري في شهر ربيع الأول، سنه ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣م، فأزال بذلك سلطان السلاجقة عن العراق، فأصبحت أملاك الدولة الخوارزمية متاخمة لأرضي الخلافة العباسية [١٣]

خوارزم شاة يخرج لأخذ بغداد

ثم إن خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عزم على المسير إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، لإسقاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، وقدَّم بين يديه اميراً كبيراً، ثم اتبعه بأمير آخر،

فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سَقَط عليهم من الثلج ما لم يُسمع بمثله، فهلكوا، فطمع فيهم: بنو ترجم الأتراك، وبنو هكار الأكراد، فتخطفوهم، فتطير خوارزم شاه ورَجع إلى خُراسان خوفاً من التتر، وولى همذان الأمير طائيسي، وجَعل في البلاد جميعهاً ابنه ركن الدين، وجَعل معه عماد الملك الساوي [١٤]

وسار خوارزم شاه إلى خراسان، فوصل مرو في المحرم سنة ٦١٥هـ، ولما قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر، وقطع خطبة الخليفة الناصر لدين الله، وقال: إنه قد مات، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦١٥هـ، ولما قدم مرو قطع الخطبة بها، وكذلك ببلخ وبخارى وسرخس، وبقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تُقطع الخطبة فيها، فبقيت كذلك إلى ان خرج عليه جنكيز خان، فأفنى الشرق الإسلامي أجمع [١٥]

وإذا قد ورد ذكر جنكيزخان، وبدات الأحدث تتوجه إليه، فإنا نبدأ سيرته من أولها. للتعرف على بدايات تلك الدولة، وكيف كانت بدايتها، وما مرت به من مراحل حتى وصلت إلى أيام هولاكو، وهو المقصد الرئيسي لهذا الكتاب، وبالله التوفيق.

جنكيز خان وبداية الدولة المغولية

تعريف

أما اسمه فقيل: بورجيكين تيموجين، وانه لما عظم شأنه سُمي جنكزخان، وقيل ان الصواب في النطق به جنكص خان بالصاد بدل الزاي، ولكنه دَرَج بالنطق الأول.

لَقب العائلة: بورجيكين.

تاريخ ميلاده: سنة ٥٤٩– ٥٥٠هـ/ ١١٥٤– ١١٥٥م.

محل الميلاد: هينتي، منغوليا.

انتُخب خاقاناً على المغول سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م.

تاريخ الوفاة: ٦٢٤هـ/ ١٨ أغسطس، ١٢٢٧م.

فترة حكمه: من: ١٢٠٦ إلى ١٨ أغسطس، ١٢٢٧م.

خليفته: اوقطاي خان.

زوجته: بورتة اوجين، ويُقال لها: بورتاي.

أبناؤه:

بورجيكين جوتشي.

بورجيكين شقطاي.

بورجيكين اوقطاي.

بورجيكين تولوي.

جنكيز خان، تكتب بالصينية: 成吉思汗 وهجاؤها بطريقة پن ين pinyin هو: cheng1 ji1 si1 kang1، او تيموجن: بالصينية: 鐵木真، وهجاؤها

بطريقة پن يـن pinyin هو: tie mu zhen، عاش ما بين عامي ١١٦٥ و ١٢٢٧ ميلادية. [١].

نسب جنكيزخان

جنكزخان المغولي، هؤلاء الأقوام صُفر الوجوه، بشعور سوداء كالحة، سبط غير مُجعَّدة، وانف أفطس، وعيون منحرفة، يشوب سمارها زُرقة، وبشرة يغلب عليها الصُّفرة، ومنهم الأسمر والبرنزي والنُّحاسي. بن بيسوكي بن بهادر بن تومان بن برتيل خان بن تومنيه بن بادسنقر بن تيدوان ديوم بن بغا بن بودنجه، وقيل: بقابن مودنجه، بن الان قوا. و(ألان قوا)، هذه امرأة من قبيلة من التتر تُسمى قيات، من أعظم قبائلهم شهرة، كانت متزوجة بزوج أَوْلَدها ولَدَين، اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة، ثم مات زوج الان قوا أبو هذين الاثنين، وبقيت ألان قوا أيما، فحملت فأُنكر عليها الحمل، وحُملت إلى ولي امرهم حينئذ فسألها ممن حملت، فقالت إني كنت جالسة مكشوفة الفَرج، فنزل نور فدخل فيه ثلاث مرات. فحملت منه بثلاثة ذكور بكل مرة من دخول ذلك النور، فأمْهِلوني حتى اضع، فإن وضَعتُ ثلاثة ذكور فقدصدقت، فافعلوا ماشئتم، فأتت بثلاثة ذكور فسَمت أحدهم يوقن قوتاغي، والثاني بوسن ساغي، والثالث بودنجر. و بودنجر هذا هو جد جنكزخان [٢].

ظهور جنكيز خان ونشأته وتربيته

ولد جنكيز خان على نهر "اوتون" سنة ١١٥٥م، وفقاً لروايات كثير من المؤرخين، وقيل بل ولد مابين عامي ١١٦٢ و ١١٦٧، وقد كان الابن البكر ليسوگيه Yesügei شيخ قبيلة كياد Kiyad و تكتب مفردا ب كيان Kiyan. وتسمى عائلة يسوگيه Yesügei بـ بورجيگن Borjigin ومفردها هو بورجيگيد Borjigid [٣].

وكان أبوه يسوكاي وقت ولادته يُقاتل التتار، وقد صَرع زعيم لهم اسمه

تيموجين، وعاد فلقى زوجته قد أنجبت ابناً له، وحينما تفحص الطفل، لحظ بأنه يَقبض بيده على قطعة من الدم المتجمد، كأنها حجر أحمر، فأوَّل الزعيم المغولي الذي يؤمن بالأساطير هذا الحدث علة ما يُحب، وأنه يُشير إلى ما أحرزه من انتصار على زعيم التتار، ولذا أطلق على ابنه اسم تيموجين، وهو اسم الزعيم التتري الذي قتله في الميدان، ولما بلغ تيموجين التاسعة من عمره صحبه أبوه يسوكاي لزيارة أخواله، فحرص أحدهم على أن يزوجه من ابنته، بورتة، التي لم تتجاوز وقت ذاك العاشرة من عمرها، ومات الأب يسوكاي أثناء عودته إلى دياره سنة ١١٧٦م [٤].

كفاح والدة جنكيز خان

ساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته، وكان في أواخر أيامه قد جمع تحت بيده عدداً من القبائل الموالية، فضلاً عن قبيلة قيات التي يتولى زعامتها، فثارت أحقاد خصومه بعد وفاته، خاصة قبيلة التايجيوت، التي أنكرت على تيموجين الزعامة، فكان لزاماً على زوجة يسوكاي أن تعمل لتحصل على الزاد الضروري لأسرتها، فصارت تلتقط لهم الثمار، وما ينبت من الأرض [٥].

مع كل ما أصاب هذه الأسرة فقد احتفظوا، بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر، فاجتهد الصبيان في صيد ما يلزم لإعاشتهم من نهر أنون، وحرصت الأم يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة، ولما تشاجروا، أسفر الشجار عن مصرع بكتار، ابن يسوكاي من زوجة أخرى، فانفجرت يولون في وجه ولديها تيموجين وقسار ووبختهما أشد توبيخ، وحرضتهما على التايجوت، فما لقوا العنت إلا منهم.

وقد تَعرض تيموجين وإخوته وأُمه لغارات التايجوت، الذين حرصوا على إذلالهم، فلم يسع تيموجين وأُسرته إلا أن ينتقلوا بمعسكرهم إلى جبال بروقان كالدون، وإلى جبل كنتاي، ولم يتخل البؤس عن تيموجين وإخوته، فكل ما كانوا يملكون لم يتجاوز تسع أفراس، اغتُصب منهم ثمانية في غارة عليهم [٦].

تيموجين يُطارد اللصوص

اصر تيموجين على أن يُطارد اللصوص، وبعد أربعة أيام التقى بغلامٍ تبدو عليه سمات النبل، اسمه بورتشو، أحس بالميل والعاطفة نحو تيموجين، فاشترك في البحث عن الأفراس، حتى عثَرا عليها، وقد ظهرت براعة تيموجين في مراماة أعدائه وإجبارهم على أن يتخلوا عن اللحاق به، وتوطدت الصلة بين تيموجين وبورتشو، وبدأت شخصين تيموجين في الظهور، لقد فرض نفسه على كل من التقاه، فمنذ هذه اللحظة انجذب إليه بورتشو، وربط مصيره بمصير تيموجين، وأضحت مَحبة تيموجين لأصدقائه الأوائل مضرب الأمثال [٧].

زواج تيموجين وولاؤه لزعيم الكرايت

بدأ تيموجين يُفكر في الزواج، وكان اباه عقد له خطبة على بورتة ابنة زعيم القنقرات النازلين على نهر كيرولين، وزاد في فرح صهره وسروره ما أصبح عليه تيموجين من متانة البناء والقوة، وانتقل تيموجين وزوجته وسائر أفراد أُسرته إلى منبع نهر كيرولين، وارتفع شأن تيموجين، بعد أن نجا من مؤامرات التايجوت وأضحى الرجل القوي الذي تَنشده سائر القبائل، وحملته آماله على أن يفكر في عقد معاهدات واتفاقيات خارج قبيلته، فتوجه إلى حيث ينزل طغرل على نهر تولا، وبذل له يمين الولاء بأن يكون من اتباعه وخاطبه: سبق أن توطدت أواصر المحبة بينك وبين ابي، فأنت الآن في مقام ابي وارتاح طغرل لهذه التبعية، ووعد بأن يُساعده بجمع له سائر رجال العشيرة الذين هجروا منزله اثناء حداثة سنه تحت إمرته.

وبفضل نصائح طغرل ملك الكرايت، والذي دان له تيموجين بالتبعية، إنحاز إليه زعيم مغولي آخر، اسمه جاموكا، رئيس قبيلة جاجيرات، غير أن النزاع لم يلبث أن دب بينهم، فانفرط عقد التحالف بينه وبين جيلمي، و جاموكا، وانحاز إلي كل منهما جماعة من الموالين له، إلا أن انحياز القبائل والعشائر إلى جانبه كان يتزايد، فكان من الذين انحازوا إليه، أربعة أمراء من المغول، يجري في

عروقهم الدم الملكي بعد أن انفصلوا عن جاموكا [٨].

تنصيب تيموجين خانا على المغول

كان لانضمام الأمراء الأربعة إلى تيموجين، ميزة كبيرة ونفع كبير، فقد اجتمعوا الأربعة وتشاوروا فيما بينهم، واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية، وأعرقهم نسباً، على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول، الذين ينتمي إليهم تيموجين، وقد جرت الرواية بأنهم خاطبوه:

لقد قررنا بأن ننادي بك خاناً، وسوف تكون في المقدمة عند خوض المعارك ضد عدد لا حصر له من الأعداء، فما تسبيه من النساء الجميلات، والفتيات الحسناوات، وما يقع في أيدينا في الجياد الأصيلة، سوف نبذله لك، وما نحصل عليه من الصيد، سوف نجعله لك فإذا حدث أن عصينا أوامرك أثناء الحرب أو برمنا بك أثناء السلم، فلتفرق بيننا وبين زوجاتنا وتنتزع منا متاعنا، ولتهجرنا ولتجعلنا منبوذين.

إذن لقد تم اختيار تيموجين خاناً على المغول، وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان، ولقد كان الغرض الأول لاختيار جنكيز خان ليتولى الحكم، وهو الانتخاب الذي اشترك فيه التان ابن قوتولة، والأمراء الذين يمثلون الأسر الملكية السابقة، كان الغرض الأهم له هو وقف تشتت العشائر والقبائل المغولية، وإعادة السيادة إلى أُسرة قيات، والانتقام من التتار [٩].

جنكيز خان يوحد القبائل

حَرِص جنكيز خان على أن يوزع الوظائف الأساسية الحربية والمدنية بين أنصاره الموالين له، وكانت الأخلاق القيادية بارزة في جنكيز خان، كالمكر، والدهاء وسِعة الحيلة، والكرم والوفاء لأصدقائه المخلصين، وممارسة الشورى مع من حوله من القادة المعاونين، فجَعل من أقرب الناس إليه، وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له، وخَصَّ آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العَربات، والتماس المراعي، والإشراف على الخُدام، ورياضة الخيل، ونقل الأوامر الملكية، والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي)، ولم ينس

أمور بورتشو وجيلمي، فمن المأثور عن جنكيز خان أنه قال:

إنني لا أنسى أنكما كنتما رفيقي حينما لم يكن لي رفاق، ولذا جَعلتُ لكما الرياسة على جميع هؤلاء، ثم وجه الخطاب إلى رعاياه، إنكم جميعاً تخليتم عن جاموكا، وحرصتم على الانحياز إلى جانبي، فأنتم جميعاً يا أصدقائي القُدامي، خير رفاق لي في المستقبل [١٠].

وقام جنكيز خان بمراسلة رؤساء القبائل القوية المجاورة، يُخبرهم بتنصيبه أميراً على القبائل التي قبلت به، وزادت قوة جنكيز خان، فأخذ خصومه يَنصبون له العداء، فكان لا ينتقل بعشيرته من مراعيها الصيفية إلى مراعيها الشتوية إلا بتشكيل القتال، فيُقسم قوته إلى أربعة أقسام: المقدمة، المجنبة، والمؤخرة، وفي وسطهم تسير الماشية وعَربات العائلات [١١].

بعض المعارك التي خاضها جنكيزخان

معركة العجلات: في إحدى إحدى مرات تنقل جنكيز خان، إذا بقبيلة تيدجون المؤلفة من ثلاثون ألف، يقودهم تارجو تاي، تُقبل ناحيته، قرر جنكيز خان القتال فوراً، وكانت قواته تتألف من نوعين من الخيالة فقط:

- الخيالة الثقيلة: ويرتدي رجالها الدروع الحديدية والخوذ الفولاذية، وخيولهم مَكسية بوشاح من الجلد السميك، وكان سلاحهم الرماح، وترساً صغيرة، يتَّقون بها ضربات الأعداء.

- الخيالة الخفيفة: يكسو رجالها وخيولها دروع من الجلد فقط، وكانت خيول هذا الصنف من الضامرات، كخيول السباق، وكان سلاحهم القسي والنبال، وكان تسليح العدو وتجهيزاته شبيهة بما لدى جنكيز خان.

قسَّم جنكيز خان رجاله إلى سرايا من ألف محارب، في عَشرة صفوف، وتقدم تارجو تاي بسراياه، كل سرية خمسمائة محارب في خمسة صفوف، وكان الصفان الأولان من الخيالة الثقيلة، والصفوف الثلاثة الأخيرة من الخيالة الخفيفة [1].

أسند جنكيز خان جناحه الأيمن إلى غابة كثيفة، وجَمع جميع العجلات التي تركبها المحملة بالنساء والمتاع، مع حيواناته، وجعل الخيالة الخفيفة في الأمام، عكس عدوه، وجَعل الخيالة الثقيلة في الخلف الغزو المغولي لديار الإسلام – (ص: ٤١).

هَجمت خيالة تارجو تاي الثقيلة على خيَّالة جنكيز خان الخفيفة، فلم تَنجح هذه الخيالة في اختراق صفوف جنكيز خان، فقد كانت عشرة صفوف، مما مثل

كثافة يصعب اختراقها، وكانت هزيمة الأعداء، وقد سُميت هذه المعركة بمعركة العجلات، نظراً لاستخدم جنكيز خان للعجلات في حماية جناحه الأيسر المكشوف. واقتيد إليه منهم سبعين رئيساً بسلاسل سيوفهم، فألْقوا عند قدميه، وسيوفهم وكنانهم معلقة في رقابهم، فأمر بقتلهم جميعاً، لتكون علامة له عن أعدائه، فخافته بقية القبائل المغولية وانضمت إليه [٢].

صراع التحالفات

كان من مصلحة جنكيز خان أن يتحالف مع طوغرل خان، وذلك للقضاء على التتار عدوهما المشترك، وبالفعل نجحا في القضاء عليه ولا سيما قبيلة المركيت، وجانب من قبائل النايمان. والمعروف أن النايمان تعد في هذا الوقت الأضعف، بسبب ما وقع من نزاع بين ملكهم تايانك خان، وأخيه بويوروف، الذي تعرض لهجوم جنكيز خان وطغرل، وقد كان من حسن طالع جنكيز خان ما وقع من أحداث في منغوليا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، بسبب سياسة الحكومة الصينية، إذ انتهجت أسرة كين في الصين الشمالية، سياسة فرق تسد بين القبائل، وبين الزعماء. وحَرص ملك الصين الشمالية على أن يتخذ من الكرايت والمغول حلفاء له.

وفي سنة ١١٩٤م، تقرر مصير الحرب لصالح جنكيز خان وحليفه طوغرل خان، إلا أن القبائل التي أحست بالتهديد من جانب جنكيز خان، شكلت حلفاً فيما بينها، دخل فيه قبائل جاسيرات والمركيت والتايجيون والقنقرات والتتار، ومن ملوكهم: توكتا، ملك المركيت. وجاموكا: ملك الجاسيرات، وفي سنة ١٢٠١م، اتفقوا أن يختاروا جاموكا كروخان إمبراطور على القبائل التركية المغولية، ولكن الجيش الذي جمعه جاموكا انهزم وتبدد، سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢م، وفيما بعد نجح جاموكا في اكتساب ثقة سنجون ووالده طوغرل خان، واكتسابه حليفاً له بدلاً من جنكيز خان [٣]..

حرب جنكيز خان مع ملك كرايت

كان المسيطر على قبائل الترك المشارقة حتى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، وانج خان، من قبيلة كرايت أو كريت أو القاريات التي تدين بالنصرانية، وكان صديقاً لجنكيز خان ومؤيد له وملازم له منذ الطفولة، وبعد أن انتصار جنكيز خان كرهه زعماء هذه القبيلة ووشوا عنه إلى وانج خان حتى اتهمه الأخير بالخيانة، وهم باعتقاله، وارادوا قتله، وفي مساء أحد الأيام، بينما كان جنكيز خان مع ستة الف من محاربيهم تصحبهم العائلات، في أحد المناطق، عرف بأن قبائل الكرايت تتجمع، وتتقرب من معسكرهم، أخبره بذلك غلامان من خدم وانج خان، فقرر جنكيز خان التملص من عدوه لضعيف تجاه خصمه، ولأن العائلات برفقته، تركب العجلات التي تسحبها الثيران والتي تجرها الجمال [٤].

إفلات جنكيز خان من أعدئه

دبر جنكيز خان حيلة، استطاع بموجبها أن يتفادى هجوم عدوه، ثم انقلب هو عليهم من مكان لا يتوقعونه، وجاءت خيول جنكيز خان على حين غرة، فأعملت السيف في رقابهم. فجُرح وانج خان وابنه توكتا بك، وفَرَّا هاربين، ونُهبت العشيرة وسُبي النساء، ووقع جاموكا بيد جنكيز خان، فأمر بخنقه بخيوط من الحرير، وقُطّعت أوصاله وأعضاء جسمه، كما قُتل وانج خان وابنه بعد فرارهما، ثم القيض عليهما، وأُرسل رأس وانج خان داخل صفيحة من فضة هدية إلى جنكيز خان، وبذلك انقرضت قبيلة القاريات، وتقدمت القبائل الضعيفة والقوية على السواء تَعرض الطاعة والخضوع لسيد آسيا الجديد، جالبة معها كل ما لديها من آثار المدينة وخلاصة العلوم.

وبعد هذا النصر أَنعم جنكيز خان على الغلامين اللذين أعلماه بما كان يُدبره وانج خان له، فجعلهما وزيرتهما (ترخانية)، اي أحراراً، لا يُكلفون بشيء من الحقوق السلطانية، وما يَغنمونه من الغزوات تكون لهم بالكامل، كما أعطاهم الحق لدخولهم إلى الملوك بدون إذن، وعدم معاقبتهم على إي ذنب إلى

تسعة ذنوب [٥].

استيلاء جنكيز خان على مملكتا النيمان

كانت دولة النيمان من أكبر الدول في وسط آسيا، وكانت من القوى الكبرى التي واجهت المغول في ظهوره كقوة عالمية، وإمبراطورية ضمت معظم أراضي آسيا وأجزاء كبيرة من أوربا، ويَرجع أصل النيمانيون إلى العُنصر التركي، وكانت أراضيهم قديماً تعد ضمن الحدود التقريبية التالية، من الشمال يحدها أراضي قبائل القرقيز، كما تحدها من الجنوب ممتلكات قبائل الاويغوريين، اما حدودها من الشرق فملاصقة لأراضي قبائل كرايت والمركيت، أما من الناحية الغربية، فيحدها القراخطائيون، وكان ملوكهم او خَانَاتهم يُسمون كوتشلوك خان، أي العظيم، الجبار، القوي، وأما طريقة حياتهم فقد كانت كالمغول وغيرهم من القبائل البدوية الرعوية الأخرى [٦].

ويحكم دولة النيمان ملك واحد، إلا أنه في الوقت الذي ظهر فيه جنكيز خان، على رأس قبائل المغول، تجد ان المملكة النيمانية مقسمة إلى قسمين، شرقي وغربي، ويحكمها أخوين: بويرون خان يحكم مملكتهم الغربية، وييبوقاتايانك يحكم المملكة الشرقية، المتاخمة لحدود كرايت والمركيت، وبعد معركة وركو وقتل اونك خان، أصبحت الأراضي النيمانية مفتوحة أمام اللاجئين من كرايت فنتج عن ذلك صراعاً بين جنكيز خان، وملكي النيمان الأخوين، انتهى بزوال الدولتين النيمانيتين والقضاء نهائياً على استقلالهما، كقوتين مستقلتين في وسط قارة آسيا، فقد قُتل الأخوين على التوالي، وصارت دولتيهما جزء لا يتجزأ من أراضي دولة المغول.

وفي شهر رجب عام ٦٠٢هـ/ فبراير. مارس، سنة ١٢٠٦م، مجلساً عاماً وعمومياً، تم فيه تنصيب جنكيز خان كخانٍ أعظم على جميع ساكني الخيام في منغوليا وما جاورها في البُلدان، كما أعلن في هذا الاجتماع عن خطته للفتوحاته الجديدة، كما قرر الخروج خارج نطاق منغوليا، كما نشر في هذا الاجتماع

دستور دولته الجديدة، المشهورة والمعروفة باسم: الياسا، فكان ذلك بداية التحركات الخارجية من أجل تكوين امبراطورية المغول العالمية [٧].

السيطرة على الجبهة الصينية

مملكة التانغوت

هاجم جنكيز خان أولاً مملكة التانغوت، أو مملكة سي ـ هيا، في التبت إحدى الممالك الثلاث التي تقاسمت النفوذ في الصين، كي يستطيع التحكم بطريق الصين إلى تركستان، ويُحاصر من جهة الغرب مملكة كين.

فقام بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت، في السنوات: ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، ٦٠٤هـ /١٢٠٧م، ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، اكتسح خلالها جميع أراضيها، ولكنه لم يستطع دخول عاصمتها ننج ـ هسيا، ولكن وافق عاهلها على قبول السيادة المغولية على أراضيه عام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، ودفع الجزية لجنكيز خان، بعد طول الحصار، فأصبح جنكيز خان سيد مملكة التانغوت، أي إقليم كانسو الصيني الحالي، وسهول أوردوس وألدشان، التي كانت تُعتبر منطقة حدودية مع الصين [٨].

مملكة كين، أو مملكة الذهب

عندما هاجم جنكيز خان، مملكة كين، لاقى صعوبات لم يقابلها من مملكة التانغوت، كالتحصينات المنيعة، وحروب الحصار التي لم تعتادها جيوشه، ووجود سور الصين بحصونه من الشرق إلى الغرب، مما شكل خط دفاع مستمر لحماية مملكة الذهب.

فتوجهت أنظاره إلى التحالف مع قبائل الأنغوت، بشمال سور الصين في منغوليا الداخلية حالياً، بعد أن وافق على تزويج إحدى بناته للملك الأونغوتي الذي كان يُعتبر، حارساً للحدود الصينية، ومراقباً لما وراء السور العظيم، فكأنه بتحلفه هذا فكك وسائل دفاع مملكة كين، وأوصل حدود إمبراطوريته بالخطوط الأمامية من مواقع الخصوم [٩].

وفي عام ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، جمع جنكيز خان جيشاً عظيماً في منغوليا الشرقية، للهجوم على بكين، ولم يجد هذا الجيش صعوبات في اختراق دفاعات الأتراك وأحلافهم الأنغوت، ووصل إلى شمال الصين، فلم يستطع الاستيلاء على مُدنها الرئيسية، ومضى عاما/ ٦٠٨هـ / ٦٠٩هـ / ١٢١١م /١٢١٢م، ولم يحق شيئاً مُهماً لصُعُبة التضاريس هناك.

فاكتفى بالنصر الذي حققه عام ٦٠٧هـ / شباط ـ آذار ١٢١٣م، في معركة جبل يي، وهو الواقع بين بكين وكالجان، في ربيع الأول ٦٠٨هـ / ١٢١٢م، ثار أحد أمراء الخطاي، المغولي الأصل، وهم الآن خاضعين لسيادة كين، وأعلن تأييده لجنكيز خان، الذي أسرع في دعمه، وأرسل القائد جيبي، إلى إقليم لياو يانج جنوب منشوريا، لكنه هُزم أمام أسوار مدينة لياو يانج، فتراجع إلى منطقة مجاورة، ثم باغت المدينة واحتلها وأعلن يي لو ليو ملكاً على شعب الخطاي تحت السيادة المغولية [١٠].

وفي عام ٦١٠هـ/١١٢٣م، توجه جنكيز خان الصين مرة الثانية، للسيطرة على طريق كالجان/ بكين الإستراتيجي، فاستولى على هسوان. هوا، ثم استولى على: باور ـ آن، وهواي ـ لاي، ثم اجتاز ممر تشو ـ يونج ـ كوان "تان ـ كو" المظلم، والمحصن بالسور والقلاع، جنوب غربي هواي. لاي.

وصل جنكيز خان إلى مدخل سهل شرقي الصين الكبير الممتد من بكين إلى نان. كنج، فسيطر بذلك على الطريق المؤدية إلى الأراضي الصينية، واستولى على قلعة كويبي. كو، في المنطقة الشمالية الشرقية. ما بين جيهول "شانغ. تي" وبكين في شمال غربي البلاد، كما استولت قواته على تا ـ تونغ، المعقل الذي يقع بين خطي سور الصين، ويُسيطر عل إقليم شان ـ سي، وفي ربيع الآخر ٦١٠هـ/آب/أيلول ١٢١٣م، قام أحد الأمراء بقتل ملك الذهب: وي ـ شاو، فكانت فرصة ليهاجم جنكيز خان وسط مملكة كين من ثلاثة محاور، حيث وجه ثلاثة جيوش، كالتالي [١١].

١. الجيش الأول، وتولاه بنفسه، ومعه ابنه تولوي تولي، وزحف من سهل الصين

الشرقي إلى وسط الصين، متجنباً الهجوم على بكين، ثم انعطف إلى الجنوب، فنهب مدن: بدءاً من باو. تونج جنوباً، حتى بكين شمالاً، ومن بكين قَطَع مسافة جاوزت ٣٠٠ ميل إلى الجنوب، فوصل إلى هو ـ باي، على النهر الأصفر، فلم تَستطع خيوله عبور النهر فتوجه إلى المنطقة الجنوبية الشرقية، ووصل سهل شانتونج الخصيب، وأحتل مدينة تسي ـ تان، ثم انتقل إلى مرتفعات تاي ـ شان، وسيطر على مدينة لان ـ شان، على حدود إقليم شانتونج، فسقطت بيده القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى، ثم رَجع إلى سور الصين العظيم، بعد أن نهب سهل الصين الشرقي [١٢].

٢. الجيش الثاني، ويمثل الجناح الأيمن من الجيش، وقد تولى قيادته: جوجي وجغتاي وأوكتاي، وقصد القطاع الغربي من هو ـ باي، عن طريق بوا ـ تنبح وشانتو، واقترب من هواي ـ كنج، شمال النهر الأصفر، وعبر آخر التلال المنخفضة في تاي. هانج، وصعد إلى إقليم شان ـ سي، ثم توجه عبر حوض نهر: فن، في مجراه المتجه من الشمال إلى الجنوب، وبسط سيطرته على المدن الواقعة على ضفتي: فن، وهي مدن: باي. بانج، فن. تشي، وهسن. تشو، كما استولى على مدينة تاي. يوان، وحاضرة إقليم شان سي، ثم رَجعَ إلى سور الصين العظيم عن طريق تاي تشو وتاتونج، حيث نقطة ارتكاز الجيوش المغولية.

٣ـ الجيش الثالث، وقد تولى قيادته: قاسار أخو جنكيز خان، فسار بمحاذاة بكين، مُتبعاً الطريق الساحلية شمالاً، وأخضع المنطقة الواقعة ما بين شان ـ هاي كوان وجيهول" شانغ تي" ثم توجه للسيطرة على منشوريا العليا، في إقليم نهري نوتي وسنجاري، وصولاً إلى نهر آمور. وفي عام ٦١١هـ/١٢١٤م، عرضه إمبراطور الصين الصلح، وأن يَضم جنكيز خان كافة البلاد التي فتحها في الصين، سواءً كانت داخل سور الصين أم خارجه، فوافق جنكيز خان، وكانت خُدعة انصرف على إثره جنكيز خان من أراضي الصين، إلى منغوليا، من ممر تشو. يونج. كوان، فشَرع إمبراطور الصين في تحصين قلاعه وحصونه، ونَقل عاصمته إلى مدينة كاي فونج، جنوبي البلاد، فرجع جنكيز خان بجيوشه مسرعاً إلى الصين.

واشتبك مع الجيش الصيني، وفي عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، سقطت بكين في أيدي المغول [١٣].

دستور الدولة المغولية: (الياسا)

اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها، أن تكون لهم قبل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد، ولكنها لم تكن مُدوَّنة، لأنهم كانوا يَجهلون الكتابة، فلما جاء جنكيز خان، أعاد النظر في هذه العادات، وردَّ بعضها، وقبل معظمها، وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد، وجَعل لها صبغة رسمية، وأَمَرَ أن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغوري، كما أَمر أن تُدوَّن تلك النُّظم والأحكام بهذا الخط، وأن يُحتفظ بها في خزائن أمراء المغول [١].

وقد أطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد اسم (ياسا)، وهي كلمة مغولية تعني: حكم وقاعدة وقانون، وتُكتب بصورة مختلفة في الكُتب العربية والفارسية فنجد ياسا وياسه ويساق وياساق ويسق، وتُطلق على الحُكم الذي أصدره الملك أو الأمير، ولما كان كتاب الياسا يَشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب، وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب، صار أحد معاني هذه الكلمة (ياسا) القتل والموت، وأما مجموع هذه الأحكام المكتوبة التي أقرها جنكيز خان فإنه يُطلق عليها (كتاب الياسا الكبير)، وكان جنكيز خان يَعتقد بأن تعاليم الياسا صالحة لكل زمان ومكان، وفَرَضها على الجميع بدون استثناء، بما هو نفسه وأفراد سلالته، وهذا التطبيق جَعل من المغول أكثر شعوب العالم طاعة لرؤسائهم، إلى حد يَفوق طاعة الرهبان لأمراء الكنيسة [٢].

وقد استقر المغول على الرجوع إلى نصوص الياسا، ويَعملون وفق ما تُشير به في الأحوال الآتية:

١. عندما يَجلس خان جديد على عرش المغول.

٢. عند عقد مؤتمر عام، يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

٣. في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال [٣].

ولقد أصدر جنكيزخان مجموعة القوانين المعروفة بالياسا، سنة – (٦٠٣هـ/ ١٢٠٠٦م)، ويمكننا أن نقول: إن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع، وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي:

١- الخضوع لجنكيز خان.

٢- الاتحاد واندماج خمسون قبيلة من قبائل المغول في وحدة واحدة، تخضع لجنكيز خان.

٣- العقاب الصارم لكل مخطئ [٤].

جُملة ما شرعه جنكزخان في الياسه:

من زنى قُتِلَ، ولم يُفرق بين الُمخصن وغير الُمحصن.

ومن لاط قُتِلَ.

ومن تَعمَّد الكذب أو سحر أو تَجسس على أحد. أو دَخل بين اثنين وهما يتخاصمان، أوأعان أحدهما على الآخر قُتِل.

ومن بال في الماء، أو على الرماد قُتِل.

ومن أعطي بضاعة فخسر فيها فإنه يُقتل بعد الثالثة.

ومن أَطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قُتِل.

ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يَردّه على من كان في يده قُتِل.

وأنْ الحيوان تُكتَّف قوائمه، ويُشقُّ بطنه ويُمرس قلبه إلى أن يموت ثم يُؤكل لحمه.

وأنَّ من ذَبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذُبح.

ومن وقَع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يَكرّ أو يفرّ في حالة القتال، وكان وراءه أحد، فإنه يَنزل ويُناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم يَنزل ولم يناوله قُتِل.

وشَرط أن لا يكون على أحد من ولد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مؤنة ولا كلفة.

وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومُغسلي الأموات كُلفة ولا مؤنة.

وشرط تَعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجَعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى.

وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أوّلاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير.

وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يُشْركه معه ي أكله.

وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه.

ولا يتخطى أحد ناراً ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه.

وأنّ من مرّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم، وليس لأحد منعه.

وألزمهم أن يُدخِلَ أحد منهم يده في الماء، ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به.

ومَنعهم من غسلِ ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى.

ومنع أن يُقال لشيء أنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يُفرق بين طاهر ونجس.

وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب.

ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يُخاطب السلطان ومن دونه

ويُدعى باسمه فقط.

والزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج، زمن قد قصر في شيء مما يحتاج إليه، وتبينه عند عرضه أياه عاقبه.

والزم نساء العساكر بالقيام بما على الرطال من السخرِ والكلفِ في مدّة غيبتهم في القتال.

وجَعل على العساكر إذا قدمت من القتال كُلفة، يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه.

والزمهم عند راس كلّ سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان، ليختار منهنّ لنفسه وأولاده.

ورتّب لعساكره أمراء، وجَعلهم امراء ألوف وأُمراء مئين وأُمراء عشراوات.

وشَرّع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبَعث إليه الملك أخس من عنده حتى يُعاقبه، فإنه يُلقي نفسه إلى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع، حتى يُمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه.

وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قُتل.

ومن تَغيب عن موضعه الذي يُرسم له بغير إذن قُتِل.

وألزم السلطان بقامة البريد حتى يَعرف أخبار مملكته بسرعة.

وجَعل حكم الياسه لولده جقتاي بن جنكز خان، فلما مات التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم الياسه، كالتزام أوّل المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم خالفته بوجه [٥].

مباريات الصيد عند المغول

كان المغول يعنون بهذه المباريات عناية كبيرة كلما فَرغوا من القتال، إذ لم تكن هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم فقط، بل كانت من تدريبات القتال، ووسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد وخاض غمار المعارك، فهم في حلبات

الصيد يتدربون تدريبات الحرب، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يَقفون في ميادين القتال تماماً، بالآلات والأسلحة اللازمة للتدريب، وهم بالإضافة إلى هذا مُكلفون بتسمع أخبار الأعداء [٦].

وكان يُشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء الذين يَصطحبون معهم الخوانين والسراري، وتمتد هذه المباريات من شهر إلى ثلاثة أشهر، وعلى الجنود المشتركين فيها أن يُباشروا الصيد في تأنٍ وحذر، ولو فرض وأن جندياً قد أخطأ في إصابة الهدف، فإنه يُعاقب على ذلك بالضرب بالعصا، وكثيراً ما يكون العقاب بالقتل، ثم تَفد الرسل إلى الخان، وهي تَحمل إليه تقارير مفصلة بما دار في هذه المباريات، التي تشبه إلى حد كبير مناورات الجيوش في العصور الحديثة، بل هي كذلك بالفعل، وهذا يُعد من السبق العسكري للمغول، من ناحية التدريب [٧].

أخلاقيات المغول الجنكيز خانية

بُغض الخمر

لقد نَهى جنكيز خان أتباعه عن الإغراق في شرب الخمر، فقال: إن الرجل السكران كالرجل المضروب على أم رأسه، يَفقد عَقله وكَفاءته، فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر، والأفضل ألا تشربوا أبداً، ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشُراب مطلقاً [١].

تفاني الفرد في سبيل المجموع

يقصد المغول بالتعاون الذي ينادون به، إنما هو التعاون الذي يَقوم على تفاني الفرد في سبيل المجموع، وعدم الاعتراف بأي حق للمرء في حريته الشخصية، فقد نصت الياسا على ألا ينفرد أحد بكل شيء وغيره يَراه، بل عليه أن يُشركه معه في أكله، ولا يَجوز أن يتمتع أحد بالشبع دون أصحابه، وهذه النصوص الجائرة، تنسف الحقوق الشخصية تماماً، وإن كان فيها روح من الاشتراكية [٢].

أكل المُحرمات

كان الكثير من عادات المغول وطباعهم نفُرة، فكانوا على استعداد لأكل كل ما حرَّمه الإسلام، بل إنهم لا يتورعون عن أكل الحيوانات الدنسة، وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال، وحَرَّموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية، وهي أمور مع الشريعة الإسلامية التي تأمر بالنظافة، وكذلك كانوا يتركون الثياب حتى تُبلى [٣].

تيمور لنك يتمسك بالياسا

لقد استمرت الياسا الجنكيزخانية محترمة، وموضع عناية من المغول، فقد سار عليها تيمورلنك وأتباعه، وكانوا يتبعون تعاليمها في إدارة شئون الحكم،

وكان تيمور يعتقد في القواعد الجنكز خانية، وكذلك كل الجفتاي وأهل الدست والخطا وتركستان، وأولئك الطغام كلهم يمشون على قواعد جنكيز خان، تاركين قواعد الإسلام. لذلك أفتى كل من: الشيخ حافظ الدين البزازي - (٧٢٩ - ٨١٦ هـ/١٣٢٩ - ١٤١٣م)، والشيخ علاء الدين محمد بن محمد بن محمد البخاري - (٧٧٩ - ٨٤١ هـ = ١٣٧٧ - ١٤٣٨ م)، وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الإسلام بكُفر تيمور، ويكُفر من يُقدم القواعد الجنكيز خانية، أو غيرها مما يخالف الشريعة الإسلام في أمور العقيدة، وقيل إن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية، وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية؛ ولكن لم يقم دليلاً يقطع بذلك، خاصة وأن قواعد جنكيز خان صارت عندهم كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة [٤].

التنظيمات الإدارية للدولة الجنكيزخانية

تنظيم واجبات الخدمة والطاعة

بعد أن نجح جنكيز خان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، حدد فيه مجموعة وظائف، يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، أما الوظائف الهامة أو الحساسة فيتولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم، وكانت هذه الوظائف كما يلي:

١ ـ أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس.

٢ ـ ثلاثة أفراد يتولون الإشراف على الطعام والشرب.

٣ ـ فرد واحد يتولى إعداد المراعي للأغنام والماشية.

٤ ـ ثلاثة للمحافظة على هذه المراعي.

٥ ـ شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل.

٦ ـ فرد واحد للإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.

٧ ـ أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحَمل السيوف.

٨ ـ اثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.

٩ ـ أربعة أشخاص لتبليغ رسائل الخان.

١٠ ـ اثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في اجتماعات المغول [1].

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجُندي منهم أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الجيش، وكان يتولى الحراسة منهم مجموعتان، أحدهم للنهار وأُخرى لليل، وقد بَلغ حوالي عشرة آلاف ممن عرفوا بالقوة وشدة البأس، ومن هؤلاء يتم اختيار ألف رجل يُسمى كل واحد منهم

(بهادر)، أي الشجاع المبارز، وهؤلاء يخدمون الخان ويُلازمونه ولا يَخرجون للقتال، إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه.

وكانت هناك طبقة الأمراء وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان، وكافة المغول جنوداً في الجيش، وعليهم حمل السلاح إذ ما دعت الحاجة، ولذلك اعتُبر المغولي راعياً للأغنام والماشية في السلم جُندياً في أوقات الحرب، وقد عُرف المغول جميعاً بالطاعة العمياء لقوَّادهم، وبالقسوة المفرطة والخيانة وعدم الوفاء بالعهود لأعدائهم، وقد اتسمت حروبهم بالقسوة والقتل والتدمير والتخريب [٢].

ولقد استطاع جنكيز خان أن يَكسب احترام جيشه، فقد كانوا يَعتبرونه رئيسهم الأعلى، يُقدسون أوامره، وينزلون على طاعته، كما رَفعوه إلى مرتبة التأليه [٣].

تنظيم الجيش المغولي

نظَّم جنكيز خان جيشه على التدرج العسكري كالآتي:

١- التوكان (تومان): يتكون من عشرة آلاف شخص محارب، ويسمى قائدة (نُويان)، أو (نوين).

٢- الكوكبة: وتتألف من خمسين شخصاً مُحارب، ويُسمَّى آمره (يوزباشي).

٣- المقدِّمة: تتألف من خمسين شخصاً مُحارب، ويُسمَّى آمره (او نباشي).

٤- الجماعة: تتألف من عشرة أشخاص محاربين، وتعتبر هذه أصغر وحدة مقاتلة، وقد يَجوز تجزئتها، فتُقاتل وتعيش وتموت سويّة [٤].

وكانت جميع وحدات الجيش المغولي مزوَّدة بخيول من لون واحد، إذ إنَّ الجواد كان السلاح الرئيسي في جيش المغول، عدا المدفعية والهندسية التي كانت أدواتها تُحمل على عجلات، ولا يُوجد مُشاة بينها، وكانت هذه الخيَّالة مُقسَّمة إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ السرايا الفدائيَّة: مهمتها فتح المعركة، وذلك بالشروع بالقتال والاشتباك مع العدو، وكان سلاحهم الرُّمح مع القوس، وكانت تَجهيزاتهم تُشبه الخيَّالة الثقيلة.

٢ . سرايا الصاعقة: وهي الخيَّالة الثقيلة، واجبها التغلغل في صفوف الأعداء واستثمار الفوز، وتسليحهم: السيف وقوسين للسِّهام وسهاماً كافية، وفأساً ثقيلة.

وكان المقاتل يَحمل أيضاً علاوة على أدوات القتال، يحمل: إناءً لغلي الحليب وحقيبة يَضع فيها أرزاقه الاحتياطيَّة، من اللحم المجفَّف والخبز واللبن الخاثر، الذي يضعه في إنائه، ويَضع فوقه الماء، ويَغليه، ويَستعمله كالحليب، وقِربة صغيرة للماء [٥].

وصايا جنكيز خان لجيشه

١. يُمنع اتِّصال قائد التُّومان"التُّيان" بآخر مثله، وليس له أمر على الآخرين.

٢ـ عدم التجاوز في أي إهمال فردي، كعدم قبول تقصير الفرد في تجهيزاته من الخيط والإبرة إلى ملابسه، وإلى كل ما يكون مسؤولاً عنه من تجهيزات، والمخالف يُعاقب بأشد العقوبة.

٣. المعاقبة بشدَّة لكل من الابن لأبيه وأخيه الأكبر، والزوجة لزوجها.

٤. مراعاة السّلسلة في تنفيذ وإصدار الأوامر، فالفرد لا يُراجع إلا آمره، وهكذا إلى أعلى الرتب، وهو ما يُسمى الآن بالتسلسل الوظيفي، وهو نوع من أنواع الكبت، ولا يمكن قبوله في الأنظمة الديمقراطية، إلا إن كان في الجيوش لاستحباب الطاعة فيها.

٥. المعاقبة الشديدة، لكل من يسرق أويَقطع الطريق، أو يقوم بجريمة.

٦. حُسن اختيار القادة، فلا يُكلف بالقيادة إلا من كان عاقلاً شجاعاً، وبقية الناس هم أفراد في الجيش، وأما الضُّعفاء، والعجزة فيتخذهم رعاة، فيوزع الأعمال بهذه الصورة.

٧. على جميع القادة من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى مواجهة جنكيز خان في السنة مرة، ليتلقوا منه الأوامر، ويَصغوا إلى نُصحه، وكانوا يرجون لمن فعل ذلك أن يصير قائداً لجيش عظيم [٦].

أساليب القتال عند المغول

كانت الجيوش المغولي تتقدم بقيادة جنكيز خان على جبهة عريضة وبثلاثة أرتال: جناح أيمن، وجناح أيسر ووسط، وكان الجناحان الأيمن والأيسر يتقدمان على مستوى واحد تقريباً، ولقد اعتمد جنكيز خان في بناء جيشه على مبدأ الشعب المسلح كما سبقت الإشارة، حيث كان يعتبر الشعب كله ضمن القوات القابلة لحمل السلاح، ما عدا العجزة والأطفال والنساء، وكانت المسافة الأرتال الثلاثة لا تتعدى مسيرة يوم واحد، وكان جنكيز خان يتقدم بجيشه ليلاً ونهاراً، وكان جنكيز خان يَستخدم إشارات الميدان أثناء القتال، فيستعمل الأعلام نهاراً والمصابيح وإشعال النِّيران ليلاً، وكان يُرسل عناصر من استخباراته لشن حربٍ نفسية على أعدائه قبل أية معركة، كما كان يستخدم حرب الصاعقة لقهر جيوش أعدائه، وتمكن جنكيز خان من تأليف أقوى جيش، وتأسيس أقوى إمبراطورية عرفها تاريخ القرون الوسطى، بغض النظر عن كونه سفاحاً ووثنياً وغير ذلك من الصفات التي تتعارض مع الدين والخُلق القويم [٧].

أساليب المغول مع المغلوبين

كان المغول قبل أن يقوموا بغزو إقليم من الأقاليم، تُطرح الخطة الحربية، المقترحة على بساط البحث في جلسة "القوريلتاي" فإذا أستقر الرأي على الغزو، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو، يَجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويَستقصون حالة جيش العدو، ويختبرون حصون المدن، ثم يُطلعون قادة الجيش عليها، فيُرسل الخان رُسلاً من قبله إلى حكام تلك الأقاليم والمدن، يَدعونهم إلى النزول على طاعته، وكانت للمغول أعمل إرهابية تنخلع لها القلوب رعباً وفزعاً، عندما يُوجه إليهم المغول إنذارهم المعتاد: .. ولسنا نعلم ماذا تَفعل بكم الأقدار إذا

لم تُسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام، والله وحده هو الذي يَعلم ما هو نازل بكم [٨].

فإذا خَرج عظمائهم وذوو الرأي فيهم، وقبِلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن، فإن المغول لا يتعرضون لهم بالأذى، ويكتفون بأن يُرسلوا إلى المدينة حاكماً من قبلهم، وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة، وتسليم عُشر خيرات الإقليم أو المدينة [٩].

أما إذا اتبع السكان العصيان، فإنهم لا يَعقدون مع أهلها صلحاً في حالة التسليم، بل يُصدر الخان أوامره بقتل جميع السكان، كذلك يأمر قواته بتخريب المدينة، ولا يُبقوا إلا على الصُناع وأرباب الحرف، الذين يُرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا، ثم يُعملون سيوفهم في الباقين، أما إذا التقى المغول بجنود أعدائهم في أرض سهلة، فإنهم يهاجمونهم ليلاً ونهاراً حتى ينهكوا قواهم، وبعد المعركة يُعطي الخان كل محارب من جنوده نصيباً عادلاً من الغنائم والأسلاب، كما يترجل عن حصانه ليعطيه من هو في حاجة إليه [١٠].

وكان المغول يأخذون الأسري، لاستخدامهم كدروع بشرية، أو يكلفونهم بحفر الخنادق، ونصب أدوات الحصار وما يَراه المغول ضرورياً من الأعمال الشاقة، فكان الأسرى يتعرضون للأخطار الجسيمة، من جرَّاء ذلك [١١].

الاهتمام بأهل الخبرة

كان جنكيز خان لا يُغفل الإفادة من تجارب المتحضرين، وَتَلقى المساعدة من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الاطلاع، فيما يتعلق بالشئون الإدارية والمخابرات، وقد كان تنظيم الإدارة المدنية في أول أيام دولة جنكيز خان، أمراً بالغ الصعوبة، فلم يكن المغول في هذا الوقت قد وصلوا للأساليب التنظيمية في المجتمعات المتمدنة، كالكرايت والنايمان، وكان هناك ثلاثة من المسلمين من أشد الناس إخلاصاً لجنكيز خان، في أيامه المبكرة في الحكم، وهم: جعفر خوجا، وحسن، ودانشمند الحاجب. كما اتخذ جنكيز خان له مستشارين من الموالين له على

اختلاف عناصرهم، ومن هؤلاء:

١ - محمود يلواج الخوارزمي من المسلمين.

٢ - تا تات أونجا: t'a - t'a - t'ong -a من الأويغوريين.

٣ - يي ليو جو تساي، ye – Liu Tch' ou –ts'ai. من الصينيين، وهو الذي خدم آخر ملوك النايمان، وعلّم أبناء جنكيز خان الكتابة الأويغورية [١٢].

المجلس العام المغولي: الكوريلتاي

كان المجلس العام المغولي "الكوريلتاي" يُعقد كل عام، وكان المكان الذي اختير لانعقاد آخر كوريلتاي في حياة جنكيز خان، مرجعاً تبلغ دائرته ٤٠ كلم تقريباً، وكان الوقت أوائل الربيع، وأخذ قادة الجيش يفدون في المواعيد المحددة، ولم يتأخر قليلاً سوى سوبوداي المستدعى من أوروبا، لقد قَدِموا من جميع أركان المعمورة المعروفة، جنرالات، خانات، ملوك وسفراء، قاموا برحلة طويلة للوصول إلى مجلس نبلاء الإمبراطورية المغولية، وكانت المركبات القادمة من الصين مجرورة بالبقر ومغطاة بالحرير، ويرفرف فوقها الأعلام المغتنمة، وكانت مركبات الضباط القادمين من سفوح التيبيت مسقوفة مذهبة ومبرنقة، مجرورة بجمال التيبيت (الياك)، ذوات القرون العريضة والأذيال الحريرية البيضاء، العظيمة القيمة لدى المغول، الذين يستعملونها زينة للرايات والأعلام.

وجاء تولي أمير الحروب، قادماً من خراسان جالباً معه عدداً كبيراً من الجمال البيضاء، وجاء جغطاي، هابطاً من ثلوج الجبال، يقود مائة ألف رأس من الخيل هدية لأبيه، واجتمع الكل في فسطاط أبيض كان من الضخامة بحيث يستوعب ألفي شخص، وكان للفسطاط مدخل لا يَستعمله سوى الخاقان، وكان الجنود حاملوا التروس من الشدة والصرامة، بما يمنع أي أحد من الاقتراب مقر جنكيز خان [١٣].

فالتفت جنكيز خان إلى أولاده الأشقاء الثلاثة، بعد أن استقر المجلس بهم، وقال: لا تسمحوا أبداً للخصومات أن تحل بينكم! وجَرت حفلات ومآدب لمدة شهر.

ثم انفض الحشد، فغادر جغطاي إلى جباله، وتوجه آخرون في طريقهم إلى كراكوروم وعلى رأسهم جنكيز خان، وكان سوبوداي يسير إلى جانبه ويُحدثه عن مغامراته في عالم الغرب، وكرّس جنكيز خان بعد ذلك ما بقي من حياته لتوطيد دعائم إمبراطوريته العظيمة، التي امتدت من كوريا حتى الخليج العربي، وجرى تنظيم الإدارة بصورة كاملة، بإشراف الحكيم الصيني: يي ليو جو تساي، ye – Liu Tch' ou –ts'ai. وكان الأكثر إلفاتاً للنظر، تعدد الديانات في هذه الامبراطورية، وقد جمع جنكيز خان حوله مستشارين من جميع الأديان: وثنيين ومسيحيين وبوذيين ومسلمين، ولم يقدم أحدمنهم على الآخر[١٤].

ولقد تميز التخطيط الاستراتيجي المغولي بالتركيز على المؤسسة العسكرية، والتي اشتهرت بالعمليات الحركية السريعة الخاطفة، واستعمال الخِداع والمخاتلة وإخضاع المجتمع كله لأغراضهم الخاصة، وجني طاقة عمل ضخمة من شدة الانضباط والتقيد بالقوانين والسهر على تطبيقها، كما كانت تلك العسكرية تتميز بالأمور التالية:

١ـ تأمين الإعلام الاستراتيجي اللازم لمناورات المخادعة والتضليل، بقصد تشتيت العدو.

٢. توسيع الخلافات الداخلية لدى الخصم. بما يفت في عضده.

٣. استغلال السُّرعة وطاقة الاحتمال لديهم. للمناورة والمفاجأة.

٤ـ تجنيد الطاقة البشرية المحلية المغلوبة. لتغطية الخسائر في الصفوف وتدثيرها، بضمهم لجيوشهم، وجعلهم في المقدمة لتلقي الضربة الأولى، ولتكون الخسائر فيهم.

٥. احتلال المدن قبل أن تظهر فيها أية مقاومة جدية.

٦. القدرة على التنسيق الصحيح، وفي حينه، بين مفارز متباعدة.

وهذه الميزات جميعهاً تؤدي إلى الحفاظ على الطاقة البشرية المحدودة، وإلى الانتصار أيضاً، ولم يقم النجاح العسكري المغولي على كفاءة أو خبرة واحدة،

لقد كان الصينيون ينتجون مهندسين أفضل، والأتراك خيالة أسرع، والمسلمون أكثر بطولة، فاستفاد المغول من ميزات كل جانب، إلا أن المغول كانوا يُظهرون جميع إمكانياتهم وخواصهم، المادية والروحية والنفسية، لشعب مكرَّس بكليته للحرب، لقد حوَّل المغول مجموع قبائلهم إلى دولة عسكرية عديدة الأوجه والأدوار، وحافظوا على جيوشهم قوية بالانضباط الصارم وافتراس العدو، وكانت الشَّبكات البريدية ومحطاتها المرحلية تَسمح باستجابةٍ عاجلةٍ إلى كل تحدٍ على حدودهم المترامية الأطراف، وكانت استراتيجيتهم ذاتية المنبع، قامت وتطورت، حسب الاستطاعة التكتيكية والإمكانات الاستراتيجية المتاحة لهم [١٥].

العادات والتقاليد عند المغول

كان المغول يَسكنون الخيام، كما هو الحال عند البدو، وكانوا يسمون أمكنة إقامتهم في المصايف والمشاتي: يورت، أو: أوردو. وكانوا يختارون أماكن معينة يقضون فيها الصيف، يُقال لها: بيلاق. وأُخرى يَقون فيها الشتاء تُسمى: قيشلاق، واستمروا على هذا حتى بعد أن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدنة، واضطروا إلى سَكن العواصم، فكانت لهم أمكنة يُقيمون فيها صيفاً، وأخرى شتاء.

وهذه الخيام في المصايف والمشاتي، كانت تَتخذ صفة المدينة الكبيرة؛ فقد كان السكان الذين يَصحبون الخان، يمثلون جميع الطوائف: من قواد الجيوش إلى القُضاة والكُتاب والصناع والتجار وغيرهم. وكان أرباب الحِرف والصّناعات يزاولون عملية البيع والشراء، ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات، وكانت عادة المغول في حالة حدوث أمر هام، كتنصيب ملك جديد أو القيام بحملة حربية، أن يُدعى أُمراء المغول وأقاربهم إلى الاجتماع بواسطة رسل يُقال لهم: إيلجيان، مفرد: يلجي. أي مبعوث أو سفير، للتشاور في مختلف المسائل المطروحة، وهذه المجالس يُقال لها بالمغولية: قوريلتاي، وقد ذكرناها بالتفصيل [1].

الزواج عند المغول

كان للخان عند المغول أن يتزوج بمن يشاء من النساء، وكان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات، علاوة على أنه كان يتزوج من ابنة أو أخت أوأم أي ملك أو أمير تغلب عليه، أو عقد معه تحالفاً، إما إذا تَغلب عليه وقَتله، فكان يتزوج امرأته، وكان جنكيز خان يَسير على تلك الطريقة، حتى قيل إن عدد زوجاته كان

يزيد عن ٥٠٠ زوجة [٢].

وكان المغول يُفضلون أن يكون أبناءهم من أقرب الزوجات إلى قلوبهم. وبعد موت الخان كانت جميع نسائه تكون من حق أكبر أبنائه، يتزوج بمن يشاء منهن، باستثناء والدته بالطبع، كما كان له أن يمنحهن لأصدقائه أو يسرحهن، على اعتبار أنهن ملكية خاصة لا رأي لهن، مع ملاحظة أن المرأة المسلمة في هذه الفترة ومن قبلها بأكثر من خمسة قرون، كانت تتمتع بحقوق لم تتحصل عليها المرأة حتى اليوم في أرقى الديمقراطيات حسب وصفهم لأنفسهم، ولا اظن أن تصل المرأة لحقوق كالتي يكفلها لها الإسلام. وفي مملكة المغول، كان يُطلق لقب: أُرُوغ. بمعنى: عشيرة، أو سلالة. على مجموع الأبناء والأقارب والأشخاص الذين هم من عشيرة الخان أو الأمير، أما رعايا الخان، فقد كان يُطلق عليهم لفظة: أولوس [٣]..

الخرافات بين المغول

لكون البداوة كانت غالبة على قبائل المغول، علاوة على تفشي الجهل، وهذه بيئة طيبة ومناسبة جداً لانتشار كل ما يخالف العقل السليم من خرافات وافعال لا يَقبل بها المجتمع السليم، وكان المغول يَعتقدون أن للشياطين تأثير كبير على حياتهم، وكانوا يَنظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين، القادرون على إبطال تأثير السحر بكل إكبار، ويَعرف الواحد منهم باسم: بخش. أما الساحر الخبير فيُقال له: قام. وقد اعتاد المغول أن يتم تقرير الأمور تحت مشورة هؤلاء السحرة والكهنة، ولعل هذه الأفكار متشابهة مع ما كان يحدث في مصر الفرعونية.

كذلك كان المغول يخشون الرعد ويفزعون من وقوعه، ومن غرائبهم أيضاً أنهم كانوا يتصورون أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غَسل يده في النهر، أو وضع الماء في أواني ذهبية أو فِضية، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء، فإنه يَنتج عن هذا كله رعد وبرق كثير، وتجنباً لكل هذا، نصت

الياسا على عقوبات قاسية تُنَفذ فوراً فيمن يقترف تلك الخطايا. وكان يسمون تلك الأمور بقوة السماء الأبدية، ولأنها قوة السماء التي لا يَقدر على مقاومتها البشر، فهم يخافونها أكثر من أي شيء آخر [٤].

أيضاً من علامات الجهل العقائدي لدى المغول، ما وقر في نفوس البعض منهم أنه بدون التمتمات والطقوس والخزعبلات التي يلجأ إليها الساحر، لا يمكن أن يَنزل المطر والثلج. أيضاً كانوا يُعاملون المرضى معاملة قاسية، وكانت عاداتهم عندما يمرض أحد منهم، يُعزل عن مرقده. وتُوضع علامة على مسكنه تُشير إلى وجود مريض في الداخل، فلا يزور المريض أحدٌ أبداً إلا من يتولى خدمته، وقد توضع حربة خارج خيمة المريض، تُلَف حولها قطعة من الصوف الأسود، فلا يَقربها أي غريب، وعندما تشتد عِلة المريض. ويُمنع من شاهد موت المريض أن يَدخل قصر الإمبراطور، أو مسكن عظيمٍ من العُظماء حتى يبزغ القمر الجديد، وهكذا ذاعت تلك الخرافات، وانتشرت بين أقوام المغول [٥].

حفظ الجميل والاعتراف بالذنب

وكان المغول يُقَدِّرون الأشخاص الذين يؤدون لهم خدمات جليلة، أو يقدمون لهم مساعدات قيمة في أوقات المحنة والشدة واعترافاً بهذه المنة، كانوا يَعنون بمثل هؤلاء الأشخاص، ويهبونهم الأراضي والأملاك ليستغلونها، ولينتفعوا بما تُدره عليهم، ثم تئول تلك الأملاك إلى أعقابهم بالوراثة. ويعطفون عليهم، وهذا الرد للجميل بالمغولية: سيورغاميشي، وأحياناً كانوا يُعطونهم هية من الذهب أو الفضة أو الخشب، حسب مقام كل شخص. في حجم كف اليد، ويُنقش عليها اسم الله واسم الخان، وإذا شك الخان في أحد أتباعه، فإنه يُحيله إلى المحاكمة لمحاكمته.

والعادة أن المتهم يعترف بذنبه، أو جريمته. فالغالب على المغول الصراحة وكراهة الكذب، وقد استمرت تلك العادة عندهم، حتى بعد تأسيس امبراطوريتهم، وكانت اليسا لا تعتبر المرء مذنباً إذا لم يعترف على نفسه، إلا

إذا تم القبض عليه متلبساً [٦].

وكان المغول يَعتقدون أن الخروج على طاعة جنكيز خان ومخالفة أوامره، يُعد جرماً عظيماً لا يغتفر في نظر المغول، ذلك لأن أوامره في عقيدتهم إنما تصدر من السماء، فعصيانه إذاً إنما عِصيان لله. ووحتى أفراد أسرته لهم نفس نظرة التقديس، لذا تم تخريبهم مدينة نيسابور، وجَعلهم عاليها سافلها، بسبب قتل طغاجار، صهر جنكيز خان، وتسوية باميان بالأرض، على إثر قتل موتوجن ابن جغتاي، وحفيد جنكيز خان [٧].

ولم تكن فكرة العفو قائمة عند جنكيز خان، فما كان ليعفو عن من عصاه، حتى صديقه الحميم: بواورتجو، الذي كان له مُطلق الحرية في الدخول والخروج عليه في خيمته، ومُشاركته طعامه وشرابه ومُسامرته، لم يكن له أن يُخالف أمره أبداً. ولقد زرع جنكيز خان الرهبة في قلوب القاصي والداني، بتلك المذابح الرهيبة التي نفذتها جيوشه، ونحن لا نعوّل عليه في تلك التصرفات باعتبارها شيء شاذ تماماً، فقد كانت تلك الأمور واردة ومتوقعة من المحاربين، بل لقد كان يقع مثلها من جيوشٍ إسلاميةٍ، ضد جيوش إسلامية أخرى على مر التاريخ الإسلامي، ولننظر ما فعله الخوارزميون في الدول الإسلامية التي ضموه، وما فَعله الموحدون في المرابطين، وما فعله العباسيون في بني أمية والعلويين، وما فعله بني أمية في العلويين، والأمثلة كثيرة، وكانت أجواء الحروب هكذا تدور.

الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر

عندما كان علاء الدين محمد خوارزم شاه مقيم بمدينة بخارى، عام ٦١١هـ/ ١٢١٥م، بعث بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، وقضوا مهمتهم، ورجعوا فأخبروا إن عدد المغول فوق الحصر، وأن لهم صبر على القتال، ومعرفة بفنونه، ولهم مصانع للسلاح، يَعملون فيها ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، كما أن غذاءهم متوفر، وأن قتالهم من المجازفة، لعدم القدرة على مقاومتهم [١].

درس علاء الدين محمد خوارزمشاه ما وصله من معلومات، وادرك فداحة قتله لتجار المغول ورُسلهم، ثم أخذ يُعمل فكره ويدبر أمره، واستشار الشهاب الخيوي في الفقيه، فلما فقال له خوارزمشاه: قد حدث أمر عظيم، وذلك أنه قد تحرك إلينا خصم من الترك في عدد لا يُحصى [٢].

فأشار عليه الخيوي في بإعلان النفير العام، فإذا اكتملت تعبئة الجيوش، سار إلى حدود دولته الشرقية مع المغول، عند جانب نهر سيحون، إلا أن الأمراء وأرباب المشورة في دولته رأوا عكس هذا الرأي، وهو ترك المغول حتى يَعبروا سيحون، ويعبرون الصحارى والمضايق والوديان التي يجهلونها، فإذا وصلوا بخارى كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ، وبذلك يمكن الظهور عليهم. ولكن الرأي الأول هو ما أعجب خوارزمشاه، فلم يلبث أن شرع في تجهيز جيشه للقاء المغول [٣].

أول لقاء بين الخوارزميين والمغول

تجهز خوارزم شاه، وسار ليكبس المغول في بلادهم، ومضى يواصل الليل بالنهار، فقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأثقال، وهذا يُظهر كذب ما وصله من معلومات من رجاله، فأوقع بهم وغنم الجميع، وسبى النساء والذرية.

وكان المغول في هذا الوقت قد ساروا إلى محاربة كشلوخان، فقاتلوه، وهزموه، وفي طريق عودتهم لقيهم خبر بما فعل خوارزم شاه في ديارهم، فأقبلوا عليه، فأدركوه قبل أن يَخرج عن بيوتهم، فاقتتلوا، شرق نهر سيحون، وهو يُعرف الآن بنهر سرداريا، ويَقع في دولة كازاخستان المسلمة. فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقُتل من الطائفتين ما لا يُعد، ولم ينهزم أحد منهم. وصبر المسلمون للدين، وخوف الفناء لو هزموا، وأما المغول فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، حتى إن أحدهم كان يَنزل عن فرسه، ويتضاربون بالسكاكين، وجَرى الدم على الأرض، حتى تزلق الخيل من كثرته، وهذا القتال لم يحضره جنكزخان ولم يَشعر بها، بل قاده ابنه، فقتل من المسلمين عشرين ألفاً، وأما من قُتل من المغول فوق الحصر [٤].

فلما أظلم الليل من الليلة الرابعة، أوْقد المغول نيرانهم وتَركوها بحالها وساروا، وعادوا إلى ملكهم جنكزخان، وكذلك فعل المسلمون، رجعوا إلى بُخارى، واستعد خوارزم شاه للحصار لعلمه بعجزه عن المغول، ومن هذا الوقت تمكن الخوف من المغول في قلب علاء الدين خوارزم شاه، فأَمرَ أهل بخار وسمرقند بالاستعداد للحصار، وذلك عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥- ١٢١٦م [٥].

ولكن جنكزخان لم يلتفت إلى ما وقع من خوارزم شاه، وراسله وهاداه، وطلب منه أن يَفسح للتجار أن تتواصل من بلادهما، وذلك أن جنكيز خان كان لا يزال يجهل تلك المنطقة، ولم يُرد أن يُلقي بنفسه في حرب غير معلومة، فأحب أن يأخذ فرصة كي تدوس رجاله بلاد خوارزم شاه، ويعرفها قبل القدوم عليها غازياً [٦].

فأجاب السلطان خوارزم شاه إلى المهادنة، وبعد إبرامها عمل جنكزخان على تأمين التجارة بين شرق آسيا وغربها، وتوسيع نطاق التجارة، كماحرص على تأمين الطرق والأخذ على يد المعتدين وقُطَّع الطُّرق، وزود الطرق الرئيسية بقراقجية، وهم المستحفظين أو الحرس، وكلّفهم بأن يُرافقوا كا أجنبي يَحمل تجارة ما إلى معسكرات المغول [V].

أسباب غزو جنكيزخان للخوارزميين

كانت هيبة الدولة العباسية لا تزال موضع اعتبار لدى القائد المغولي،مع أنه منذ فترة لم يعد هناك من الدولة العباسية غير الاسم والخطبة فقط، ولأن جنكيز خان كان مُصرٌ على اكتساح كل العالم الإسلامي، بما فيه عاصمة الخلافة العباسية، إلا أنه رأى أنه لا يَصِح قصد دار الخلافة مباشرة، مع وجود دولة إسلامية مجاورة له تُعتبر هي أقوى دول العالم الإسلامية في هذا التاريخ، الذي هو بداية القرن السابع الهجري، حيث أن ذلك يَضعه بين خطرين، الأول تجاوزه الدولة الخوارزمية، وجَعلها من ورائه حاجزاً بينه وبين بلاده سواء بالنسبة للإمداد، أو الرجوع لو هُزم، الأمر الثاني احتمال حدوث التوافق والتعاطف بين دول الغرب الإسلامي، ودول الشرق علاوة على الخوارزميين، وفي هذه الحالة تصير الجيوش المغولية بين شقي رحى، فتكون عُرضة للإبادة بكاملها.

من هنا لم يكن أمام جنكيز خان لإسقاط الخلافة العباسية، أن يتمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش المغولية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة في ذلك الوقت، وثرواتها كثيرة، فيضمن مصادر مجانية للتمويل والإمداد، ويأمن خطر وجوده بين قوتين مسلمتين.

لكنه هذا دخل جنكيز خان في حروبٍ متتالية مع دول المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تُعرف بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم عدة أقاليم

إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكان هناك شبه اتفاق بين جنكيز خان ومحمد خوارزم شاه على حُسن الجوار، وكان جنكيز خان عَقَدَ اتفاقاً مع ملك خوارزم لِيُؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، أما وقد استقرت في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية [٨].

أهم أسباب الغزو المغولي للعالم الإسلامي

١ ـ الجدب الذي ساد أقاليم آسيا الشرقية: كان المغول في حاجة ماسة إلى اقتناء ما يُغطي احتياجاتهم الطبيعية من ملبس ومطعم وغيرهما، وعنما وقع الجدب والقحط في بلادهم، نشأت عندهم حاجتهم دائمة إلى المواد الغذائية اللازمة لحياتهم وحياة دوابهم، وكان لقيام علاء الدين محمد خوارزمشاه بمنع الميرة عنهم من الكسوات والأقوات وغيرها، وسده طُرق التجارة في وجوههم، أثره في توجيه انظارهم إلى الدولة الخوارزمية [٩].

٢ ـ حالة الحماسة والنشاط المغولي: بسبب أمجاد انتصاراتهم السابقة في الصين وغيرها، مما حزا بهم لوضع خطة لأنفسهم للسيطرة على المناطق المجاورة لهم، طمعاً في سعة الدولة الخوارزمية المجاورة لهم، وفي ثرائها الضخم وحضارتها الرائعة [١٠].

٣. مقتل بعض تجار المغول: يُقال أن هذا هو السبب المباشر والرئيسي، بل قُل: هو الحِجة الناجزة التي وضعها خوارزم شاه بيد جنكيزخان، حيث قام أحد رجال دولة خوارزم شاه بقتل بعض تجار المغول.

وكان جنكيز خان قد أرسل إلى علاء الدين محمد خوارزمشاه عند عودته إلى ما وراء النهر، بعد محاولته الفاشلة لغزو بغداد سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، وفداً من ثلاث تجار مسلمين هم: محمود الخوارزمي من خوارزم، وعلى خواجة البخاري من بُخارى، ويوسف كنكا الأتراري من أترار، برسالة يعرض فيها المسالمة والموادعة، وعقد اتفاق تجاري بين البلدين، علاوة على بعض الهدايا من منتجات

آسيا الوسطى، رغبة من جنكيز خان في قيام علاقات تجارية وطيدة تخدم الطرفين [١١].

وكان نص رسالت جنكيزخان: ليس يخفي علي عظم شأنك وسعة سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك ونفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جُملة الواجب، وأنت عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عنك أيضا أنني مَلكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبايلهم، وأنت أخبر الناس أن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأنها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد [١٢].

وصول رُسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه

لما سَمِع السلطان علاء الدين محمدخوارزم شاه الرسالة صَرف الرُّسل، ثم استدعى محمود الخوارزمي ليلاً بمفرده، بوصفه أحد رعايا خوارزم شاه، نظراً لمولده في خوارزم، فسأله عما جاء في رسالة جنكيز خان ؟ فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ على وجه السلطان اعرض عن النُّصح، وأخبره أن الجيوش الخوارزمية أظم من المغولية كثيراً [١٣]

ذهاب رُسل جنكيز إلى خوارزم شاه

استقر الحال على المسالمة، بين الدولة الخوارزمية والمغول، إلى أن وصل من بلاد التتارجماعة من التجار إلى أترار، وهم: عمر خواجه الأتراري، والجمال المراغي، وفخر الدين الدنزكي البخاري، وأمين الدين الهروي. وكان ينال خان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه، ينوب عن السلطان بأترار، فطمع في أموال أولئك التجار، فكاتب السلطان أن هؤلاء القادمون من بلاد التتار، إنما هم جواسيس، يهددون الرعية ويرهبونهم من التتار، فَأذِن له السلطان في الاحتياط عليهم، فقَبضَهم ينال خان، ثم لما جاءت رُسل جنكيز خان تطلب تسليم ينال خان، أمر خوارزم بقتل التجار[١٤] .

وصول رُسل جنكيز إلى خوارزم شاه

مرة فترة وصل خلالها خبر التجار المغول إلى جنكيز خان، فهاج جنكزخان وماج، وقال غاضباً: لا تجتمع شمسان في سماء واحدة، ولا يجوز أن يَبقى خاقانان على أرض واحدة، وأرسل ابن كفرج بغرا، ومعه رجلان من التتار يقولون للسلطان: إنك قد كتبت خطك وأمَانك للتجار بأن لا تتعرض إليهم بسوء، وقد غدرت ونكثت، والغدر قبيح على الملوك، خاصة من سلطان المسلمين، فإن زعمت أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمْرِك، فسلّمه إليَّ لِأُجازيه على فعلته، حقناً للدماء، وتسكيناً للفتن، وثورة الدهماء. وإلا فأذن بالحرب ترخص فيها الأرواح الغالي، وتتعضدمعها عوامل الرِّماح [١٥].

الاستيلاء على مدينة أترار

في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بدأ الغزو المغولي شرق الدولة الإسلامية، فقد وصل جغتاي، ابن جنكيزخان، إلى حافة نهر سيحون على مقرُبة من مدينة أترار، على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف، بغرض الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، ما بين نهري سيحون وجيحون، لذا كانت الخطة هي الإطباق على هذه البلاد من أربعة جوانب، وكان جنكيز خان يُعبيء جيشاً كبيراً، وهو يقول: سيروا معي لنمحق بقواتنا إلى الرجل الذي ازدرى بنا واحتقرنا، ومن يخالف أو يفشل في إنجاز واجبه سيفقد حياته ونساءه وأولاده [١٦].

سوء تدبير السلطان لما قصده التتار

لما رجع خوارزم شاه من المعركة السابقة، عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥- ١٢١٦م، بَلغه خبر التتار، عزمَ أن يبتني سوراً على مدينة سمرقند، يبلغ طوله اثني عشر فرسخاً، لتكون سداً بينه وبين الترك. وفرَّق عُماله في سائر أقاليم مملكته، بصحبة كل منهم جيش يناسب المدينة التي هو بها [١٧]

خروج جيوش جنكيز خان

أما جنكيز خان فقد قسَّم جيوشه إلى أربعة أقسام، جَعل على رأس كل جيش منها أحد بنيه، فقد أراد أن يُهاجم أكبر عدد من المدن الإسلامية في وقت واحد:

الجيش المغولي الأول

كان تحت قيادة: جغتاي واجتاي ابني جنكيز خان، تحت قيادة جوجي أكبر أبناء جنكيز خان، وهذا الجيش مكون من سبعة تومانات، والتمون عدد مغولي يساوي عشرة آلاف، أي أن تعداد هذا الجيش كان حوالي ٧٠٠٠٠ جندي. وقد ترك جنكيز خان لهذا الجيش مهمة فتح أترار. وكانت مدينة محصنة وبها حامية خمسون ألف رجل، يعاونها جيش آخر بنحو عشرة آلاف، ودام الحصار خمسة أشهر، فعجز الجيش الخوارزمي عن الاستمرار، فَهُزم، واستولى المغول على مدينة أترار، وهي مفتاح ما وراء النهر [١٨].

لقد فقدَ ينال خان معظم رجاله، ولما وجد نفسه مُحاصراً من كل جانب قَذفَ بنفسه إلى سقف أحد المنازل، وأخيراً تم القبض عليه، ودَخل المغول المدينة، فنهبوها وطاردوا سكانها وقادو ينال خان إلى معسكر جنكيز خان فأمر أحد رجاله أن بصهر الفضة وسكبها في عينيه وأذنيه، وهكذا انتقم جنكيز خان لقتل تجاره ورسله، وبسقوط أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر [١٩].

استيلاء التتر المغربة على مازندران

لما أيس التتر المغربة الذين خرجوا خلف خوارزم شاه للقبض عليه، وعجزوا عن إدراكه، رجعوا إلى **مازندران** فملكوها في أسرع وقت. مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها، ولم يُلاقوا في الاستيلاء عليها سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م مقاومة تُذكر، فقتلوا، وسبوا، ونهبوا، وأَحرقوا البلاد [٢٠].

ولما فَرَغوا من مازندران سلكوا نحو الري. وكانت تركان خاتون، والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه في سنة ٦١٥هـ، رحلت من إقليم خوارزم بغية الالتجاء إلى العراق العجمي، فأخذوها وما معها قبل وصولهم إلى الري، وسيَّروا

الجميع إلى جنكزخان بسمرقند. فكانت تحضر سماط جنكزخان فتَحمل منه ما يقوتها مدة، بعد أن حكمت في أكثر البلاد، وبقت هناك حتى ماتت سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، ، وهكذا خلا إقليم خوارزم من الحكام الخوارزميين [٢١]

الجيش الثاني يستولي على مدينة جند

كان الجيش الثاني لجنكيز خان بقيادة ابنه الأكبر: جوجي، وقد ترك جنكيز خان لهذا الجيش مهمة فتح المدن الواقعة على نهر سيحون، وسُرعان ما وصلوا إلى مشارف سقناق، وقد أرسل جوجي: حسن حاجي، برسالة يدعوهم إلى التسليم، فقتلوه. فسار إليهم ،وحاصر المدينة سبعة ايام، ثم سقطت في يده. ثم كانت قبلته مدينة: جند، على نهر سيحون، وقد استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون في طريقه، وسيطر على كل مجراه، فلما وصل مدينة جند، نصب المجانيق حولها، فدكوا أسوارها من جميع جهاتها، ووضع جوجي على المدن المفتوحة حُكاماً مخلصين، ثم أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم [٢٢].

الجيش الثالث للمغول يستولي على بنكَت

كان وجهة الجيش الثالث من الجيوش الجنكيز خانية التي سيَّرها جنكيز خان، إلى بلاد ما وراء النهر، وقد ترك جنكيز خان لهذا الجيش مهمة فتح مدينة بنكَت، وخُجندة، وهما من أهم المعاقل والمنافذ على نهر سيحون، وهي شمال خجندة، فدخلوا مدينة بنكت بعد أن سلَّمها الأهالي، ثم فصلوا الجند عن المدنيين واعملوا فيهم القتل، واختاروا من المدنيين خيرة شبابهم لينتفعوا به في أعمالهم الحربية. ثم سارتوا نحو الجنوب ناحية شطر مدينة خجندة على نهر سيحون [٢٣].

وكان تيمور ملك قائد الحامية الخوارزمية في المدينة، فضَّلَ أن يُغادرها مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة في وسط النهر، وعلى بُعد كافٍ من مرمى سهام المغول، وقد سار عشرين ألف جندي مغولي، يتبعهم خمسين ألفاً من خيرة

شباب الخوارزميين، لمساعدة المغول التي تحاصر تيمور ملك، ولإحضار الأحجار وإلقائها في النهر، ليجعلوا طريقاً يستطيع المغول أن عبوره إلى تيمور ملك قائد الحامية الخوارزمية، وكان تيمور ملك، رجل جريئ مقدم، صمم على إفساد خطة المغول، فصنع اثني عشرة سفينة يُرسل في كل يوم ستاً منها للإغارة على المغول، فيرمونهم بسهامهم [٢٤].

ولكن تيمور ملك صمم على الهرب. بعد أن يئس من الاستمرار في المقاومة، ولكن جوجي بن جنكيز خان سد النهر بقنطرة من السفن. واضطر تيمور ملك أن يَترك النهر إلى الساحل، وقاتل على جوادد واستطاع أن يَخدع مُطارديه، ويَصل إلى مدينة خوارزم، حيث انضم إلى قوات السلطان في شهرستان. حيث كان يُرَابطُ جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين خوارزمشاه. وبعد فترة هدأت الفتن وعاد هذا القائد إلى فرغانة. ولكنه قتل على يد رجل مغولي [٢٥].

الجيش الرابع للمغول يستولي على بخارى

خرج جنكيز خان بنفسه على رأس الجيش الرابع من جيوشه. وكان معه في قيادته ابنه تولوي، وكانت غالبية القوات المغولية في هذا الجيش. فقصدوا مدينة بخارى، وهي من مدن بلاد ما وراء النهر الهامة. فنزل جنكيز خان بظاهرها في أواخر عام ٦١٦هـ/١٢١٩م، وبدأ لتوه بضرب الحصار عليها. وكانت القوة المدافعة عنها عشرين ألفاً [٢٦].

ولقد استمر الهجوم على بُخارى والتي هي الآن إحدى مدن جمهورية أوزبكستان، ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام ظهر للجيش الخوارزمي المدافع ضعفه وقِلة حيلته، فانسحب إلى خراسان، فلم يستطع من الجيش المغولي؟ فعزم على مواصلة الحرب، وحقق شيئاً من النجاح، ثم ارتداد، فطاردهم المغول على مقربة من نهر جيحون، فلم يُفلت من القتل إلا القليل منهم [٢٧].

وفي الرابع من ذي الحجة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، تم سليم المدينة. بعد أن خَرج إليهم قاضي المدينة بدر الدين قاضي خان يَعرض الصلح ويَطلب الأمان، فأجابه جنكيز خان إلى ذلك، وفتحت أبوابها [٢٨].

وقد كان أعيان البلد من المسلمين، وكبار الأئمة، يقومون بخدمة الجند في مجالس الشراب، أو يؤدون لهم الرقصات وفق رسم المغول على توقيع الآلات الموسيقية، وكان من هؤلاء الفقهاء الأجلاء من دفع به كذلك ليسوس البغال. وجَمعَ جنكيز خان سكان المدينة وطلَب منهم أن يُعيِّنوا لهم أكثر هذا الجمع ثراء، فعيَّنوا له مائتين وعشرين بينهم ثمانون من الأغراب [٢٩].

ثم أمرهم أن يُخرجوا كنوزهم المدفونة، وإلا يبالوا بما ليس مدفوناً، لأنه يستطيع أن يعثر عليه، وهرب منه أربعمائة فارس خوارزمي، فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة، فسار جنُد المغول وأحاط بالقلعة، ونادى في البلدان أن لا يتخلف أحد ومن تخلف قُتل. فأُحضروا بأجمعهم وأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتى كان التتار يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق، ثم دخلوها، فلم يتركوا واحداً على قيد الحياة، ثم قاتل هؤلاء الفرسان حتى قُتلوا عن آخرهم، وملك جنكزخان القلعة [٣٠].

وقد تحولت مدينة بخارى إلى أطلالٍ بالية، واستمرت على هذا النحو حتى أخذ جنكيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها، قبل موته بزمن قصير، ثم انتقل المغول إلى سمرقند، وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية [٣١].

اجتياح المغول لسمرقند ٦١٧هـ

كانت سمرقند من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها على الإطلاق، فهي حاضرة هذا الإقليم، وكانت إلى جانب ذلك مركزاً مهماً للتجارة، ولذلك أُحيطت بأسوار ضخمة، يعلوها عديد من الأبراج، للدفاع عنها، وكانت حاميتها عندما فر منها محمد خوارزمشاه غرباً، تتألف من خمسين الف مقاتل من الخوارزمية، وقيل أربعين ألفاً [٣٢].

وكان جنكيز خان على علمٍ بالاستعدادات الدفاعية لسمرقند، فرتب أموره على أن تلتقي كل قواته، والتي بدأ بها غزو بلاد ما وراء النهر من شرق أترار، عند سمرقند، واصطحب معه عدداً كبيراً من أسرى بُخارى ليستعين بهم في عملية الحصار [٣٣].

وكان التتار يصطحبون الأسارى معهم لأسباب كثيرة منها:

١. كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى علَماً من أعلام التتار يَرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار، وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب من يواجهونهم.

٢ـ كانوا يُجبرون الأسارى على أن يُقاتلوا معهم ضد أعدائهم، ومن رفض القتال أو لم يُظهر فيه قوة قُتلوه.

٣ـ كانوا يَجعلونهم دروعاً بشرية، عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف، ويختبئون خلفهم، ويُطلقون من خلفهم السهام والرماح وهم يحتمون بهم.

٤. كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم، وإعلامهم أن هذا هو المصير، الذي ينتظرهم إذا قاوموا التتار.

٥ـ كانوا يبادلون بهم الأسارى في حال أسر الرجال من التتار في القتال، وكان هذا قليل، لقلة الهزائم في جيش التتار[٣٤].

رأى جنكيز خان أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم على هذه المدينة، فنجح في الاستيلاء على بعض أبوابها، وبينما رأت أكثرية الحامية التي تنحدر من أصل تركي ضرورة التسليم، رأى الفريق الآخر ضرورة القتال، وارتدوا إلى القلعة محاربين، ووافق جنكيز خان على فكرة التسليم [٣٥].

فأوفد أهل المدينة في اليوم الرابع للقتال قاضي المدينة وبعض علمائها، يَعرضون على جنكيز خان التسليم، فأجابهم فَفُتحت الأبواب، فنادى المغول في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه! فخرج جميع من به من الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند كفعلهم مع أهل بخارى، من النهب والقتل والسبي والفساد، ثم وضعوا السيف فيمن لم يَخرج، ونهبوا ما في البلد، ثم أحرقوا الجامع وتركوا البلد على حاله، وذلك في العشر من المحرم سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، كما ألحق مهرة الصناع وبخاصة نساجو الحرير والقطن بخدمة

زوجات جنكيز خان وأقربائه كرقيق [٣٦].

وبعد سقوط عاصمة السلطان محمد، سمرقند، وهروب الشاه الخوارزمي من وجه القوات المغولية، أصبحت أراضي الأسرة الخوارزمية مفتوحة على مصراعيها امام قوات جنكيز خان، لذلك فلا عجب أن نجد المدن والمقاطعات تتساقط، واحدة تلو الأخرى. وما أن قارب فصل ربيع ذلك العام، حتى أكمل المغول فتحهم لجميع أراضي خوارزم شاه في إقليم ما وراء النهر، من مدينة جند في الشمال إلى بخارى وسمرقند في الجنوب، فبناكت وخنجد في الوسط، وانهارت جميع بلاد ما وراء النهر، وتيسر للمغول بعد ذلك الاستيلاء على اقاليم شرق الدولة الإسلامية الباقية من غير عناء [٣٧].

مواصلة علاء الدين خوارزم شاه للهروب

لما ملك جنكزخان سمرقند، اتصل الخبر بالسلطان وهو مُقيم بحدود كتلف واندخوذ، يَنتظر وصول الجموع المتفرقة إليه من الجهات. وفارقه الأتراك عشيرة أخواله سبعة آلاف من الخطايية، واتصل علاء الدين صاحب قندز وغيره بجنكزخان وعرّفوه بمكان السلطان علاء الدين خوارزم شاه [٣٨].

ورَحل السلطان علاء الدين خوارزم شاه، من حافة جيحون إلى نيسابور، إحدى مدن خُراسان، وتسلل عنه الناس فلم يُقم بنيسابور إلا ساعة من نهار، إذ بلغه أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأصبحوا على مقربة منه، وأنهم يجدون في البحث عنه، فلم يكن في وسعه حينئذ إلا ان يغادر نيسابور ويأخذ طريقه شطر العراق العجمي، واستطاع المغول على مقربة من الري أن يوقعوا بجيش خوارزمشاه الرئيس، الأمر الذي جعل الأمير الخوارزمي يفكر في الالتجاء إلى خليفة بغداد، رغم ما بينهما من عداء، فسار حتى نزل بمرج دولت اباد، وهي من اعمال همذان، فباغته المغول، فصمد لهم يقاتلهم، فقتل كل من كان في صحبته، ونجا السلطان في نفر يسير من خواصه إلى وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها [٣٩].

ما فعلته طائفة المغرية من التتار

لما ملك جنكزخان سمرقند، جهز ٣٠٠٠٠٠ الف فارس من أصحابه، في طلب خوارزم شاه حيث كان. وقال لهم: اطلبوا خوارزم شاه أين كان، ولو تعلق بالسماء، حتى تدركوه وتأخذوه. وهذه الطائفة تسميها التتار المغرية، لأنها سارت نحو غرب خُراسان لِيَقع الفرق بينهم وبين غيرهم، لأنهم الذين أوغلوا في البلاد وكان المقدم على هذه الطائفة سبطى بهادر ويمنويه، فساروا وقصدوا موضعاً يُسمى بنج آب، ومعناه خمس مياه، فلم يجدوا سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، والبسوها جلود البقر، ووضعوا فيها أسلحتهم وامتعتهم. وألقوا الخيل في الماء، وأمسكوا أذنابها وشدوا تلك الحياض إليهم. فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض، وفي شهر ربيع الأول من سنة ٦١٧هـ/ مارس ١٢٢٠م، عَبرت الجيوش المغولية كلها نهر جيحون دَفعةَ واحدة، فلم يَشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه في ارض واحدة. وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً، وحصل بينهم اختلاف، فكان ثباتهم بسبب أن نهر جيحون فاصل بينهم وبين التتار[٤٠].

لقد كان للضربات التي انزلها المغول ببعض أجزاء الدولة الخوارزمية، والتي انتهت بسقوط حصون ومدن أترار وبجند وبنكت وخجندة وبخارى. وغيرها، كان لها تأثير بالغ في نفس علاء الدين محمد خوارزمشاه. لذلك فإنه بعد وصوله إلى سمرقند من بخارى، عزم على الرحيل إلى مكان أمين. يرتب فيه أوراقه، ويَبحث في إمكانية التصدي لهذا العدو، لذا عقد في سمرقند مجلساً ضم وزراءه وكبار قواده، للبحث فيما يمكن عمله تجاه وقف تقدم هذا العدو في بلادهم، فأظهر هذا الاجتماع اتجاهان: الأول يَرى عدم جدوى الدفاع عن بلاد ما وراء النهر، ويجب أن يركز الخوارزميون اهتمامهم على حماية الأقاليم التي تقع غربي جيحون. وثانيها يُفضل الإنسحاب جنوباً إلى غزنة، وقد استصوب خوارزم شاه الرأي الأخير[٤١].

واقام السلطان علاء الدين خوارزم شاه، أياماً يَسيرة ومعه زهاء عشرين الف

فارس، فلم يَرعه إلا صيحة الغارة وإحداق خيول التتار به، فقاتلهم بنفسه، وشمل القتل كل من كان في صحبته، ونجا السلطان في نفر يسير من خواصه إلى وقصدوا نيسابور، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها.

وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل، كما أمرهم جنكيز خان، بل جدوا في السير طلبا لخوارزم شاه علاء الدين، فلا يُمهلونه حتى يَجمع لهم رجاله، فلما سَمع بقربهم منه رحل منها إلى الاستنداد، وهي أمنع ناحية في مازندران، ذات دربندات ومضايق، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الري وما بعدها، أما علاء الدين خوارزم شاه، فقد انتقل من الاستنداد إلى حافة البحر، وأقام عند الغرضة بقرية من قُراها، يَحضر إلى المسجد فيُصلي به إمام القرية الصلوات الخمس ويَقرأ له القرآن، وهو يبكي وينذر النذور ويُعاهد الله تعالى بإقامة العدل. ولم يزل كذلك إلى أن كبسه التتار فحين هجموا الضيعة ركب السلطان المركب، وخاضت خلفه طائفة فصدهم عمق الماء عن لحوقه، فلم يُدركوه وابتلعهم البحر [٤٢].

وكان السلطان علاء الدين خوارزم شاه، لما ركب المركب وساق به أصحابه كان به علة ذات الجنب، فكان ذلك مما آيسه من الحياة، وهو يُظهر الاكتئاب، ويقول: سبحان الله مالك الملوك، لم يبق لنا من مملكتنا مع سعتها قدر ذراعين ندفن فيها، فاعتبروا يا أولي الأبصار. فلما وصل الجزيرة سُر بذلك فرح بذلك كثيراً، وكأنه كان لا يصدق أن يصل إلى البر، فأقام بها فريداً طريداً والمرض يزداد به.

وكان في أهل مازندران ناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب وما يُشبهه، فقال في بعض الأيام: اشتهي أن يكون عندي فرس يرعى حول خيمتي هذه - وقد ضربت له خيمة صغيرة - فلما سمع تاج الدين حسن وكان من جملة سرهنكيته اهدى إليه فرساً أصفر قال: وكانت جشارات خيله تنيف على ثلاثين

ألف جشار متفرقة في ممالكه [٤٣].

وكان هذا السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه، في أيام مجده، قد ضم إليه ثلاثين ألف فارس، فكان يقول: إن المرتب معي ثلاثون ألف فارس ولو شئت جعلتها ستين ألفاً، من غير أن اتكلف صرف دينار أو درهم، وذلك أنني أستدعي من كل جشار من جشارات خيل السلطان جوباناً واحداً، فينيفوا على ثلاثين ألفاً، وها هو الآن في القلة والذلة، وسبحان الله، رب مصير غيره أرذل من مصيره، فهذا آل إلى السوء من هجوم أعدائه، ولا نعفيه من المسئولية والتقصير، وإن كان الطوفان أكبر من قوته، أما غيره فقد انتقم الله منه بيد شعبه بعد أن فقد القدرة على تحمل جبروت وفساد وظلم هذا الحاكم الجبار، وصدق الشاعر العظيم بشار بن برد:

إن الملك الجبار إذا صعَّر خَده   مَشينا إليهِ بالسيوفِ نُعاتبه

وكان من حَمل إلى خوارزم شاه شيئاً من المأكولات وغيره في تلك الأيام المريرة، كَتب له توقيعاً بمنصب جليل وإقطاع طايل، فربما كان الرجل يتولى كتابة التوقيع لنفسه لعدم من يكتب عند السلطان. وكانت هذه التَّواقيع تُسمى التواقيع الجزيرية. فلما ظهر أمر جلال الدين أُحضرت إليه التواقيع فأمضاها بكمالها، ومن كان معه منديل أو سكين علامة من السلطان بإقطاع أو غيره قَبلها جلال الدين وأَمضى حكمها [٤٤].

وظل خوارزم شاه في هذه القرية إلى أن انكشف أمره، وهاجم التتار موضعه، وعندئذ ركب البحر إلى قلعة أمينة في إحدى جرز بحر الخزر تدعى جزيرة: أوغر تشالي، أو جيركن الحالية، وقد رمى المغول زورقه بالسِّهام، فلما أخطأته تحمس بعضهم فسبح خلفه حِرصاً على أخذه، فغَرقوا، ووصل خوارزمشاه لمأمنه عليلاً [٤٥].

وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه

كانت وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش بالجزيرة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م. وذلك أنه لما استقر بالجزيرة اشتدت به علة ذات الجنب فمات، وغسّله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش، ومقرب الدين مهتر مهتران مقدم الفراشين، ولم يكن عنده ما يكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه، ودفن بالجزيرة، فكانت مدة سلطنته إحدى وعشرين سنة.

ولما أحس علاء الدين أن المرض يشتد عليه يوماً بعد يوم، وأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة في أيدي المغول، استدعى أبناءه جلال الدين منكبرتي وأزلاغ شاه، وآق شاه، ووكل أمور دولته إلى ابنه جلال الدين، بعد أن أعلن أنه الوحيد الذي يستطيع حماية الدولة الخوارزمية [٤٦].

وكان له من الأولاد خمسة وهم جلال الدين منكبرتي، وقطب الدين أزلاغ شاه، وآق شاه، وركن الدين غور شايجي، وكان بالعراق، وغياث الدين بير شاه [٤٧].

مرور المغول على الري وهمذان وقزوين

وصلت القوات المغولية إلى الري، على حين غفلة من أهلها، وكانت الحالة الداخلية منهارة، وأصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة في اختلاف عظيم، لضيق أُفقهم وقلة ورعهم، ففتح بعضهم بابين من ابواب المدينة للتتار فدخلوا منهما، فقتلوا نصف أهل البلد، ثم ما لبثوا أن تحولوا بالقتل على أصحاب القاضي الشافعي، واستولوا على مدينة الري، فعاثت فيها نهباً وسلباً، فكان لسقوط هذه المدينة من الأثر النفس السلبي ما لا يُقدر على المسلمين عامة، وعلى الخوارزميين خاصة [٤٨].

ولم يقم المغول في الري بعد استيلائهم عليه، بل أسرعوا في اثر خوارزمشاه ينهبون ويقتلون، ولا يُبقون على شئ فيها، وفعلوا في الجميع أضعاف ما فعلوا في الري، وأحرقوا، وخربوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال، ومضوا في

طريقهم لمطارة خوارزم شاه، فلما قاربوا همذان خَرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يَطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم، ثم فارقوها، ومرو بزنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم اهلها، واعتصموا بمدينتهم، وأخذوا يذودون عنها في قتال عنيد، واقتتل التتار وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين، وقُتل من الفريقين ما لا يُحصى، فزادت القتلى من أهل قزوين على أربعين ألف قتيل ثم فارقوا قزوين [٤٩].

ثم قصدوا إقليم أذربيجان، ومروا في طريقهم بمدينة سنجار. فنهبوها وقَتلوا، ثم ساروا إلى قوس فامتنع أهلها عنهم، فحاصروها حتى دخنوها. ولما وصلوا إلى مدينة تبريز عاصمة أزربيجان، صانعهم صاحبها أوزبك بن البهلوان، وقدَّم لهم كثيراً من الهدايا، وأعلن تبعية بلاده لهم [٥٠].

مسير التتار إلى أذربيجان وقتالهم مع الكرج

لما هجم الشتاء على التتار بهمذان وبلد الجبل، وكثرت الثلوج ساروا إلى أذربيجان، وهم يخربون طوال طريقهم المدن الصغار والقرى، ثم قصدوا ساحل البحر. ليشتوا عليه ولكثرة المراعي به لأجل دوابهم، فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في مسيرهم إلى بلاد الكرج، فخرج منهم نحو عشرة آلاف، فاقتتلوا فانهزمت الكرج، وقُتل أكثرهم [٥١].

فاستعان الكرج بأزبك صاحب أذربيجان وطلبوا منه الصلح، ودَفع التتار معهم، وراسلوا الملك الأشرف بن العادل صاحب خلاط، وظنوا أن التتار لا يتحركون إلى انقضاء فصل الشتاء، وحددوا بدء الهجوم بفصل الربيع، ولكن التتار تحركوا نحو بلاد الكرج، وكأنهم فطنوا إلى ما يُدبر ضدهم، وقاموا بهجوم على هذه القرى، وانضاف إليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك، اسمه أقوش، فاجتمع معه خلق كثير. وفي ذي القعدة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، سار أقوش ومن تبعه في مقدمة التتر إلى الكرج، فملكوا حصناً من حصونهم وخرَّبوه، ونهبوا البلاد وخربوها، وقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم، حتى وصلوا إلى قرب

تفليس، فاجتمعت لهم الكرج، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير، وأدركهم التتر وقد تعب الكرج، فلم يثبتوا للتتر، وانهزموا وركبهم السيف، فقُتل منهم ما لا يُحصى كثرة، واستولوا على حصون جورجيا وخرَّبوها [٥٢].

ملك التتر لمدينة مراغة

انقضت سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، والتتار في بلاد الكرج، وفي صفر سنة ٦١٨هـ، ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوية، تحتاج إلى قتال وصراع، فعدلوا عنهم، فوصلوا إلى تبريز، فصالحهم صاحبها، فساروا عنه إلى مدينة مراغة، وهي من أكبر مدن هذا الإقليم، وكان القائم عليها امرأة، مقيمة بقلعة رويندز.

فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها، وقدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم ينجوة منه. وفي الرابع من صفر، سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، ووضعوا السيف في أهلها، فقَتل منهم ما يَخرج عن الحد والإحصاء، وكانوا يأمرون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدرب أن التتر قد رحلوا. فمن خرج قتلوه [٥٣].

ثم رحلوا نحو مدينة إربل، وكان يليها مظفر الدين كوكبري من قبل خليفة بغداد، ووصل الخبر إلى الموصل، وكان يليها بدر الدين لؤلؤ ، فخافوا أن يتحول التتار إلى العراق العربي، وانزعج الخليفة الناصر ، حين علم بزحف المغول على مدينة إربل، فارسل إليهم الخليفة الناصر للخروج للقاء التتار، وامرهم الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر، فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، فيطرقون العراق، فسار مظفر الدين من إربل في صفر، وسار إليهم جمعٌ من عسكر الموصل، وتبعهم من المتطوعة كثير، فمهما يبدوا من تخاذل، لم يكن العالم الإسلامي قد فرغ تماماً من الشجعان الشرفاء [٥٤].

وسيَّر الخليفة إليهم مملوكه قشتمر، وهو أكبر أمير بالعراق، ومعه عشرة من الأمراء، في نحو ثماني مائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة، وأسند الخليفة إلى الأمير مظفر الدين كوكبري قيادة القوات الإسلامية، ووعده بمده بالعسكر، فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر. ولم ير المخاطرة بنفسي وبالمسلمين. ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رَجعوا القهقرى، ظناً منهم أن العسكر يتبعهم، فلما لم يَروا أحداً يَطلبهم أقاموا، وأقام العسكر الإسلامي عند دقوقا، فلما لم يروا العدو يقصدهم، ولا المدد يأتيهم، فَتَفرقوا، وعادوا إلى بلادهم، سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م [٥٥].

ملك التتر همذان وقتل أهلها

لما تفرَّق العسكر الإسلامي عاد التتر إلى همذان، فنزلوا بالقُرب منها، وكان لهم بها من يحكم فيها باسمهم .

فلما حصاروها قاتلهم أهلها فَقُتل من التتر خلق كثير، وجُرح فقيه من أهل البلد كان يقودهم، ثم خَرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول، وقُتل أيضاً من التتر أكثر من اليوم الأول، ثم لم يخرجو للقتال في اليوم الثالث، وكان التتر قد عَزموا على الرحيل عنهم لكثرة من قُتل منهم، فلما لم يَروا أحداً خَرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله، فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثماني عشرة وستمائة، ودَخلوا المدينة، وقاتلهم الناس في الدروب، فبطل السلاح للزحمة، واقتتلوا بالسكاكين، وقوي التتر على المسلمين، ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوه ورَحلوا عنه إلى مدينة أردويل [٥٦].

مسير التتر إلى أذربيجان وأردويل

لما فرغ التتر من همذان ساروا إلى أذربيجان، فوصلوا إلى أردويل فملكوها وقَتلوا فيها وأكثروا، وخرَّبوا أكثرها، وساروا منها إلى تبريز، وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي، وجَمع كلمة أهلها، وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان، فقام هذا الطغرائي بأمر البلد، وجَمع الكلمة وقوى نفوس الناس

على الامتناع، وحَذَّرهم عاقبة التخاذل والتواني، فلما قاربه التتر، وسمعوا بما عليه أهل البلد من اجتماع الكلمة على قتالهم، أرسلوا يَطلبون منهم مالاً وثياباً، فأخذوه ورَحلوا إلى مدينة سراو فنهبوها، وقَتلوا كل من فيها [٥٧].

ثم رحل التتار عن مدينة سرو إلى بيلقان، من بلاد أران، فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقُرى، وخَرَّبوا، وقتلوا من ظَفروا به من أهلها، فلما وصلوا إلى بيلقان حصروها، فاستدعى أهلها منهم رسولاً يُقرون معه الصلح، فلما جاءهم قتله أهل البلد، فزحف التتر إليهم وملكوا البلد في رمضان سنة ٦١٨هـ، فقتلوهم جميعاً، حتى إنهم كانوا يشقون بطون الحبالى، ويَقتلون الأجنة، وكانوا يَفجرون بالمرأة ثم يقتلونها، وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحداً بعد واحدٍ حتى يَفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم إليه يداً.

ثم سار التتار إلى مدينة كنجة، وهي أم بلاد أران، فعلموا بكثرة وشجاعة أهلها، وحصانتها، فطلبوا منهم المال والثياب، فحملوا إليهم، فساروا عنهم [٥٨].

قصد التتر في بلاد الكرج

ثم ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضاً، فالتقوا، فلم يثبت الكرج، وأخذهم السيف، فلم يَسلم منهم إلا الشريد.

فبلغ عدد القتلى منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونَهبوا البلاد وخَرَّبوها، ثم ساروا إلى تفليس، ففعل فيها ما أرادوا [٥٩].

ذكر وصولهم إلى دربند شروان

لما عاد التتر من بلد الكرج، وهي تقع في شمالي أرمينية، على البحر الأسود، وكانت تدعى (كرجستان) ، قَصدوا دربند شروان، فحاصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها، ثم صَعد التتار سورها بالسلاليم، فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها، فصبروا، واشتد القتال ثلاثة أيام، ثم فضجر أهل البلد، ومسهم التعب، فملك التتار البلد، وقَتلوا فيه فأكثروا، ونهبوها، ثم عبروا الدربند بواسطة جماعة دلتهم على ممر سهل سلكوه [٦٠].

ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دربند شروان ساروا في تلك الأعمال، وفيها أمم كثيرة منهم: اللان واللكز، وطوائف من الترك، فنهبوا، وقتلوا من اللكز كثيراً، وهم مسلمون وكفار، وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا إلى اللان، وهم أمم كثيرة، وقد بلغهم خبر التتار وافعالهم، فحذروا، وجَمعوا جمعاً من قفجاق، فقاتلوهم معاً، فأرسل التتار إلى قفجاق لما اعياهم القتال يحرضون الأتراك منهم على التمرد على بقية القوات، فاتفقوا وانسحبت تلك الجيوش، فأوقع التتر باللان، فقتلوا منهم وأكثروا ونَهبوا، وسبوا، وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون، ودَخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأول فالأول، [٦١].

وأقام التتر في بلاد قفجاق، وهي ارض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى، وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى، وهي غياض على ساحل البحر، ووصلوا إلى مدينة سوادق، وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم، فإنهم على بحر الخزر، والمراكب تصل إليها وفيها الثياب، فيشتري قفجاق منهم ويبيعون عليهم الجواري، والمماليك، والبرطاسي، والقندر، والسنجاب، وغير ذلك مما هو في بلادهم، وبحر الخزر هذا هو بحر متصل بخليج القسطنطينية.

ولما وصل التتر إلى سوادق ملكوها، وتَفرق أهلها منها، فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله، وبعضهم ركب البحر وسار إلى بلاد الروم، التي بيد المسلمين من اولاد قلج أرسلان السلجوقي [٦٢].

ما فعله التتر بقفجاق والروس

في سنة ٦٢٠هـ، سار التتار إلى بلاد الروس، وهي بلاد واسعة، طويلة عريضة، تجاورهم، وأهلها يعتقدون بالنصرانية، فسمع الروس وقفجاق خبرهم، فساروا إلى طريق التتار ليلقوهم، فبلغ مسيرهم إلى التتار، فعادوا على أعقابهم راجعين، فجد الروس وقفجاق في اتباعهم، اثني عشر يوماً [٦٣].

ثم إن التتار عطفوا على الروس وقفجاق، فصبر الطائفتان صبراً لم يُسمع بمثله. ثم إن التتار ظفروا، فانهزم قفجاق والروس، بعد أن أثخن فيهم التتار، فلم يَسلم منهم إلا القليل، وتبعهم التتار يقتلون وينهبون ويُخربون البلاد، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يَعز عليهم، وساروا يَقطعون البحر إلى بلاد الإسلام في عدة مراكب، ورجع التتار عن بلاد الروس فقَصدوا بلغار في أواخر سنة ٦٢٠هـ. فتحاربت معهم فقتلهم التتار شر قتل، ثم رجعت تلك الجيوش المغرية إلى جنكيز خان، بعد طواف أرع سنين في البلاد يخربون ويقتلون [٦٤].

أخبار المغول مع السلطان جلال الدين

السلطان منكبرتي

هو السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه، آخر شاه في خوارزم، تولى من سنة ٦١٧ إلى ٦٢٨هـ، ابن السلطان علاء الدين أبي الفتح محمد، ابن تكش، بن ألب أرسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين. مَلَكَ بعد وفاة أبيه في سنة ٦١٧هـ، وذلك أن والده السلطان لما اشتد مرضه بالجزيرة التي هرب إليها لما تتبعته الجيوش التتارية المغربة، التي أخرجها جنكيز خان خصيصاً للخوق بعلاء الدين خوارزم شاه، والقبض عليه، فلما بلغ علاء الدين أن والدته قد أُسرت، خَلَع ولديه: قطب الدين أزلاغ شاه وآق شاه، وأعلن ابنه جلال الدين ولياً للعهد من بعده، وقال لمن حوله: عليكما بطاعته والانخراط في سلك تباعته. وشد سيفه بيده في وسط جلال الدين، ثم مات بعد ثلاثة أيام [١].

عودة السلطان جلال الدين إلى خوارزم

لما دُفن السلطان علاء الدين خوارزم شاه بالجزيرة، عبر أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتي، وأزلاغ شاه، وآق شاه، عبروا البحر إلى إقليم خوارزم، ومعهم زهاء سبعين نفساً لقصد خوارزم، فلما قاربوها التقوهم منها بالدواب والأسلحة والأعلام، وفرح الناس بمقدمهم، إذ كانت حاضرة هذا الإقليم في فوضى مستمرة منذ غادرتها تركان خاتون، والدة علاء الدين خوارزم شاه، التي انشغلت فلم تُعين حاكماً على هذا الإقليم بعد تركه،واجتمع عندهم من العساكر زهاء سبعة آلاف فارس، أكثرهم البياووتية ومقدمهم توخى بهلوان الملقب بقتلغ خان، فمالوا إلى أزلاغ شاه للقرابة، وعَزموا على القبض على جلال الدين. فعَلم بذلك جلال الدين، فرَحل صوب خُراسان في ثلثمائة فارس، وقَطع المفازة الحاجزة بين

خوارزم وخراسان ست عشرة مرحلة في ستة عشر يوماً، وصل بعدها إلى أراضي مدينة نسا [٢].

أما جنكزخان فلما بَلغه عودة أولاد السلطان إلى خوارزم، وجّه إليها عسكراً كثيفاً، وضرب على البرية المذكورة حلقة من تخوم مرو إلى حدود شهرستان، حتى إذا همَّ أولاد السلطان بالمسير إلى خُراسان، فلما خَرج جلال الدين من البرية صادفهم أمامه، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فعمَّهم بالقتل، وغَنم ما معهم، ولم يُفلت منهم إلا الشارد. وكان هذا أول مصاف كان بين جلال الدين وبينهم، فتقوى بما غنمه منهم ووصل نيسابور، وأقاما أخواه بعدهُ ثلاثة أيام بخوارزم [٣].

مقتل ابني السلطان علاء الدين

وصل خبر تحرك التتار إلى أزلاغ شاه، وآق شاه، ابني علاء الدين، فخرجا بمن معهما مجفلين إلى صوب خراسان. فركب أزلاغ شاه ومن معه ورَحل والتتار في طلبه إلى استوى، بلد خيوشان، فأدركوه بقرية تُسمى وشت، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزمهم أزلاغ شاه، وظَنوا أن هذه الطائفة التي انهزمت أمامهم وحدها في المنطقة، فلم يُرعهم إلا وخيول التتار قد أحدقت بهم [٤].

وحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين، من كل جهة، وعسكر سبعمائة فارس بالقرب من مدينة نسا، فحلت بهما الهزيمة، ثم وقعا في الأسر، وقد قطع المغول رأسيهما ورشقوهما في سهمين، فطافوا بهما، وفي ذي القعدة سنة ٦١٧هـ / مايو سنة ١٢٢٠م كان الجيش المغولي يتقدم نحو مدينة خوارزم، على مقربة من مصب نهر جيحون [٥].

مسير جلال الدين من نيسابور إلى غزنة

أقام السلطان جلال الدين بنيسابور شهراً، يُتابع الرُسل إلى الجهات في الاحتشاد والاستمداد، إلى أن عَلم به المغول فأسرعوا نحوه وأَعجلوه عن مُراده، فخَرج من نيسابور بمن معه إلى أن وصل إلى القلعة القاهرة، فأمر السلطان

جلال الدين عند ذلك بإحضار ما في القلعة من الذهب فأحضر، وفرَّق أكياسه على من صحبه من خواصه، وفارَق القلعة القاهرة، وجَدَّ السير إلى تخوم بست، فأُعلم أن جنكزخان مقيمٌ بالطالقان بجيوش عظيمة، فخاطر بنفسه واستمر في السير، فبلغه أن أمين ملك وهو ابن خالة متولى هراة ومقطعها بالقُرب منه، وقد أخلى هراة ومعه نحو عشرة آلاف فارس، والأتراك الذين سلموا من النكبة، فبعث إليهم جلال الدين يَحثه على سرعة الوصول إليه، فلما التقوا اتفقا على كبس التتار المُحاصرين قلعة قندهار، فلم يَسلم من التتار إلا من أمكنه الهَرب إلى جنكزخان، وهو بالطالقان، فقامت قيامته [٦].

وأما جلال الدين فأتى غزنة، وبها نائبه كرير ملك، سنة ٦١٨هـ، فَسُرَّ الناس بوصوله، واتصل به: سيف الدين بغراق الخلجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية، والحسن قزلق. وهم في زهاء ثلاثين ألف فارس ومعه عسكرهم وعسكر امين ملك مثلها، فاجتمع عنده من الجيوش نحوا من ستين الفاً [٧].

الحرب بين جلال الدين وتولى خان

لما بَلغ جنكزخان ما حلَّ بعسكره بقندهار، جرَّد ابنه تولي خان في نحو اثني عشر ألفاً، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة، استقبله جلال الدين بموضع يُقال له بلق، فحَمل جلال الدين بنفسه على قلب تولى خان، فبدَّد نظامه، ودامت الحروب بينهم ثلاثة أيام، فانتصر المسلمون وانهزم التتار ثانياً، وألجأه جلال الدين إلى الانهزام، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وتَحكمت في التتار سيوف الانتقام، وقُتل تولى خان فيمن قُتل، وكَثُر الأسر في التتار، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان. وكانت التتار قد حاصرت قلعة ولج، فلما بلغهم ما حل بأولئك رَجعوا عنها، وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثيرٌ، فخلَّصوهم [٨].

الحرب بين جلال الدين وجنكيزخان بجردين

قام جنكيزخان بنفسه، لما علم بمقتل ابنه تولي خان، وعساكره لقصد حرب جلال الدين. واتفق أن العساكر الخلجية فارقوا جلال الدين في ذلك الوقت، صُحبة سيف الدين بغراق، وأعظم ملك، ومظفر ملك. بسبب اقتسام الغنائم التي أفاء الله عليهم بها، فاشمأزت لذلك نفوس العساكر الخلجية ونَفرت قلوبهم، وفارقوا جلال الدين، وسار أعظم ملك إلى الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفاً كلهم يُريدونه، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه، وذَكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه، فلم يَرجع، وسار مُفارقاً، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا [٩].

وعلم جلال الدين أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند، فعاجله جنكزخان عن إمضاء ما دبَّره، وكان جلال الدين قد أصابه قولنج شديد عند خروجه من غزنة، ففارق غزنة، فورد عليه الخبر أن مُقدمة جنكزخان نزلت بجردين، فرَكب ليلاً وكَبس المقدمة فقتلهم ولم يَفته إلا من نجا به فرسه. فلما بلغ جنكزخان هذا الخبر هاله، وجاء جلال الدين إلى مخيمه بحافة ماء السند [١٠].

حرب جنكيزخان وجلال الدين بماء السند

وصل جنكزخان إلى حافة ماء السند، وقبل أن يتم له ما يَسعى إليه من استرجاع الأمراء المنشقين عليه، وصلته الجيوش الجنكزخانية، فلقيهم جلال الدين وكان القتال شديداً، فحَمل جلال الدين بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه، وانهزم جنكزخان، لولا أن جنكزخان كان قد كمن كميناً فيه عشرة آلاف فارس، فخرجوا على ميمنة جلال الدين، فكسروها وطرحوها على القلب، فتزعزعت صفوفه، وانجلت المعركة عن قتلى وغرقى، الرجل يهوى بنفسه في تيارالماء، وهو يَعلم انه غريق لا محالة. وأُسر ولد جلال الدين ابن سبع أو سنين، فقُتل بين يدي جنكزخان [١١].

وانفض القتال، ورجع جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيرٌ رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يَصحن بأعلى أصواتهن: بالله عليك اقتلنا وخَلصنا من الأسر، فأمر بهن فغُرقن في ماء السند. وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين، فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال والحصون، وقتلهم أجمعين، وذلك أواخر سنة ٦١٩هـ. ١٢٢٢م [١٢].

رجُوع التتار إلى غزنة بعد هروب جلال الدين

لما كان من الغد على عبور جلال الدين نهر السند. عاد التتار إلى غزنة، فملكوها من ساعتهم، لخلوها من أي كدافع. فقتَلوا أهلها. ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم فألحقوهن بخُرسان. وخرَّبوها وأحرقوها وقتلوا. وفعلوا بسوادها كذلك، فأصبحت تلك الأعمال جميعهاً خراب. فظلت خالية من السكان خمس سنوات [١٣].

بعد سقوط غزنة وما حولها، وكان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية، وآخر حصون الخوارزميين التي غزاها المغول في عهد الخليفة العباسي، الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، عند ذلك فكر في العودة إلى بلاده، ولكنه قبل الرجوع إلى منغوليا قضى فترة ليست بالقصيرة، يجوب الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية. ونصَّب بعض المدنيين على بعض البلاد التي خضعت له، وفي ربيع الأول سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م. عزم على الرجوع إلى منغوليا عن طريق بلاد الهند وهضبة التبت. وقد أكد سيطرته على المناطق الإسلامية ما بين الصين والعراق، وكل بقاع الدولة الخوارزمية. وهذا يشمل الآن:

١ - كازخستان، ٢- قيرغيزستان، ٣- طاجيكستان، ٤- أوزبكستان، ٥- تركمنستان، ٦- باكستان، باستثناء المناطق الجنوبية فيها والمعروفة بإقليم كرمان، ٧- افغانستان، ٨- معظم إيران، باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق، والتي يسكنها الإسماعيلية، ٩- أذربيجان، ١٠- ارمينية، ١١- جورجيا، ١٢- الجنوب الغربي لروسيا [١٤].

السيطرة على إقليمي خوارزم وخُرسان

حصار مدينة خوارزم

كان جنكيزخان بعد أن اطمأن إلى هروب محمد بن خوارزم شاه زعيم البلاد في اتجاه الغرب، وانتقاله من مدينة إلى أخرى هرباً من الفرقة التترية المغربة، المُطاردة له، ثم غياب أخباره تماماً، بدأ جنكيزخان يَبسط سيطرته على المناطق المحيطة بسمرقند، وعلى الأقاليم الإسلامية الضخمة الواقعة في جنوب سمرقند وشمالها.

وقد وجد جنكيزخان أن أعظم الأقاليم وأقواها في هذه المناطق، هو إقليم خوارزم، وإقليم خُراسان.

أما إقليم خُراسان فإقليم شاسع، به مدن عظيمة، مثل: بلخ ومرو ونيسابور وهراة وغزنة وغيرها، وهو الواقع الآن في شرق إيران وشمال أفغانستان، وخوارزم، هي المكز، وهي مستقر عائلة خوارزم شاه، وبها تجمع ضخم جداً من المسلمين، وحصونها من أشد حصون المسلمين بأساً وقوة، وهي تقع مباشرة على نهر جيحون، وكانت تمثل للمسلمين قيمة اقتصادية واستراتيجية وسياسية كبيرة [1].

وإقليم خوارزم هو نواة للدولة الخوارزمية، ويقع شمال غربي سمرقند، ويمر به نهر جيحون، وهو الآن في دولتي أوزبكستان وتركمنستان. ولكن جنكيزخان قبل اجتياح هذه الأقاليم، أراد القيام بحرب معنوية أولاً، فبدء في عمليات إبادة وتدمير تبث الرعب في قلوب المسلمين من سكان الإقليمين الكبيرين خوارزم وخُراسان، فأخرج من جيشه ثلاث فرق:

فرقة أولى: لتدمير إقليم فرغانة، وموقعه الآن في أوزبكستان، على خمسمائة

كيلومتر شرق سمرقند. وفرقة ثانية: لتدمير مدينة ترمذ وموقعه الآن تركمنستان، على مائة كيلومتر جنوب سمرقند. والفرقة الثالثة: لتدمير قلعة كلابة، وهي من أحصن قلاع المسلمين على نهر جيحون [٢].

وقد قامت الفرق الثلاث بدورها التدميري كما أراد جنكيزخان، فاستولت على كل هذه المناطق، وأَعملت فيها القتل والأسر والسبي والنهب والتخريب والحرق، مثلما اعتادوا أن يَفعلوا في الأماكن الأُخرى، ووصلت الرسالة التترية إلى كل الشعوب المحيطة: التتار طُلاب دماء وخراب وتدمير، وأنهم لا يُهزمون. وكانت هذه رسالة كافية لإيقاع الرعب، ونسف أي نية للمقاومة في قلوب الجيوش النظامية لتلك الدول، علاوة على المقاومات الشعبية لها.

وعندما تم ذلك، بدأ جنكيزخان في مشروع دولته الكبرى. فبدأ يُعدُ لاجتياح إقليمي خُراسان وخوارزم [٣].

استعدادات القوات المغولية

كانت الجيوش المغولية تحت قيادة جوجي وأغتاي من أبناء جنكيز خان، ولكن القيادة العُليا كانت في يد جوجي اكبر ابنائه، كما سيَّر معهم كبار قادة المغول: طولون جربي، واستوان نوين، وقاضان نوين. وكان أول من وصل إلى خوارزم منهم، باجي بك في عسكر كثيف، فقوي لمغول برجالهم وبمؤازرة جنكيز خان لهم، أما الجيوش الخوارزمية، فلا داعم لهم، بعد فرار جلال الدين منكبرتي وأخواه، علاوة على أن غالبية هذه الجيوش من قبيلة كانكالي التركية، وهي تُعدو من الجيوش المرتزقة التي لا يُهمها في كثير أو قليل أن تُدافع عن الأراضي الخوارزمية، أو تحافظ عليها، وصلت القوات المغولية إلى المدينة فطَلبوا من أهلها التسليم، وأعلن لهم جوجي أن اباه أعطاه إقليم خوارزم ليحكمه، وأنه حَريصٌ على أن يحفظ حاضرة هذا الإقليم من التخريب، كما أخبرهم انه حذَّر جنوده من أن يمسوا هذا الإقليم بأذى، وكان السلطان المتوفى علاء الدين خوارزم شاه، قد حذر أهالي هذه المدينة من محازلة المقاومة، صوناً لأرواحهم [٤].

إلا أن السكان انقسموا إلى معسكرين: فريق يرى التسليم، وفريق يَرى المقاومة، وقد انتصر أصحاب الرأي الثاني ووقفت المدينة موقف الدفاع، ولما علم المغول بعزم الخوارزميين على المقاومة نَصبوا حول المدينة آلات الحرب، ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة فقيرة من الأحجار، التي يحتاج إليها المغول في أعمال الحصار ليقذفونها على المدينة، قاموا باقتلاع عدداً كبيراً من أشجار التوت وقطّعوا سيقانها، واستطاعوا بعد ذلك أن يستعملوها في مجانيقهم [٥].

الهجوم الأول للقوات المغولية على خوارزم

لما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية، قام ثلاثة آلاف منهم بالهجوم على المدينة، بينما كان قد شب خلاف نشأ بين جوجي وجغتاي ابني جنكيز خان، فكان النصر في هذه الهجمة حليف الخوارزميين، فساعد ذلك على تقوية روحهم المعنوية، ورغم هذا النزاع، استمر حصار هذه المدينة ستة أشهر، أرسلت قوات المغول في خلالها إلى جنكيز خان، وكان إذ ذاك أمام مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون، يَطلبون المدد.

فأرسل لهم جنكيز خان المدد، وأمر بإسناد قيادة الجيش إلى ابنه الثالث أجتاي، وأمره أن يُصلح من أمر اخويه، فأمر القائد الجديد جُنده بالهجوم على المدينة، فاستطاعوا أن يخترقوا أسوارها، ثم أشعل المغول النار في منازل المدينة ومبانيها بعد دخولها، وعلى الرغم من اختراق حصون المدينة، أصر الخوارزميون على الدفاع عن انفسهم ومدينتهم، وساهم النساء والأطفال في هذا الجهاد [٦].

تدمير خوارزم وأبادة أهلها

لما رأى قائد الجيوش المغولية إصرار الخوارزميين على المقاومة، ساق إليهم، وأخذ يطويها محلة محلة، فكلما أخذ واحدة منها التجأ الناس إلى أخرى، وهم يحاربون أشد حرب إلى ان أعضل الأمر، واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، وأخيراً وجد السكان انفسهم قد تجمعوا في أحياء ثلاثة ازدحمت بهم، فأرسلوا إلى دوشي خان الفقيه علاء الدين الخياطي محتسب

خوارزم [٧].

وقال القائد المغولي غاضباً لقد أفنوا رجالي، وسأُريهم هيبتي. وأَمرَ بإخراج الناس من أهل البلد، ونودي فيهم بانفراد أرباب الصنائع على حدة، فمنهم من فَعل ونجا، ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف تُساق إلى بلادهم، وغيرهم يُترك في وطنه فلم يَنفرد، ثم وُضِع السيف في العامة من أهل خوارزم، فقُتلوا جميعاً [٨].

ودار القتل على أشده فيهم، وبدأ المسلمون في الهروب والاختفاء في السراديب والخنادق والديار، فقام التتار بهدم سد ضخم كان مبنياً على نهر جيحون، يمنع الماء عن المدينة، فأغرق المدينة بكاملها، ودخل الماء في كل السراديب والخنادق والديار، وتهدمت ديار المدينة ، فلم يسلم من المدينة أحد، ومن نجا من القتل قُتل تحت الهدم أو أغرق بالماء، وتركها التتار وقد اختفت من على وجه الأرض، وأصبح مكانها ماء نهر جيحون، ومن مر على المدينة لا يَستطيع أن يرى أثراً لحياة سابقة، وكانت هذه الأحداث الدامية أيضاً في عام ٦١٧ من الهجرة!! ثم عاد التتار إلى جنكزخان وهو بالطالقان [٩].

اجتياح التتار لخُراسان

كان جنكزخان لما جهز هذه الطائفة المغرِّبة، وسيرهم إلى خوارزم شاه، وبلغه انهزام خوارزم شاه من خراسان، قسَّم جيوشه إلى عدة اقسام، جهَّز طائفة إلى بلاد فرغانة، وطائفة إلى ترمز، وطائفة إلى كلانة، وهي قلعة حصينة إلى جانب جيحون، فسارت كل طائفة إلى الجهة التي امرت بقصدها ونازلتها، واستولت عليها، وفعلت من القتل والنهب والأسر والسبي والتخريب وأنواع الفساد كما فعل اصحابهم. فلما فرَغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان، وهو مقيمٌ بسمرقند، فجَهز جيشاً إلى خوارزم مع أحد أولاده، وجَهز جيشاً آخر فعبروا نهر جيحون إلى خراسان [١].

اجتياح التتار لإقليم خراسان

خُراسان Khurasan

إقليم واسع وممتد، يقع حاليًا في الشرق والشمال الشرقي لإيران، وخُرسان تسمية قديمة كانت تشمل بلادًا واسعة، منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وبخارى وغزنة وخوارزم. وكلها بلاد تَدخل تحت بلاد فارس وأفغانستان والتركستان، وكانت هذه البلاد منضمة إلى خراسان قديمً، ويجمعها هذا الاسم، وقد دَخلت كلها في الإسلام في القرن الأول الهجري. ومساحة بلاد خُراسان واسعة، وكانت تشتمل على عدة مراكز ثقافية مهمة، لعبت دورًا كبيرًا في خدمة الإسلام والحضارة الإسلامية.

معظم سكان خُراسان من المسلمين، ينتسب أكثرهم إلى المذهب الشيعي، وبها قِلة من المسيحيين والأرمن واليهود. وينتمي إلى خُراسان بعض علماء الإسلام

المشاهير منهم: الإمام البخاري والإمام مسلم، والبيروني والنيسابوري وابن سينا والغزالي والإمام الجويني والخوارزمي والثعالبي. وغيرهم كثيرون [٢].

اجتياح مدينة بلخ وما حولها

صدرت الأوامر إلى تولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خُراسان، في خريف عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠/ ويبدو أن جنكيز خان كان ينوي غزو هذا الإقليم بنفسه، فقد عَبرَ إلى الضفة الغربية لنهر جيحون، وسار إلى مدينة بلخ، إحدى المدن الغنية الواقعة على الضفة الغربية لنهر جيحون [٣].

وبلخ إحدى مدن دولة أفغانستان الحالية، تقع قريبًا من منطقة مزار شريف، في شمال أفغانستان، وجنوب مدينة ترمذ التي دمرها التتار منذ أيام قلائل، وقد فُتحت هذه المدينة في خلافة عثمان بن عفان، بقيادة الأحنف بن قيس. وتَرجع شهرة هذه المدينة إلى أنها كانت من أمهات المدن الخوارزمية، فضلاً عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا، وكانت هذه المدينة عامرة بمبانيها الآهلة بسكانها، حتى قيل أنه كان بها الف ومئتان من المساجد الكبيرة، ومثلها من المساجد الصغيرة، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يَفِدون على المدينة.

ولم تكن مدينة بلخ مُحصنة، لذا ففي أوائل سنة ٦١٨ هـ /١٢٢١م، لما وصلوها بقيادة تولوي، طلب أهلها منهم الأمان، فأمنهم، وتسَلّم البلد في محرم من سنة ٦١٧هـ، ولم يَتعرضوا له بنهبٍ ولا قتل، بل جَعلوا فيه حامية تحكم باسمهم، وعندما مرت الأيام طلب جنكيز خان من أهل بلخ أن يَخرُجوا معه ليعاونوه في فتح باقي مدن خُرسان، وبالفعل خرج أهلها معه لمحاربة أهل مرو الإسلامية [٤].

وتوقف جنكيز خان عن الزحف عند هذه المدينة، وقام بإرسال ابنه تولوي لاستكمال الاستيلاء على مدن وقُرى خُراسان، على رأس جيش مكون من سبعين ألفاً، ويبدو أن جنكيز خان رسم خطته الحربية على أساس تأمين أملاكه وجيوشه في هذه النقطة، ومنها تخرج الجيوش إلى نواحي الإقليم [٥].

فقصدوا الزوزان، وميمند، وأندخوي، وقاريات، ولم يتعرضوا لهم بسوء، بل كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا معهم، حتى وصلوا إلى الطالقان، وفيها قلعة حصينة يُقال لها منصوركوه، فحصروها مدة ستة أشهر يُقاتلون أهلها ليلاً ونهاراً. فأرسلوا إلى جنكيزخان يُعرفونه، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم، فأقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلقٌ كثير، فأمر أن يُجمع له من الحطب والأخشاب، حتى وازي القلعة، وصعد الرجالة فوقه ونصبوا المنجنيقاً، فهرب الخيالة من أهل البلد، ودَخل التتر القلعة ففعلو كل الجرائم [٦].

اجتياح مدينة مرو وإهلاك أهلها

مرو مدينة كبيرة جداً في ذلك الوقت، وتقع الآن في دولة تركمنستان المسلمة، على بُعد أربعمائة وخمسين كيلومترًا تقريباً غرب مدينة بلخ الأفغانية، جَمعَ لهم جنكيزخان أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان، كببلخ وغيرها، وكان جيشاً هائلاً، فلما وصل التتار إليهم التقى والقوات المتجمعة خارج المدينة واقتتلوا، فصَبر المسلمون، وأما التتار فلا يَعرفون الهزيمة، ولم يصبر المسلمون فا نهزموا، ودارت الدائرة على المسلمين، فَقَتَل التتار منهم وأسروا الكثير، ولم يَسلم منهم إلا القليل [٧].

وفي اليوم التالي أول محرم سنة ٦١٨هـ- ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١م، سار تولي خان في خمسمائة من الخيالة لاختيار حصون المدينة، وأرسل ابن جنكزخان لجمع الرجال لحصار مرو، ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش المغولية، حول مدينة مرو وحصروها، وجَدوا في حصرها، ولم تفتحوا الأبواب للتتار مدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس أرسل تولوي ابن جنكيزخان رسالة إلى قائد مدينة مرو يطلمئنه، وكان أهل البلد قد ضعفت نفوسهم بانهزام ذلك العسكر، فخرج إليه قائد المدينة، واسمه:مدير الملك [٨].

فطلب منه أحضار كبراء المدينة وأعيانها، ليخلع عليهم، فأرسل مدير الملك في استدعاء معاونيه وكبار وزرائه وجنده، ولما حضروا إلى معسكر المغول ربطهم

تولوي بالحبال(ومعهم مدير الملك، وطلب منهم أن يعدوا له قائمتين طويلتين بكلار التجار، والحرفيين [٩].

فلما حصل ما أمر به، جلس تولوي، وأمر بالآتي:

١- أن يأتوا بأمير البلاد وب ، قتل كبار القادة والرؤساء جميعاً أمام عامة أهل البلد.

٢- إخراج أصحاب الحِرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا.

٣- إخراج أصحاب الأموال وتَعذيبهم ليقروا بأموالهم.

٤- دُخُول المدينة وتَفتيش البيوت لمدة ثلاثة أيام.

٥- أمرَ بقتل أهل البلاد أجمعون، الرجال والنساء والأطفال [١٠].

احتلال نسا والقضاء على أهلها

كانت طلائع جيش تولوى قد تقدمت إلى خُراسان في أواخر سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م، وما إن اقتربوا منها حتى سلّط المسلمون سهامهم عليهم. فقُتل عدد كبير، كما قُتل توجاشر قائد هذه الكتيبة. ثم وصل تولوي بجيوشه. فأمر بأن يُنصب حول المدينة عشرون منجنيقاً.

وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يُحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً، ولما طلع النهار بدأوا يثأرون لمقتل القائد بلجوش. فأخرجوا جميع السكان، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسعة، كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة، بالصغار والنساء. والضجيج يشق جلباب السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا، وأَمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر. كما أُمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره، ثم قَتل المغول جميع النساء والرجال والأطفال، حتى قِيل إن عدد من قُتل من سكان هذه المدينة بلغ أكثر من سبعين ألفاً [١١].

الانتقام من أهالي مدينة نيسابور

وبعد مقتل أهالي مدينة مرو، تحرك تولوي إلى مدينة نيسابور، سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، ونيسابور مدينة كبيرة أخرى من مدن إقليم خراسان، وهي من أحصن البلاد الإسلامية، على مسيرة اثني عشر يوماً من مدينة مرو. وكانت مدينة كبيرة جداً كذلك، وهي تقع الآن في الشمال الشرقي لدولة إيران، والشمال الغربي لأفغانستان، واتجه إليها التتار بعد أن تركوا خلفهم مدينة مرو، ومذبحة نسا، وقد خُرِّبتا تماماً، وأراد تولوي أن يثأر لموت توجاشر، الذي قُتل أمام أسوار مدينة نسا، عندما حاول الاستيلاء عليها قبل وصول تولوي بجيوشه، ولما رأى الأهالي وقواد الجيوش الخوارزمية، كثرة الجيوش المغولية، فقَدوا رباطة جأشهم، وأرسلوا نواباً عنهم، وعلى رأسهم قاضي القضاة في خراسان إلى المغولي، فعَرضوا على تولوي التسليم، ودفع ضريبة سنوية، ولكن تولوي رفض [١٢].

وفي اليوم التالي تفقد تولوي جنده، حتى إذا ما حل اليوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨هـ/٧ أبريل سنة ١٢٢١م أمر بمهاجمة مدينة نيسابور من كل مكان، ثم استطاع المغول أن يخترقوا الحصون آخر اليوم، وأصبحت شوارعها ومنازلها مسرحاً للحروب، وتمكن المغول من احتلال مدينة نيسابور، وأخذوا يثأرون بمقتل القائد توجاشر زوج ابنة جنكيز خان، فقَتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يَتْركوا حتى القطط والكلاب. وقد رأى تولوي بعض السكان يَلتمسون النجاة بالرقاد بين جثث القتلى، فأَمر بقطع جميع رؤوس القتلى وعزلها في جانب آخر، ولم يُبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم، [١٣].

خضوع مدينة هراة

بعد الإجهاز على نيسابور، سار الجيش المغولي إلى مدينة هراة، إحدى مدن خراسان الهامة، ووجه قائده، وهو في طريقه إليها، طائفة من جنده إلى مدينة طوس فدمرتها [١٤].

وأرسل تولوي عندما وصل مشارفها ينذر أهلها بالتسليم فقتلوا رسوله، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم، وبعد حصار دام عشرة أيام، وقيل ثمانية أيام فقط، طلب أهلها التسليم على أن يُؤّمن المغول حياتهم، ووافق تولوي، قَتل منهم نحو اثني عشر ألفاً، ثم ولى عليها حاكماً عسكرياً مسلماً، وغادرها الطالقان، وسرعان ما ثارت هراة على الحكم المغولي على إثر انتصارات جلال الدين منكوبرتي على المغول في إقليم غزنة، فعاودها التتار ففتحوها عنوة، فاحرقوها [١٥].

وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سقط بكامله في أيدي التتار، ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة [١٦].

الأحداث حتى وفاة جنكيز خان

في سنة ٦٢٠هـ، توغل المغول في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة، ولكنهم في نهاية التقوا بطائفة من الروس تُدعي طائفة البلغار وهي في: روسيا وليست في بلغاريا، فهُزم التتار للمرة الأولى في هذه المناطق، وقُتل منهم خلق كثير، وتوقف الزحف التتري في ارض روسيا، بل وقلت أعدادهم حتى فَقَدوا السيطرة على غرب بحر قزوين:روسيا وجورجيا وأرمينيا والشيشان وداغستان وأذربيجان وشمال إيران. وكانت فرصة للمسلمين لترتيب صفوفهم، ولك لم يحدث بل ذهبوا لقتال بعضهم، أو اكتساب عداوات مع مجتمعات أخرى غير التتار [١].

ونتيجة لانهزام التتار في هذه المنطقة ظهر أحد أولاد محمد بن خوارزم في منطقة شمال إيران، وهو غياث الدين بن محمد بن خوارزم شاه، وهو أخو جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه الهارب في الهند. فجمع الرجال وتملك هذه المنطقة، وسيطر على مدن الري وأصبهان، وحتى إقليم كرمان، في جنوب إيران، وصارت مناطق شمال وغرب وجنوب إيران بيده، [٢].

أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران، وهي إقليم خُراسان بكامله، فكانت تحت سيطرة التتار. وبذلك يُصبح غياث الدين بمثابة حائط صدٍ بين التتار والخلافة العباسية. ولكن الخليفة العباسي الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، بدلاً من ان يُساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين، فليكن بسبب الأبعاد الاستراتيجية الهامة في هذه المنطقة. فهو يُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد. وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث

الدين فستكون المحطة الثانية هي الخلافة العباسية.

لقد كان الخليفة العباسي يعاني هو الآخر من الحول السياسي. وانعدام الوعي، الذين نعانيهما في تلك الأيام من حكامنا الذين سقط منهم من سقط، وستقع البقية الباقية إن شاء الله، إلا من استوعب الدرس، وعمل بما أوجب عليه الله، لقد كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله كما وصفه المؤرخون: رجلاً ظالماً مستبداً، فرض المكوس والضرائب على كل شعبه، في كل ازمة اقتصادية يَفرض ضريبة جديدة، ويَعتمد في الخروج من الأزمة على قوت الشعب وكدِّه وكدحه.

كما اهتم بالحفلات والملذات والصيد واللعب. وعمَّ الفساد في زمانه، وارتفعت الأسعار، وقلَّت المواد والمؤن. كما كان يفتقر إلى النظرة العميقة والفهم الثاقب للأحداث، بل وللضمير الحي تجاه شعبه وربه، فلم يكن أبداً على مستوى الأحداث الضخمة التي حدثت في زمانه [٣].

عود طائفة من التتر إلى الري وهمذان

في أول سنة ٦٢١هـ، وصل طائفةمن التتار، وهؤلاء غير الطائفة الغربية، وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها، فلم يَشعوا بالتتار إلا وقد وصلوا إليها، فقَتلوهم كيف شاؤوا، ونَهبوا البلد وخرَّبوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، (جنوب طهران الآن)، فدمروهما، وكانتا قد سلِمتا من التتار اولاً، فإنهم لم يَقربوهما، ولا اصاب اهلهما اذى، فأتاهما هؤلاء فمَلكوهما، وقَتلوا أهلهما، وخرَّبوها. ثم ساروا يُخربون ويَقتلون ويَنهبون، ثم قَصدوا همذان، فأبَادوا من اجتمع بها من أهلها، قتلاً وأسراً ونَهباً، وخرَّبوا البلد [٤].

وكانوا لما وصلوا إلى الري رأوا بها عسكراً كثيراً من الخوارزمية، فكبسوهم وقَتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يَشعروا إلا والتتار أيضاً قد كبسوهم فولوا منهزمين، ووصل طائفة من التتار إلى تبريز،

وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان، فطلبوا منه تسليم من عنده من الخوارزميين، أو إعلان عداوته للتتار، فعمد إلى من عنده منهم فقَتَلَ بعضهم وأَسر بعضهم، وحَمل الأسرى والرؤوس، والأموال والهدايا إلى التتار، فكفوا عنه وعادوا إلى بلاد خراسان. وكان هذه القوة المغولية ثلاثة آلاف فارس فقط، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف راجل، وعسكر أوزبك أكثر من ذلك، ومع هذا فلم يُحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم [٥].

وفي السنتين الأخيرتين، ٦٢١، ٦٢٢هـ، خفت قبضة جنكيز خان على غرب الدولة الخوارزمية (غرب وشمال إيران)، واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة، واهتموا بتوطيد مُلكهم، وتثبيت أقدامهم في شرق الدولة الخوارزمية في مناطق نهري سيحون وجيحون، وفي شمال أفغانستان وشرق إيران [٦].

ماذا فعل جلال الدين

لقد تعذر على جلال الدين المقام ببلاد الهند، وقد دخلها سنة ٦١٧ هجرية، وعاد بعد مُقامه بها خمس سنوات،وكان التتار قد تركوا منطقة فارس نسبياً، وأن جنكيزخان عاد لمعالجة بعض الأمور في بلاده، وتَرك زعيماً غيره على جيوش التتار، وأن أخاه غياث الدين قد سيطر على معظم أجزاء فارس، بعد ان تقاتل مع سعد الدين بن دكلا، واتفقا في النهاية على تقسيم فارس بينهما، وكان النصيب الأكبر لغياث الدين، وتم ذلك في سنة٦٢١ هجرية.

سار جلال الدين إلى كرمان، وعبر نهر السند ودَخل إقليم كرمان جنوب باكستان، ووصل إلى أصفهان، وهي بيد أخيه غياث الدين فملكها، ثم تجاوزه إلى جنوب فارس (جنوب إيران)،وكان أخوه قد استولى على بعضها أيضاً، فأعادها إلى أتابك سعد الدين بن دكلا صاحبها،وتحالف معه ضد أخيه غياث الدين. وسار من عنده إلى خوزستان، فحاصر مدينة تستر في المحرم وبها مملوك الخليفة الناصر لدين الله، فحصره جلال الدين، وضيَّق عليه، وتفرَّق الخوارزمية ينهبون، حتى وصلوا إلى بادرايا وباكسايا وغيرهما، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة،

فنهبوا هنالك، فسار إليهم شحنة البصرة، وهو الأمير ملتكين، فأوقع بهم، وقَتل منهم جماعة، فدام الحصار نحو شهرين، ثم رحل عنها بغتة [٧].

فلما رَحل جلال الدين، سار إلى أن وصل إلى بعقوبا، بطريق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار، وأصلحوا السلاح من الجروخ، والقسي والنشاب، والنفط، وغير ذلك، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد،وخاف الخليفة العباسي الناصر لدين الله على نفسه، ولكن لم يكتف بذلك بل أرسل إلى التتار يستعين بهم على حرب جلال الدين! ولم ينظر للعواقب [٨].

وفي هذه الفترة بسط جلال الدين سيطرته على مملكة الكرج النصرانية، بعد أن أوقع بهم هزيمة فادحة، واصطلح مع أخيه غياث الدين صُلحاً مؤقتاً، أمثل بصلح الذِّئاب، وبلغ سلطان جلال الدين من جنوب فارس إلى الشمال الغربي لبحر قزوين [٩].

وفي آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفى الخليفة الناصر لدين الله، بعد أن حكم البلاد سبعة وأربعين عاماً متتالية، وكان قبيح السيرة في رعيته، فقد خرَّب العراق، وظلم أهله، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وطفف لهم في المكاييل، وفَرض عليهم الرسوم الجائرة، والأحكام الظالمة، وفوق كل ذلك فهو متهم بشدة بمراسلة التتار، ومحاولة التعاون معهم ضد المسلمين [١٠].

وفي الرابع عشر من رجب، سنة، ٦٢٣هـ، توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين، فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان نعم الخليفة، كان رجلاً صالحاً تقياً أظهر من العدل والإحسان ما لم يُسبق إلا عند القليل، [١١].

وتولى الحكم بعده المستنصر بالله، حتى سنة ٦٤٠هـ، وفي هذه الأثناء كان جلال الدين خوارزم شاه يستمر في حروبه في هذه المنطقة، ليس مع التتار، ولكن مع المسلمين! وكان من أبشع ما فَعل هو حصاره لأهل خلاط، أو أخلاط، وهي مدينة مسلمة في شرق تركيا الآن، فقد قتل منهم خلقاً كثيراً [١٢].

وفاة مؤسس الدولة المغولية جنكيز خان

في عام ٦٢٤، وقيل ٦٢٥هـ، توفي جنكيزخان، عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة، ملأها بالقتل والذبح وسفك الدماء والسلب والنهب والتخريب، وبنى خلال فترة حكمه مملكة واسعة من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب. بُنِيت هذه المملكة على جماجم البشر، وعلى أشلائهم ودمائهم. ومعظمهم من المسلمين. وبموت جنكيزخان هدأت الأمور نسبياً في هذه المنطقة، واحتفظ التتار بما ملكوه من بلاد المسلمين إلى وسط إيران تقريباً، بينما كان جلال الدين يَبسط سيطرته على المناطق الغربية من إيران، والمناطق الغربية من بحر قزوين. ورضي كل طرف بما يملك [١].

وقد أمضى جنكيز خان شتاء عام ١٢٢٥ إلى ١٢٢٦م، والصيف التالي في مقره العام، عند نهر تولا من إمبراطوريته الكبيرة، وكان مُحاطاً بِرفاق موثوقين، كالوا له المديح. وشكرهم على عونهم له، حتى حقق هذا المجد، وفتح تلك البلاد [٢].

كان جنكيز خان يصر على معاقبة ملك الطانغوط عاهل شي . شيا (أوهسي . هسيا) المتاخمة للتيبت، لرفضه إرسال جيشه للاشتراك في الحرب ضد خوارزم، فحشد له الجيوش المغولية عام ١٢٢٥ إلى ١٢٢٦م، كل جيوشه ضد الطانغوط، ولقد كانت لدى جنكيز خان الأسباب الوجيهة التي تدعوه إلى إخضاع تلك المنطقة، وكان صينيو إمبراطورية كين الذهبية، بعد مغادرة جنكيز خان للصين استرجعوا قسماً كبيراً من أقاليمهم.

ولكن العوامل الجغرافية تَجعل من الصعب، توجيه ضربة مميتة إلى الصينيين الذاهبيين، لذا لم يلجأ لتحقيق هذه المهمة إلى أي من جنرلاته، قاد

الجيش بنفسه، رغم تقدم سنه، وبدأت الحرب في خريف عام ١٢٢٥ إلى ١٢٢٦م، وكانت البداية ناجحة، لولا أن جمح جواد جنكيز خان مرعوباً ببعض الخيول المتوحشة فألقى بالخان المغولي أرضاً، وأصيب جنكيز خان ومرض، ولكنه رفض الرجوع إلى بلاده، خشية أن يظن الطانغوط خوفهم منهم، وبقي مكانه للعلاج والشفاء، وقد وُجِّهت إلى ملكة طانغوط الرسالة التالية: وعدت بأن تكون يدي اليمنى، ولكنك رفضت أن تَذهب معي إلى محاربة الخوارزميين، وأضفت الإهانة إلى هذا العصيان، والآن وبعد أن افتتحت بلاد خوارزم فقد جئت أطلب منك تَرضية، وكان رد العاهل الطنغوطي على هذه الرسالة عبارات تحقير وإهانة [٣].

في النصف الأول من شهر رمضان. سنة٦٢٤هـ وقيل في سنة ٦٢٥هـ، في فصل الشتاء. حَضرت جنكيز خان الوفاة، فطلَب إخوته وهم: أوتكين وبلكوتي ونوين والحاي نوين ووكوب ووكابي، وحَضر من أولاده جغطاي وأوكتاي، فكَتب لهم وصية وقال امتثلوها بعدي، وإذا أنا مت وجَاء وقت الربيع تجمعوا كلكم، وتُعمل وليمة عظيمة ثم تُقرأ هذه الوصية بحضوركم، ويُنَصب في الملك من عينته فيها، وامتثلوا أمره، ثم فرِّقهم في مشاتيهم التي قررها لهم.

فأوصاهم أن يخلف ابنه أوكتاي لمزية رأيه المتين، وعقله الرزين، فجَعله ولي عهده، فوافقوا على اختياره، وجاء نَص وصيته لأولاده: اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة، ودنا أجلي، وأنا بقوة الآلهة والتأييد السماوي، استخلصت مملكة عريضة بسيطة، بحيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم. يا أولادي فهيأتها لكم، فوصيتي لكم أنكم تشتغلون بعدي بدفع الأعداء ورَفع الأصدقاء وتكونون جميعاً على رأي واحد، حتى تعيشوا في نعمة ودلال وتتمتعوا بالمملكة [٤].

وهناك في أقليم كان سو الصيني الحديث، غير البعيد من مدينة تسن جو، أسلم جنكيز خان الروح في النصف الأول من رمضان، عام ٦٢٤هـ الموافق اغسطس ١٢٢٧م، وقد حُمل جثمانه إلى منغوليا، ودُفن في المنطقة التي يَخرج منها نهر أونون وكورلين، وبقي موضع الدفن سراً من الأسرار كما هي عادة المغول [٥].

ما بعد جنكيز خان

أسرة جنكيز خان وأحفاده

كان لجنكيز خان من الأولاد تسعة عشر ولداً، من امرأة واحدة، وهي تسوجي خاتون، وقيل: يَسُونجين بَيْكي، منهم تلي خان وهو طلوخان، وهو الأكبر، وكان نصيبه، البلاد الواقعة بين نهر ارتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وكانت تلك البلاد عامة لقبجاق، ويُطلق عليه إسم القبيلة الذهبية، نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، وكان غالب أهلها من الأتراك والتركمان [١].

وهو الذي قُتل في سنة ٦١٧هـ، في الحرب التي كانت بينه وبين السلطان جلال الدين منكوبرتي. وكان جنكزخان قد فوَّض لابنه تلي خان ترتيب العساكر والجيوش، وتدبيره في المقام في مشتاه ومصيفه، فقُتل قبل تمام الفتوح. وكان لتلي خان من الأولاد منكوقان، وهو الذي استقر في القانية بعدُ، وهولاكو واريق بوكا، وقبلاي، وهو الذي جلس على تخت القانية بعد منكوقان، واستقرت القانية فيه وفي بنيه من بعده إلى آخر وقت ومنهم دوشي خان بن جنكيز خان، وغيرهم من سكان البلاد الشمالية. واستقر مُلك هذه البلاد بيده، ثم بيد باطوخان بن دوشي خان، ثم في صرطق بن دوشي خان، ثم في أولاد باطوخان واخوته [٢].

ومن أولاد دوشي خان بن جنكيزخان: أرديوا وهو صاحب غزنة وباميان. وقد قيل إن أرديوا بن جنكيزخان، وكان جنكزخان قد جَعل وظيفة دوشي خان ترتيب الصيد، وهي عندهم أكبر المراتب، وعَيَّن له من البلاد والمياه لمشتاه ومصيفه حدود قيالق وبلاد خوارزم إلى أطراف سقسين وبلغار، إلى حيث ينتهي الفتح [٣].

ومنهم أوكتاي خان بن جنكيزخان، وهو الذي جَلس على تخت القانية بعد وفاة أبيه جنكيزخان، وكان جنكيزخان قد جَعله مُشيره وصاحب الرأي، وهو قد

نـال قسـماً يقـل عـن نصـيب إخوتـه، وكـان ينحصـر في منـاطق جبـال تـار باجـاي، وأطراف بحيرة الاجول وحوض نهر اليميل الذي يَصب في تلك البحيرة ويَقع غربي منغوليا. وجُعله ولي عهده من بعده، وعَهد إليه أنه إذا انتهى الملك إليه، أن يُعطي ما بيده من البلاد لولده كيوك خان، ثم يتحول إلى مستقر الملك من بلاد الخطا والأيغور بقرا قورم وغيرها [٤].

ومنهم جغطاي بن جنكيزخان، كان أبوه قد فوَّض إليه مهمات السياسة والحكومة للياسا واليرغو، وجَعل له من البلاد للمراعي والمشاتي والمصيف، من حدود بقاع الأيغور وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنه. وما يتاخم ذلك من البلاد. وكان مُقامه قبل ذلك بقرب المالق وما يليها.

فهؤلاء الأربعة هم المُشار إليهم من أولاد جنكيزخان، وله غير هؤلاء منهم أورخان، وكلكان، والغوانوين، وجورجاي، وأولطاي خان. وأرديوا، وقد اختلف في شأنه، هل هو ابن جنكيزخان أو ابن دوشي خان. ومن أولاده: مغل بن جنكزخان. وقد عين جنكزخان أيضاً لأخوته وأقاربه اماكن من مُلكه، فاستقرت حالهم على ما قرره لهم، وكان قد خالف جنكيزخان من قبائل التتار أويرات [٥].

تعيين الخان الأعظم للمغول

لم يكن المغول يَعرفون البلاط والعاصمة في بداية أمرهم، لذا فلم تكن لديهم مراسم محددة للتتويج، ولا مظاهر الاستقبال الرسمي والمجلس الملكي العام، بل كانت مراسم هذه الرسميات تتسم بالبساطة، وبعد وفاة جنكيز خان، ظل العرش خالياً من ملك، وكان قد كتب وصيته قبل وفاته بمحضر إخوته وبعض بنيه، وقرر معهم أن يُعملوا بها بعده، وأمرهم أنه إذا دخل فصل الربيع يجتمع إخوته وأولاده، والخواتين والأمراء، وأن يذبحوا الذبائح ويقيموا الأفراح أربعين يوماً، من حين اجتماعهم، ثم تُقرأ وصيته ويُعمل بمقتضاها. فلما دخل فصل الربيع وذلك في سنة ٦٢٥، وقد رأى الأمراء الكبار، وكبار رجال العشيرة، ضرورة التعجيل بتنصيب خاناً جديداً، حتى تنصلح الأمور ولا يتطرق الفساد والخلل إلى أساس الملك، فقد استقر رأيهم على إتخاذ هذه الخطوة، فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى: القوريلتاي [١].

فوفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش، فكان أول من حضر منهم جغطاي بن جنكيزخان، ثم أخوه أوكتاي، ثم حضر بقيتهم، ولم يتخلف منهم أحد. ثم ذبحوا الذبائح وأحضروا الخمور وألبان الخيل، وهي القمز. وعملوا الأفراح إلى أن مضت المدة التي عيَّنها لهم، في متعة وأُنس وطَرب، وشَرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد، فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، ثم قاموا أولاً بتحديد يوم السعد عن طريق السَّحرة والمنجمين. ولكن أوكتاي خان حاول التنحي والاعتذار بأنه غير آهل لتولي هذا المنصب الخطير، وان أخاه: تولوي، أجدر منه بمباشرة هذا الأمر، والالتزام به، لأنه الأخ

الأصفر.

ولأنه طبقاً لتقاليد المغول ورسومهم، يقوم مقام الأب ويتعهد داره، لأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ويَعرف الأصول والقوانين ، غير أن أخوته وأقاربه، أَغلقوا أمامه كل باب للاعتذار، وأصروا عليه على أن يَقبل هذا المنصب، وذكّروه بوصية أبيه في هذا الشأن، فنزل على مشئتهم آخر الأمر [٢].

فرَفعوا قلانسهم حسب عاداتهم، ثم أمسك: جغتاي، يد أخيه اليمنى وأمسك: أوتكين، شقيق جنكيز خان يد: أوكتاي خان، اليسرى وأَجلساه على العرش، وقدَّم تولي له شراباً، وقام جميع من حضر من أعمامه وإخوته وأمراء التمانات فضَربوا جوك، وهو الخدمة عندهم. وكيفيته أن يبرك الرجل منهم على أحد ركبتيه ويسير بمرفقه إلى الأرض، وهذه الخدمة عندهم غاية التعظيم. ثم هنأوه وهم راكعون.

وبعد انتهاء مراسم التتويج خَرج: أوكتاي خان، من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جَلسوا لتناول الشراب والاحتفال، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يَطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان، واختاروا أربعين فتاة من نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن والبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الجياد، ولكنهم قتلوهن في النهاية، كما قتلوا أجيادهن معتقدين أن في ذلك الإجراء إرضاء لروح جنكيز خان [٣].

وشرب أوكتاي خان ذلك الهناب، ثم أمر بإجلاس الناس على مراتبهم، وانزلهم منازلهم، فأجلس الأعمام والأخوة عن يمينه وأجلس الخواتين عن يساره. فقام الإخوة وجَلسوا بين يديه وقالوا : قد امتثلنا ياسا أبينا جنكزخان، ونشد أوساطنا في الخدمة والإخلاص، ونبذل أنفسنا في الطاعة، فشكرهم أوكتاي خان وفَتح الخزائن، وفرَّق الأموال والخلع، وأنعم حتى على الغلمان والرعاة، وفرَّق الناس في مصايفهم ومنازلهم واستقر هو بقرا قروم. وجهز أخاه دوشي خان إلى بلاد الشمال ففتحها في سنة ٦٢٧هـ، وملكها وأقام بها [٤].

وعلى أثر تولية أوكتاي عرش المغول، قرر أن تكون كل الأحكام التي أمر بها

جنكيز خان نافذة المفعول، وأن تبقى مصونة بعيدة عن التغيير والتبديل كذلك أصدر عفواً شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش، وهدد بانزال العقاب الصارم على كل من تُحدثه نفسه بمخالفة القوانين بعد ذلك، واهتم اهتماماً كبيراً باكمال الفتوحات التي بدأها والده جنكيز خان فكون الجيوش اللازمة لغزو إيران وأوربا والصين [٥].

حروب المغول في أيام أوكتاي ابن جنكيز

المغول والبلاد الإسلامية

كان انتخاب أوكتاي بن جنكيز خان أعظم للمغول، إيذاناً بإعادة الهجوم من جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية، والقضاء عليها نهائياً، على أن المغول الذين كانوا لا يزالون يحتلون منطقة ما وراء النهر، قاموا قبل ذلك بعدة حملات منظمة عل قوات السلطان جلال الدين منكبرتي، كانت نتائجها متبادلة، تارة ينتصر جلال الدين وتارة أخرى ينتصر المغول [١].

إذن فقد كانت الحروب بين قادة المغول، وبين جلال الدين منكبتري الخوارزمي غير حاسمة، إلى أن عهد أوكتاي إلى قائده المشهور: جُز ماغون نويان، بقيادة الحملة على إيران، فسار على راس جيش كبير تعداده ٥٠٠٠٠ جندي، مصطحباً معه عدداً من أمهر قادة المغول، وقد قدم الجميع إلى تركستان، حيث طلبوا المدد من أمراء المغول وحكامهم في خوارزم، وقد انضم إلى هذا العدد الكبير قوات أخرى غير نظامية من الأسرى، فبلغ عدد الجميع ١٠٠٠٠٠ جندي [٢].

واستطاع المغول تدمير جيش جلال الدين منكبرتي، وبعد أن تخلصوا من أخطر عدو استطاع أن يواجههم ببسالة، اصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق، فاستطاعوا في يُسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية، وينشروا فيها الخراب والدمار [٣].

وكان القائد الخوارزمي أورخان قد استطاع أن ينقذ حياة جلال الدين عندما هاجمه المغول في آخر مرة قبل أن يفر منهزماً إلى كردستان، كان هذا القائد لا يزال على قيد الحياة بعد مقتل جلال الدين، فسار على رأس ٤٠٠٠ جندي من الجنود الخوارزميين وصلوا إلى إربل، ومن هناك أسرع أورخان بمفرده إلى

إصفهان، حيث لقي حتفه على يد المغول، وبعد ذلك تفرقت البقية الباقية من جنود جلال الدين علي جبال كردستان والجزيرة والشام، فقُتل بعضهم على يد الأكراد وأعراب البدو، واختار الباقون أن يعملوا كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وصاروا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون فيها [٤].

وقسَّم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية: فتح الجيش الأول ديار بكر، وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات، واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب كعادتهم، دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم، أو حتى مجرد سماع اسمهم. وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي في قصص ساقها المؤرخ الثقة: ابن الأثير، كأن يقول: إن الرجل منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحداً أن يمد يده إلى ذلك الفارس [٥].

وأما الجيش الثاني فقد قصد مدينة بدليس، وبعد أن أحرقها استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان، وشَرَع يَفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى، وأخيراً صمم عل احتلال حاضرتها تبريز، فسلمت دون مقاومة في أوائل سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين، وعندما تأكدوا من ضعفه ثاروا على الحكام الخوارزميين، وقتلوهم وقطعوا رؤوسهم وارسلوها إلى المغول تقرباً إليهم، لهذا لم يكد الجيش المغولي يقترب من أبواب تبريز حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة، وقدَّموا مختلف الهدايا من مال وقماش إلى قواد المغول، كما قبلوا الحاكم الذي تولى عليهم من قِبل المغول، وتعهدوا بأن يَدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة، فما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض، ودَخلوا المدينة، ولكنها سلمت من التخريب، والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن [٦].

وفي عام ٦٣٢ - ٦٣٣هـ/ ١٢٣٤ - ١٢٣٥م، دَخل المغول إقليم إربل وغزوا حاضرته، إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة، وتحصنوا فيها، فحاصرها المغول أربعين يوماً، وأخيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ كبير من المال ورَحل المغول عنها، عندما سمعوا أن المدد قد جاء من بغداد، وبعد ذلك انتقلت القوات المغولية إلى العراق في سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، وواصلت زحفها شمالاً حتى وصلت مدينة سامراء، فلما شعر الخليفة أن الخطر صار يتهدده، أَسرع وأَعلن الجهاد بعد أن جَمع مجلساً من العلماء،أفتوا بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله، فجمع جيشاً كبيراً بقيادة مجاهد الدين الدواتدار [٧].

وأستطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل حَمْرَين، وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل، واقام المسلمون الاستحكامات المنيعة حول بغداد، وعاد المغول الكرة وقصدوا بغداد عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م حيث هزموا المسلمين في الخانقين، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعاد الباقون إلى بغداد [٨].

واستمر المغول في مهاجماتهم لجورجيا وأرمينية، فدمروا وخرّبوا، ولكن المغول عادوا وأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا، وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان، وكذلك سيطرة المغول سيطر كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أن يجدوا أدنى مقاومة، فسلّمت سجستان وغزني وكابل وحدود السند، واستطاع المغول السيطرة على سلاجقة الروم عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م، بعد انتصارهم عليهم في معركة عنيفة بموضع: كوسة طاغ. ووضع الأناضول بعدها في قبضة المغول وخضع السلطان غياث الدين لخان المغول، والتزم بدفع جزية سنوية له [٩].

المغول والصين الشمالية

بعد وفاة جنكيز خان نجحت أسرة كين في استرداد جزء كبير من مملكتهم، واتخذت مدينة كاي فونج في هونان عاصمة لها، فلما تولى أوكتاي حكم المغول

أعدَّ العدة لفتح هذه البلاد، فسيَّر جيوشه إليها سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وذلك في نفس الوقت الذي كان جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي، وقد تحرك أوكتاي بنفسه مع أخويه جغتاي وتُولي إلى سهل: هوانج، وهو الذي يُطلق عليه المغول: قرامووران، ثم قسَّموا قواتهم إلى جيشين رئيسيين: هجم أحدهم من الشمال بقيادة أوكتاي، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولوي.

وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً، وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي، وبعد ذلك عهد المغول إلى قائدهم المشهور: سبوتاي بفتح العاصمة: كاي فونج. وفي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، سقطت هذه العاصمة الكبيرة في أيدي المغول وقَتلوا معظم سكانها، ولم يُفلت منهم إلا القليل. وعلى اثر ذلك تقدم الوزير الحكيم: يي ليو جوتساي، إلى أوكتاي ملتمساً الا يأمر بتدمير المدينة، بل يُلحقها بالأملاك المغولية، فاستجاب لطلبه [١٠].

وعندما قام المغول بحملتهم على الصين الشمالية، كان حكام الصين الجنوبية من أسرة سونج، يُقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية، فلما خابت آمالهم، نشبت الحرب بينهم وبين المغول، وكانت هذه فرصه سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة أيضاً، وضم أملاكها إلى حوزتهم، ولكن ذلك تأخر إلى عهد خلفاء أوكتاي [١١].

المغول في أوربا

بعد أن عاد أوكتاي من الصين مُظفراً، كوَّن جيشاً عظيماً تعداده ١٥٠٠٠٠ جندي، أَسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجي، وكلَّفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار واقاليم أوربا الشرقية، وكان القائد المغولي المشهور: سبوتاي، يتولى القيادة الفعلية، وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم، والتي كانت موطناً للباشقرد والبلغار، وهزم حكام روسيا، وأحرق مدينة موسكو، وفي سنة ٦٣٨هـ

(١٢٤٠م، تمكن القائد المغولي: سبوتاي من تدمير مدينتي: سوزدال وفلاديمير، فاشتعلت النيران في سوزدال، على حين سقطت فلاديمير عنوة، فشهدت عند سقوطها أفظع المناظر، إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة وسط لهيب النار، وبعد ذلك انسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا، فقلبوا هذه المناطق رأساً على عقب، وعاثوا فيها تخريباً وفساداً، واستولوا على عاصمتها: كييف، دمروها تدميرا كاملاً.

ثم نهبت تلك الجيوش المغولية، بقيادة القائد المغولي: سبوتاي، إمارة غاليسيا الروسية، وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكملها، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف ٦٣٦هـ . ٨٨٦هـ، وبعد أن تم فتح روسيا، انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثاني إلى المجر. وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولونيين والألمان يبلغ تعداده ٣٠٠٠٠ جندي، واستولى المغول على مدينة: برسلاو، وتقدموا حتى مدينة برلين، بعد أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك وبالمدن الخراب والدمار. وفي هذا الإقليم وحده، جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم، فبلغ مجموعها ٢٧٠٠٠٠ أذن، أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأسٍ وسطوة [١٢].

وأما القسم الثاني من الجيش المغولي، فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجريين، واستولى المغول على عاصمتهم: بست، وتقدموا إلى فيينا من جهة، وإلى سواحل بحر الأدرياتيك من جهة أخرى، إذن فقد ابتُليت أُوروبا بنفس ما ابتليت به الدولة الخوارزمية، وإيران والصين. وغيرهم. وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوربا، إذا بالأنباء ترد إلى أوربا تُعلن وفاة أوكتاي في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القوريلتاي والاشتراك في انتخاب الخان الجديد، وبذلك سَلِمت أَقاليم غرب أوربا من خطرٍ محققٍ، كان ينتظرها على أيدي المغول [١٣].

الإنجازات التي تمت في عهد أوكتاي:

قام أوكتاي بعدة إصلاحات في البلاد الخاضعة له، فقد ترك زمام الأمور في الصين في يد وزيره الحكيم: يي ليو جوتساي، الذي استطاع أن يُنشئ في هذا الإقليم إدارة حازمة منظمة، مستعيناً في ذلك بالكُتاب والعمال من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين وأهل التبت، كذلك نجح في تنظيم الشئون المالية، وضبط عمليات الداخل والخارج، وهذا الوزير هو الذي عمل أول ميزانية ثابتة للإمبراطورية المغولية، إذ ألزم الصينيين بأن يأدوا ضرائب معينة نقداً ونوعاً، بما يجري تقديره من أثواب الحرير وكميات الحبوب، على حين يدفع المغولي عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم، ثم أنه شيد في مدينة بكين خان باليغ مدارس لتخريج شباب ذوي خبرة وكفاءة، ويدرسون تعاليم كونفوشيس [١٤].

ولما تم لأوكتاي فتح الصين الشمالية ولي عليها محمود يلواج، كما نصَّب ابنه مسعود بيك، حاكماً على إقليم ما وراء النهر، فقام الأب والابن بتعمير ما خرَّبه المغول، وأخلصا في خدمة الناس وإصلاح أحوالهم، وإداروا تلك المناطق أحسن إدارة [١٥].

وكان أوكتاي يميل إلى التعمير والتشييد، وشرع في عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م، في بناء عاصمة جديدة له، في منطقة: أوردو بليغ، أو مدينة البلاط، شمال منغوليا، وأمر بتشييد قصر شامخ في العاصمة الجديدة، وكلف مهرة المهندسين الصينيين الذين أحضرهم من قبلُ من بلاد الخطا، فيبلغ طول كل ضلع من أضلاعه رمية سهم بعيد المدى، وأقاموا في وسطه مقصورة عالية، وأنجزوا ذلك المبنى في أكمل صورة وأتم نسق، ثم عَكفوا على زخرفته وتزيينه بمختلف فنون النقش والتصوير. وأمر بأن يَبني كل الإخوة والأبناء وسائر الأمراء والملازمين له دوراً فخمة حول هذا القصر، فامتثلوا جميعاً الأمر. وعندما تمت هذه المباني واتصل بعضها ببعض، كوَّنت مجمعاً عمرانياً رائعاً، وكان ذلك بإشراف أمهر المهندسين الصينيين الذين قد أحضرهم معه [١٦].

أيضاً، طور أوكتاي نظام البريد، لسد حاجة الامبراطورية من الناحية العسكرية، فأقاموا على طول المسافة ما بين بلاد الخطا حتى مدينة قراقورم عدة محطات للبريد،وحرسوها بفرقة من ألف جندي لكل مرحة من طريق البريد، وأمر الخان الأعظم بأن تُخرج كل يوم خمسمائة عربة، من مختلف الولايات، محملة بالطعام والأشربة توضع في مخازن، يزود منها المحطات البريدية، وفكّر في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى [١٧].

أخلاق أوكاتي ومعاملته للرعية

كان أوكتاي ملكاً كريماً نبيل الخُلق، طيب المعاملة للمسلمين، على حين أن أخاه جغتاي، كان لا يكف عن إيذاء المسلمين، وإلحاق الضرر بهم، وكان يود أن يستأصل شأفتهم من سائر البلدان، وتنفيذاً لهذه السياسة درج على تحريض كبار الشخصيات المغولية من الأمراء والقواد،لكي يوشوا بالمسلمين عند أوكتاي حتى يتغير عليهم ويَعمل على الخلاص منهم، وذات يوم جاء راهب بوذي إلى الخان وقال له: إنه رأى جنكيز خان في المنام، وأنه يأمر ابنه أوكتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع الأقطار، ويوصيه بألا يتردد لحظة واحدة في تنفيذ هذا الأمر، لأن المسلمين أصبحوا الآن كثرة، وسوف يكون على أيديهم القضاء على ملك المغول [١٨].

سمع أوكتاي هذا الحديث ولم ينفعل به بسرعة، فقد كان ذكياً ومحباً للمسلمين، أدرك بفراسته على الفور أن هذا الكلام كذب ومحض افتراء، وأنه من إيحاء أخيه الظالم جغتاي،ثم دعا أوكتاي إلى عقد اجتماع كبير حضره كبار الشخصيات من المغول وحكام الممالك. وأمر باستدعاء ذلك الراهب، وكلّفه بأن يُعيد سرد رسالة جنكيز خان على مسمعٍ من الحاضرين ففعل، بعد ذلك قال أوكاتي: ينبغي أن تكون لكل دعوى حُجة وبرهان. حتى يتبين الصدق من الكذب، والصحة من السقم، فأمَّن الجميع على ما قال أوكتاي، ثم توجه الخان إلى الراهب وسأله: أتعرف المغولية أم التركية أم الإثنين معاً؟! فأجاب الراهب: إنني أعرف التركية فقط، عندئذ قال أوكاتي: إن جنكيز خان كان لا

يَعرف سوى المغولية وأنت لاتعرف سوى التركية، فبأية لغة إذن بلغك هذا الأمر: هل بالمغولية أو بالتركية [١٩].

فلما تأكد الراهب أنه قد افتضح أمره، لم يحر جواباً، واعتراه الخجل. وعلى هذا اتضح للجميع كذبه ونفاقه، ولكن أوكتاي لم يدع هذه الفرصة تمر، دون أن يُلقن هذا الراهب درساً قاسياً في الأخلاق، فقال له: إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي، فعد من حيث أتيت، وقل لجغتاي وزمرته: أن كفوا أيديكم عن إيذاء المسلمين، لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا، وقد استمدت مملكتنا القوة منهم وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا.

وكان المغول قد أصدروا قراراً بألا تُذبح الخراف والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها على طريقة المسلمين، بل تُشق صدورها وأكتافها، وذات يوم اشترى رجل مسلم خروفاً من السوق، وأخذه إلى البيت، وأوصد الأبواب، ثم سَمّى الله وهم بذبحه، واتفق أن رآه في السوق رجل تركي من القبجاق، فتعقبه وتسلق السطح، وقيّد ذلك المسلم وسحبه إلى بلاط القآن، فأرسل القآن نوابه للتحقيق، وعندما أطلعوه على ما جرى قال: إن الرجل الفقير قد احترم القانون، وهذا التركي ترك القانون، لأنه صعد إلى دار الفقير، وبهذا نجا المسلم وقُتل القبجاقي [٢٠].

وفاة أوكتاي قاآن

كان أوكتاي خان مفرطاً إلى أقصى حد بالشرب والإدمان على الخمر، وقد تسبب هذا في ضعفه يوماً بعد يوم، ولم يتيسر الخاصة ولا الأصفياء منعه من ذلك، بل كان يُكثر من الشراب رغماً عنهم، وعندما كانت جيوشه تحارب في أوربا، ظل مدة سبع سنوات عاكفاً على اللهو والمتعة والشراب، إلى أن أثر هذا على صحته، وفي إحدى الليالي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، أفرط في الشراب، فتوفي وهو نائم [٢١].

ولاية كيوك خان
(٦٤٤ ـ ٦٤٧هـ = ١٢٤٦ ـ ١٢٤٩ م)

على أثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فالأمير: باتو، ملك خانات روسيا ووداي القبجاق، وأحد كبار الأمراء البارزين في أُسرة جنكيز خان، لم يكن يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي، كذلك كان: كوتان الابن الثاني لأوكتاي يُرغب في تولي هذا المنصب بعد أبيه، وكان هناك فَريق آخر يَرى التقيد بوصية الخان الراحل، واختيار حفيده الطفل: شيرامون، ليكون خاناً أعظم للمغول [١].

ونظراً لمرور وقت طويل دون أن يستقر المغول على راي معين بخصوص هذه المسألة، وبسبب غياب كيوك الابن الأكبر عن المقر الأصلي للمغول، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب، وكان من بينهم أوتجكين اخو جنكيز خان، إذ أراد أن يَغتصب العرش بالقوة، وتوجه لتنفيذ هذه الخطة إلى معسكر القاآن بجيش جرار مزود بالعدة والعتاد، فهاج الجند والأتباع، وما أن علمت توراكينا خاتون زوجة الخان المتوفي بهذا التدبير، حتى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتجكين تَعتب عليه في رفق، وتَعملُ على استمالته إلى جانبها، فنجحت بالفعل في هذا السبيل، إذ ندم أوتجكين ومهد سبيل الاعتذار، ثم قفل عائداً إلى موطنه. كان تراجع أوتجكين أخو جنكيز خان عن طمعه في ولاية الخانية، دافعاً لتوراكينا خاتون، كي تُكمل تدابيرها، ولم تأبه بأي محاولات لإقصاء ابنها عن الحكم، بل وصممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب. ولبلوغ الغاية، صارت تبذل قصارى جهدها لمدة تربو على أربع سنوات. في سبيل اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا [٢].

وبهذه الوسيلة ضمت توراكينا خاتون زوجة الخان المتوفي الأغلبية إلى صفها،

وصاروا رهن إشارتها. كذلك سَنحت لها الفرصة للتخلص من كبار الشخصيات والولاة في الدولة المغولية، والذين كانوا ضد سياستها. وكانت لها حاجبة تُدعى: فاطمة، أصلها من مشهد طوس، ثم ألحقت بخدمتها، وكانت هذه المرأة غاية في الذكاء والكفاءة بل كانت موضعاً للثقة التامة، وكاتمة أسرار للخاتون، وكان عظماء البلاد يتخذونها أداة لتحقيق أغراضهم، فأخذت توراكينا خاتون بمشورة تلك الحاجبة، فتتبعت الأمراء وأركان الدولة بالعزل، ممن كانوا يتقلدون المناصب الكبرى في عهد أوكتاي، فكان من بينهم: جينقاي الوزير الأعظم للقاآن، ومحمود يلواج صاحب الديوان، وحاكم الخطا، ولولا حماية كوتان ابن توراكينا خاتون لهذاذين الرجلين، لبطشت بهما، كذلك قامت بعزل وإعدام: كوركوز، حاكم إقليم خُرسان من قبل المغول، وجَعلت محله: أرغون [٣].

وعندما تأكدت: توراكينا خاتون، من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرُّسل إلى كبار الشخصيات المغولية من جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة القوريلتاي، التي سوف يُنَصَّب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم، كما أرسلت الدعوات لكل السلاطين والأمراء الكبار، في نواحيهم كلها، فوصل إلى منغوليا كبار الأمراء والسلاطين، ما عدا: باتو، فقد اعتذر لمرضه، وحضر إخوته بدلاً منه، وحضر: ياروسلاف دوق روسيا، وعدد كبير من حكام الأقاليم التابعة للمغول، ومن دول الشرق والغرب، منهم: الأمير مسعود بيك حاكم تركستان، وما وراء النهر، والأمير أرغون حاكم خُرسان، ويصحبته أمراء وعظماء هذا الإقليم، وحضر السلطان: ركن الدين، سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، ومندوبون عن أتابكة كرمان وفارس والموصل، حتى الخليفة العباسي أرسل مندوباً عنه لحضور حفل التتويج، كما أرسل علاء الدين حاكم الطائفة الإسماعيلية ممثلين عنه أيضاً.

كذلك حضر اثنان من الكهنة المسيحيين: سمباد أخو هيتوم ملك قليقية،

ويوحنا دي بلان كاربين، وقد قدم الجميع محملاً بالهدايا الفاخرة، فأُعد لإقامتهم أكثر من ألفي سُرادق، وكثر الحضور حتى ضاق المكان، وقلت المأكولات، وغلى ثمنها [٤].

اختيار كيوك خان خاناً أعظم للمغول

في عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، انعقد القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، فاقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خاناً، أعظم للمغول، ولكنه يعتذر محتجاً بضعفه ومرضه، وفي النهاية قبل أن يتقلد هذا المنصب نزولاً على رغبة الأمراء، بشرط أن يكون الحكم وراثياً في سُلالته، فوافق الجميع على ذلك، عندئذ خَلع الأمراء قلانسهم، وحلوا أحزمتهم، وأجلسوا كيوك على العرش ثم أخذوا الكؤس، ورَكعوا أمام عرشه، وأعلنوا انتخابه رسمياً خاناً للمغول. واستمروا يحتفلون بهذه المناسبة مدة أسبوع، وكان كيوك يقوم بتوزيع الأموال على الأمراء ورؤساء الفرق [٥].

وقد عامل القآن رسول الخليفة بمعاملة حسنة، كنوع من آداب الضيافة، ولكنه سلّمه رسالة كلها تهديد ووعيد، أما ممثلوا الطائفة الإسماعيلية، فراح يَصب عليهم جام غضبه، وصرَفهم أذلاء مهانين، ورد على زعيمهم رداً جافاً إلى أقصى حد [٦].

كان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح، فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان. ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا، وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها، وأمر بمعاقبة الذين قصَّروا في أداء واجبهم. أو ارتكبوا مخالفات في المدة السابقة على توليته، كذلك كلّف أمراءهُ وقُواده بتجييش الجيوش لفتح الصين الجنوبية، وعهد بهذه المهمة إلى القائد المغولي سبوتاي. وأوفد: ايلجيكتاي، إلى إيران لفتح بقية الممالك الإسلامية، وجَعل له السُلطة العُليا في الإشراف على شئون الروم والكرج والموصل وديار بكر، ونصّب محمود يلواج، حاكماً على

ممالك الخطا، وولى الأمير مسعود بيك، حاكماً على ما وراء النهر وتركستان، وعَيَّن الأمير ارغون والياً على بلاد خُراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند، وقلَّد السلطان: ركن الدين، سلطنة الروم لأنه قدم إلى منغوليا بمناسبة تنْصيبه إمبراطوراً للمغول، وعزل أخاه الأكبر: عز الدين، وقرر أن يكون داود الصغير المعروف بابن فيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس [٧]..

سياسة كيوك خان مع المسيحيين

كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية، ولهذا عهدت إلى الأمير: قداق، المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر، فلما اعتلى عرش المغول قرب إليه: جينقاي، الذي كان يعمل مستشاراً ووزيراً لأبيه، وكان من قبيلة كرايت، يدين أيضاً بالمسيحية، ولم يكتف كيوك بهذا، بل قلَّده منصب الوزارة، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على الخان المغولي، إذ صار يعطف عطفاً شديداً على رعاياه من المسيحيين، من أمثال الأرمن والكرج والروس [٨].

ويذكر المؤرخ بروان أن الجمعية العامة التي تمّ فيها انتخاب كيوك، قد امتازت بوفرة عدد من حضرها من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول، فقد حضرها اثنان من الكهنة بعث بهما البابا بخطابات، يَرجع تاريخها إلى اغسطس سنة ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ، وقد استقبل هذان الكاهنان خير استقبال وكانا قد أثرا على وزيرين من وزراء الخان، وأقنعاهما باعتناق المسيحية [٩].

غير أن كيوك عندما قرأ رسالة البابا طلب إليه أن يعترف بسيادته العليا، وان يَقدم إليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا له يمين التبعية، فلما عاديوحنا إلى البابا في نهاية سنة ١٢٤٧م، قدم إليه هذه الرسالة المخيبة للآمال، وأرفق بها تقريراً مفصلاً ذكر فيه أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح، ولم تنقطع آمال الباب عند هذا الحد، فحاول مرة ثانية، في مايو سنة ١٢٤٧م، ولكنها لم تُفلح، لكون النصارى لم يُقدموا بعد فروض الطاعة التامة لخان المغول [١٠].

وخلاصة القول انه في عصر كيوك خان ارتفع شأن المسيحيين، في حين لم يرتفع صوت للمسلمين، وذلك بتأثير أُمه من جهة، وكانت تدين بالمسيحية، وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى، كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً للإشراف على الشئون الطبية في البلاط المغولي، وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية [١١].

وعلى كل حال، فإن كيوك بن أوكيتاي، خاقان التتار قرر أن يوقف الحملات التوسعية، ويتفرغ لتثبيت الأقدام في أجزاء مملكته المختلفة، وقد ظل يَحكم من سنة ٦٣٩ هجرية إلى سنة ٦٤٦ هـ، وفي هذه السنوات السبع لم يدخل التتار بلاداً، بل كانت فترة هدوء نسبي في المناطق المجاورة، وفي هذه الأثناء كان لويس التاسع ملك فرنسا يجهز الحملة الصليبية السابعة، لمهجمة مصر، وكان يجمع جيوشه في جزيرة قبرص، وذلك في سنة ٦٤٦ هـ، وقد رأى لويس التاسع، أن الأمل لم يَنقطع في إمكانية التحالف مع التتار ضد المسلمين، فأرسل سفارة صليبية ثالثة من قبرص إلى منغوليا، لطلب التعاون من الخان المغولي: كيوك، في هذه الحملة، وزود السفارة بالهدايا الثمينة، والذخائر النفيسة، لكنها وصلت إلى قراقورم العاصمة التترية في منغوليا وقد سبقهم الموت إلى الخاقان التتار كيوك [١٢].

وفاة كيوك خان، ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩م

منذ أن تولى كيوك خان الحكم أخذ على عاتقه أن يُخضع: الأمير باتو، ملك خانات روسيا ووادي القبجاف، وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان، بسبب الموقف العدائي منه بصفة خاصة. ومن أسرة أوكتاي بصفة عامة، فقد كان باتو يميل إلى أن يتولى عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي. ولكن ما إن خرج في طلب باتو، ولم يكد يصل إلى حدود سمرقند حتى عاجله الموت، في ربيع الثاني سنة٦٤٧ هـ/١٢٤٩م، أما والدته توراكينا خاتون. فقد توفيت قبله بعدة أشهر [١٣].

انتخاب منكوقآن خاناً أعظم للمغول
(٦٤٨ – ٦٥٥/ ١٢٥٠ – ١٢٥٧)

اختيار منكو خاناً أكبر على العرش المغولي

على أثر وفاة كيوك خان، أراد أوكتاي واتباعه أن يقيموا: شيرامون، إمبراطوراً للمغول، وقامت: أقول قيمش، زوجة كيوك خان بمباشرة مهام الحكم إلى أن يتم انتخاب الخان الجديد، طبقاً للرسوم والعادات المغولية. فتولت حكم التتار ابتداءً من سنة ٦٤٧ هجرية، وكانت أقول قيمش ترغب في تولية ابن أخي كيوك تفيذاً لعهد الأمراء لكيوك أن يظل الحكم في سلالته.

ولكن لاتخاذ هذه الخطوة، كان لابد من الحصول على موافقة الأمير: باتو، باعتباره أكبر الأمراء سناً ومقاماً، فأصبح من حقه النظر في اختيار الملوك وتنصيبهم، وعلى هذا أرسلوا إليه يطلبون أن يحضر إلى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخان الجديد، فردَّ عليهم معتذراً بعدم قدرته على السفر إلى منغوليا بسبب مرضه، وفي نفس الوقت وجَّه الدعوة إلى كبار الأمراء والقواد للحضور إلى القبجاق حيث يقيم، والإشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخان، ولكن أبناء أوكتاي وجغتاي عارضوا هذا الإقتراح، وأصروا على أن يُعقد القوريلتاي في المقر الأصلي لجنكيز خان، جرياً على العادة المتبعة وعلى هذا امتنعوا على الذهاب إلى القبجاق، واكتفوا بأن انابوا عنهم بعض المندوبين [1].

وأما منكو وإخوته، فقد لبوا دعوة باتو، وأسرعوا إلى القبجاق، حيث عُقد القوريلتاي، ونُودي بمنكو إمبراطوراً على المغول وتلقب بلقب: منكو قآن، وبهذا انتقل حكم إمبراطورية المغول إلى أولاده تولوي، الذين يُمثلون الفرع الثاني من أسرة جنكيز خان، ولأن جميع الأمراء لم يكونوا ممثلين في هذا الاجتماع، إتُّفِق على أن يُعقد القوريلتاي مرة ثانية، ولكن بعض الأمراء من أبناء أوكتاي

وجغتاي تمسكوا برأيهم الأول، وهو أ، يظل الحكم في أسرةأوكتاي، وكيوك، وتبادلوا الرسائل مع الأمير باتوا، معلنين الاجتماع الثاني المقرر لتأكيد انتخاب : منكو، وظلت الخلافات دائرة بين الإمراء الكبار في الأسرة المغولية الحاكمة، مدة عامين تقريباً.

واخيراً تقرر إعادة اجتماع: القوريلتاي في شهر ذي الحجة ٦٤٨هـ/ابريل١٢٥٠م، وبحضره الأمراء والعظماء لإقرار تنصيب: منكو، خاناً أعظم للمغول بصفةٍ رسمية. وعُقد القوريلتاي بالفعل مرّة أخرى في منطقة قراقورم في التاريخ المذكور، رغم أنف المعارضين، وفي هذا الاجتماع أُعلن انتخاب منكو خاناً أعظم رسمياً للمغول، ولكن المناوئين لسياسة منكو لم يَخضعوا لهذا القرار، وحاولوا تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، فعلم بذلك منكو في الوقت المناسب وتمّ القبض على المتآمرين قبل تنفيذ خططهم، ولما حقق معهم اعترفوا بجرمهم [٢]. وكان منكو قآان ينوي الصفح عن المتآمرين، إلا أن الأمراء حذَّروه مغبة التهاون معهم، وأصروا على ضرورة الاقتصاص منهم، وأخيراً طلب مشورة محمود يلواج، فسرد إليه قصة الإسكندر وأرسطو، ومؤداها أنه عندما استولى الإسكندر على أكثر ممالك العالم، اراد أن يَسير نحو الهند، غير أن امراء الدولة وأركانها خرجوا على طاعته وتخلفوا عن متابعته، وأخذ كل منهم يُعلن الاستقلال والاستبداد، فعجز الإسكندر عن علاج هذه الوضع وارسل رسولاً إلى وزيره أرسطو الذي لا نظير له، وأطلعه على عصيان امرائه وتمردهم. وسأله عن إيجاد حل لهذه المسألة، فدخل أرسطو مع الرسول إحدى الحدائق. وأمر بأن تُجتَثَّ الأشجار الكبيرة من جذورها، وأن تُغرس شجيرات صغيرة، فقال الإسكندر: لقد أجاب: وأنت لم تَفهم مقصوده، وأمر بقتل الأمراء المستبدين على الفور. وجعل أبناءهم في أماكنهم، فاستحسن منكوقاآن هذا القول وأمر بضرب أعناق الأمراء المعتقلين، ووضع آخرين في مكانهم [٣].

الحالة العربية الإسلامية في تلك الأثناء

لقد كان اختيار منكوخان، زعيماً لمملكة التتار بداية تحول كبير في سياسة التتار، وبداية تغيير جذري في المناطق المحيطة بالتتار، فقد كانت لديه سياسة توسعية شبيهة بسياسة جنكيزخان المؤسس الأول لدولة التتار، وشبيهةً أيضًا بسياسة أوكيتاي الذي فُتحت أوروبا في عهده، ومن ثم بدأ منكوخان يُفكر من جديد في إسقاط الخلافة العباسية، وما بعدها من بلاد المسلمين.

ومع هذا لم يكن الإحساس القومي لدى الأمراء المسلمين، يوازي تلك الكارسة الوشيكة الوقوع عليهم وعلى بلادهم جميعاً، فمع أن الجيش المصري انتصر على لويس التاسع ملك فرنسا، في موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ، إلا أن أمراء مصر كغيرهم من أمراء المسلمين، كانوا مشغولين جداً بأنفسهم، ففضلاً عن الفتن الداخلية في كل الإمارة، علاوة على التصارع على الحكم، فقد كانت تقوم حروب مريرة بين الإمارات الإسلامية، والضحايا جميعاً من المسلمين. ومن ذلك الحرب التي دارت في منطقة العباسية (١٨ كيلومتر شرق مدينة الزقازيق المصرية)، بين الجيش المصري بقيادة عز الدين أيبك، والجيش الذي أرسله الناصر يوسف أمير حلب ودمشق، وانتصر فيها الجيش المصري، فعلوا ذلك، بينما الحملات الصليبية لا تتوقف، والتتار يقفون على أبواب الخلافة العباسية [٤].

لقد كانت فترةغفلة غريبة، عمت العامة والخاصة، وتجد العلماء والأمراء والمؤرخون، الكل غافل ساه عن تلك المجازر التي ينصبعا المغول في كل بلد كبير أو صغير يدخله، منذ أوائل ظهورهم بدايات القرن السادس الهجري، فعلى سبيل المثال تجد ذكر التتار يختفي في كتاب البداية والنهاية لابن كثير، عند تأريخه للفترة من سنة ٦٣٩ هجرية إلى ٦٤٩ هـ، فترة حكم كيوك أرملته، وحتى تم انتخاب منكوقآن، وهي الفترة التي لتوقف فيها التوسع تتري، وكأن ظنوا أن القضية التترية قد حُلت، لقد لقلت الأخبار التي كان أهل العراق والشام ومصر يتناقلونها عن جيوش التتار، وتوقفت التوعية بمخاطر هؤلاء القوم، وراح

المسلمون بخلافتهم العباسية في ثُبات عميق.

وتجد ابن كثير عند وصفه للحياة في العراق والشام ومصر، في هذه السنوات يصف حياة طبيعية جداً، فالخليفة يُعالج بعض المشاكل الاقتصادية، ويتصدق على بعض الفقراء، وقد يَحدث وباء فيُعالج، أو غلاء فيشق ذلك على الناس إلى أن يَمنح الخليفة بعضاً من المال لمقاومة الغلاء، وهذا يَفتح مدرسة، وذاك يَفتح داراً للضيافة، وغيره يَفتح داراً للطب، علاوة على ذكر أحوال هذه السنوات، أن مات فلان من الشعراء، وفلان من الأدباء، وفلان من الكرماء، وفلان من الوزراء. لكن أين العلماء الذي يخطبون على المنابر وفي حلقات العلم يَشرحون للناس خطر التتار، ومصيبة المسلمين في البلاد المنكوبة بالتتار؟ وأينَ الحكام الذين يُجهزون شعوبهم ليوم لا محالة هو آت؟ لم يكن هذا مشتهراً في ذلك الوقت، ولا يوجد من يهتم به، ومن ثم اختفى ذكره من كتب التاريخ [٥].

الإصلاحات الداخلية لمنكوقاآن

اهتم منكوقاآن بالإصلاحات الداخلية والنظم الإدارية عناية كبيرة، وذلك بعد أن توطد له العرش، واستقرت بيده أمور الحكم، فنجح في تحقيق نتائج طيبة، وكان من أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة، ورَغم حِرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول، فإنه نظراً لطول معاشرته للأمم المتمدنة، ولكثرة اختلاطهِ بالمتحضرين في الأمم التي خضعت لحكمهم، فقد تأثر بكل ذلك بدرجة ما، فتخلى عن الصفات المغولية، كالقسوة وحُب سفك الدماء، فكان من أهم ما اتصف به، انه كان يَكره الترف، ويُنكر المباذل، وليس له هواية سوى الصيد، كما انه كان بالغ النشاط، بارعاً في تسيير الإدارة، متوقد الذكاء، جُندياً باسلاً وسياسياً ماهراً، وبهذه الخصال أعاد القوة والحيوية إلى ما أقامه جده جنكيز خان من نُظم، ووهب الإمبراطورية المغولية أساليب إدارية محكمة، وجَعل منها دولة بالغة القوة [٦].

أيضاً مما يُحمد له تخفيفه للضرائب، وتيسير سبل العيش على الناس،

والتخفيف عنهم، كما حرَّم اغتصاب أموال الناس ودوابهم، وأصدر أوامره بذلك للحكام والولاة، واستعان بجماعة من أهل الخبرة في إيران لتنظيم الإدارات والدواوين في قراقورم بصورة سليمة، كما اهتم باختيار أحسن العُمال وأكفأهم لتولي الجهات التابعة للمغول، فجَعل محمود يلوج على بلاد الصين، وولى ابنه مسعود على تركستان وما وراء النهر، وبلاد فرغانة، وخوارزم، فكانت لهما اليد البيضاء في النهوض بتلك النواحي، وتعميرها وإصلاح ما تخرب منها [٧].

تسوية منكوقاآن بين طوائف الإمبراطورية

كان منكوقاآن لا يُفرِّق بين طائفة وأخرى، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة، وكفل الحرية للجميع، إذ سمح للواحد منهم بأن يناظر الآخر يجادله في المسائل الدينية في حرية تامة، وعلى الرغم أن منكو كان يَدين بعقيدة أسلافه الشامانية، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز، إذ سلَّم بوجود إلهٍ واحدٍ يعبده كل إنسان حسبما شاء [٨].

فكان منكو قاآن في هذا يسير على سياسة والدته: سُرقويتي بَيْكَي، التي أثَّرت فيه تأثيراً كبيراً، فمع أن هذه المرأة كانت تدين بالمسيحية، إلا أنها سلكت سلوكاً حسناً مع الرعايا المسلمين، وكانت شديدة العطف عليهم، لا سيما الأئمة ومشايخ الإسلام، إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات، ولم تقف عند هذا الحد، بل أنها أقامت في بخارى مدرسة عل نفقتها الخاصة، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة وولت عليها شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، وعينت المدرسين، ورَعت شئون الطلبة، وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين، وقد استمرت على هذا النحو من فعل الخيرات، إلى أن توفيت في شهر ذو الحجة سنة ٦٤٩هـ/ مارس ١٢٥١م [٩].

فتوحات منكوقاآن وبداية ظهور هولاكو

في السنة التالية لحكم منكوقاآن، ٦٤٩هـ، وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية وتَخلص من جميع المناوئين لسياسته، وجَّه عنايته نحو الغزو والفتح، والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية المغولية، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها من قبل، وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين، نصَّب أخاه الأصغر: هولاكو، على رأس إحداهما وعَهِد إليه بالقضاء على الإسماعيلية، وإدارة إقليم فارس.وإخضاع الخليفة العباسي. ونصَّب أخاه الأوسط: قوبيلاي، على رأس الحملة الأخرى، المكلفة بفتح أقاليم الصين الجنوبية، وكوريا، واستعد منكوقاآن نفسه للسير بحملة أخرى. بقصد الاستيلاء على بعض الأقاليم في هذه البلاد الفسيحة [١٠].

أذن فقد جاء القدر بمن سيدمر الخلافة العباسية، ويُذيق أهل بغداد، بل وأهل العراق ومن هوله كل صُنُف العذاب، فقد تولى هولاكو حفيد جنكيز خان استكمال فتح بلاد فارس وبلاذ العرب في شمال آسيا. وجاءا الرجل بكل غطرسته وأحقلده، التي زاد منها زواجه من امراة لا تقل عنه دموية وحقداً، فلقد تزوج من الأميرة المغولية: طقزخاتون، وكانت امراة قوية ذات نفوذ في البلاط المغولي؛ وكانت فوق ذلك قد انتقلت إلى النصرانية، وكانت شديدة التعصب لديانتها، وشديدة الكراهية للإسلام. وكان هولاكو يُريد بوضوح أن يُسقط "بغداد" عاصمة الخلافة العباسية، ثم يتجاوزها إلى ما بَعدها، فأعدً نفسه وجيشه الإعداد الكافي، في حين ذهاب المسلمين في لهو ونوم عميق [١].

رسالة الخان الأعظم لأخيه هولاكو

عندما تجهز هولاكوا للقيام برحته نحو بغداد، أرسل الخان الأعظم للمغول بالرسالة التالية، رسم لأخيه فيها الخطة التي كان عليه أن يتبعها، حيث قال له: إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فيَنبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه في الكليات والجزيئات، وخُص كل من يُطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك، وبأنواع عطفك وإنعامك، أما من يَعصيك فأَغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خُرَاسان، فخرِّب القلاع والحصون، فإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، اما إذا تكبر وعصى فالحقه

بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف عن الرعية التكاليف والمؤن، وأن تُرفه عنهم، وأما الولاية الخربة، فعليك أن تُعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تَفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة، وشاور دقوز خاتون في جميع القضايا والشئون [٢].

لقد بدأ هولاكو عمله في سنة ٦٤٩ هـ، بحمية شديدة وسرعة فائقة، مع التحلى في نفس الوقت، بالصبر والأناة والإتقان في كل خطوته، فمع حقده الشديد ورغبته الملحة في تدمير الخلافة الإسلامية، واشتياقه الكامل لكنوز العباسيين، ومع كثرة جنوده وتفوقه العسكري الظاهر، إلا أنه، لم يتسرع في اتخاذ قرار الحرب ضد الخلافة العباسية، بل ظل يُعد ظل يعد العُدة لهذا اليوم مدة خمس سنوات كاملة من سنة ٦٤٩هـ، إلى سنة ٦٥٤هـ، قضاها في نشاط لكي يكون جاهزاً تماماً.

ولكي ينفذ هولاكو خطته، وأوامر الخان المغولي، بخصوص الاستيلاء على الخلافة العباسية، وكل المنطقة الإسلامية تلك، مشت خطة استعداده في عدة محاور رئيسية متوازية، ومتزامنة، من أجل زيادة فرصة انتصاره على الخلافة العباسية، وكل هذا العمل يتم قبل حركة الجيوش، وقبل النزول الفعلي إلى ساحة المعركة في بغداد، وكان كل ذلك يتم علناً، وعلى مرأى ومسمع من المسلمين وغير المسلمين، ولا أحد يتنبه أو يأخذ حذره، وكأن الله طمس على عيونهم وقلوبهم وسمعهم [٣].

المحور الأول: الاهتمام بكل مقومات النصر

١ـ بدأ هولاكو في إصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، وهي مسافات رهيبة، لكنه عمل على تهيئتها لاستيعاب الأعداد الهائلة من الجيوش التترية، مع الأخذ في الاعتبار الطبيعة الجبلية لمنطقة طاجيكستان وأفغانستان

وفارس، والموانع الطبيعية الصعبة.

٢ـ أقام الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار التي تعترض طريق الجيوش، وبالذات نهري سيحون وجيحون، ووضع قوات كافية تحمي هذه الجسور، وبذلك ضمن استمرار عمليات التموين، وفي نفس الوقت تَفتح هذه الجسور الطريق لخط رجعة لجيوش التتار في حال الهزيمة [٤].

٣. جهز مجموعة ضخمة من الناقلات العملاقة، صُنعت خصيصاً لحمل أدوات الحصار الكبيرة من الصين إلى بغداد، وبذلك لا يأخذ وقتاً طويلاً في نقل المعدات الثقيلة عبر هذه المسافة الطويلة.

٤ـ بدأ في السيطرة على كل المدن والمراكز التي تتحكم في محاور الطرق، وبذلك تجنب حدوث أي مباغتة أو قطع لطرق جيشه أثناء سيرها.

٥ـ قام بإخلاء كل الطرق من الصين إلى بغداد، من قطعان الماشية سواء البرية أو المملوكة للسكان، وذلك لترك الحشائش والأعشاب لتكفي لطعام الأعداد الهائلة جداً من الخيول الخاصة بالفرسان، والدواب المكلفة بحمل العتاد الحربي والغذاء والخيام وغير ذلك. وبذلك لا يحتاج أن يحمل معه طعاماً للحيوانات، خاصة وأن خيول المغول يمكنها الحصول على طعامها من الأرض مباشرة، وعن طريق الحفر بأرجلها، وإخراج جذور النبات وأكلها. وبذلك يضمن أن لا يتعرض لمفاجأة غياب الطعام [٥].

المحور الثاني: الاستعداد السياسي والدبلوماسي

بدأ التتار في محاولة عقد بعض الأحلاف السياسية، مع بعض الأطراف التي تمثل موازين قوى مختلفة، وذلك لضمان نجاح المهمة الكبيرة، وهو تغير كبير في السياسة التترية التي ما عَرفت قبل ذلك تحالفاً ولا دبلوماسية، بل كانت تعتمد في بداياتها على القوة المفرطة.

ولخطورة هذا الأمر، وكونه نقطة تحوّل في السياسة التترية، فقد تكفل بالقيام بهذه المعاهدات الخاقان الكبير: منكوخان شخصياً، ولم يَترك فيها حرية

التصرف لهولاكو، مع أنه من أكثر الناس الذين يُعتد برأيهم في هذا المجال [٦].

التحالف بين المغول والمسيحيين

كان مسيحيوا أُوروبا على استعداد للتحالف مع الشيطان، ضد المسلمين، وفي سبيل ذلك تنازلو عن كل انتهاكات المغول في حق مسيحيي روسيا وبولندا، وتواصلوا مع منكوقاآن، وأرسلو السُفراء والرُسل بصورة متواصلة من أجل تحالف، لعلهم من خلاله يستطيعون تدمير القوى الإسلامية، خاصة بعد هزيمتهم المُنكرة من صلاح الدين الأيوبي، في موقعة حطين، في نصف ربيع الآخر، سنة ٥٨٣هـ [٧].

فكان من بين تلك البعثات النصرانية، بعثة قدمت من قِبَل لويس التاسع ملك فرنسا، برئاسة: وليم رو بروق، الذي خرج من عكا سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، فقصد القسطنطينية، ومنها توجه إلى شبه جزيرة القرم، ثم مدينة: سراي عاصمة الأمير باتو المغولي، خان القبجاق، ومن منفذ جبال الأورال، ثم من نهر ايلي، وفي نهاية ديسمبر سنة، ١٢٥٣م، وصل إلى قراقورم، فمثل بين يدي الخان الأعظم: مَنْكَوقاآن، في ٤ يناير سنة، ١٢٥٤م، الذي قابله باحترام، وأكرم وفادته، وسمح له بأن يُناظر العلماء البوذيين والمسلمين في حُرية تامة، إلا انه لم يُعطه جواباً مُقنعاً فيما يتعلق بتكوين إتحاد مع المسيحيين، بل أنه طلب إليه أن يُسارع لويس مع جميع الملوك المسيحيين إلى الدخول في طاعته، وقد مكث: رويروق، خمسة اشهر في قراقورم، وفي النهاية عاد إلى الشام حيث قابل لويس في مدينة عكا وقدَّم إليه رسالة الخان الأعظم: مَنْكَوقاآن [٨].

كان الخان المغولي الكبير لا يقبل أن يكون للعالم سيد سواه، وكانت سياسته الخارجية تطبيقاً لهذه الفكرة أو لهذا الرأي. إذ أن أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له، أما الأعداء فينبغي قطع دابرهم تماماً، أو إخضاعهم ليكونوا أتباعاً له، وكل ما استطاع. وليم رويروق، سفير لويس التاسع ملك فرنسا، أن يَحصل عليه من الخان الأعظم: مَنْكَوقاآن، هو انه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى

مساعدة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم. على أن ملك فرنسا لم يستطع التفاوض على أساس هذه الشروط وغادر: روبروق، العاصمة المغولية قراقوم في أغسطس عام ١٢٥٤م، عائداً إلى بلاط الأمير باتو خان القبجاق، بعد أن اخترق آسيا الوسطى، ومن ثم إجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينية، ومنها إلى عكا وقد لقى روبروق، في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسولٍ يَقصد الخان الكبير، وقد أفادت هذه الرحلة وليم روبروق، بمعلومات كثيرة ومفيدة عن المغول، فتعرف على عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الإجتماعية، وغير ذلك مما صادفه في رحلته، كما تعرف على جميع القبائل والجماعات التي يتكون منها العُنصر المغولي، والتي أخضعها جنكيز خان [٩].

وإذا كان نصارى غرب أوروبا وملوكها القدماء يَرفضون التعاون مع "منكوخان" على أساس التبعية، فهناك من الملوك الآخرين من يَقبل بذلك، ويَعتبره نوعاً من الواقعية [١٠].

لقد فكر: هيثوم، ملك أرمينيا النصرانية في التحالف مع التتار على أساس التبعية كما يُريد منكوخان، فمَلكُ أرمينيا يَعلم قوة التتار، إن بلاده قد دُمِّرت من قبل على أيديهم، في عهد جنكيزخان، ثم في عهد أوكيتاي، كما يَعلم أن دولته ضعيفة جداً بالقياس على دولة التتار، فمساحة أرمينيا أقل من ٣٠ ألف كيلومتر مربع. ويَعلم ملك أرمينيا أيضاً أنه محصور بين قوات التتار من جهة، وقوات المسلمين من جهة أخرى، والعداء قديمٌ جداً بينه وبين المسلمين، وهو يتحرق شوقاً لغزو بلاد المسلمين وإسقاط الخلافة العباسية، وإن لم يقبل الآن بالتبعية للتتار فسيُرغم عليها غداً، وساعتها سيفقد ملكه بلا ثمن.

هذا الفهم الواقعي لدى الملك: هيثوم، ملك أرمينيا، دفعه أن لا يجد أي غضاضة في أن يذهب بنفسه لمقابلة منكوخان في قراقورم عاصمة المغول، ويَبدو أن منكوخان قد بدأ يتعلم طُرق التفاوض السياسي، فقد بدأ يعتمد على المظاهر والكلمات المنمقة المختارة، فمن ذلك أنه أقام احتفالاً كبيراً، واستقبالاً رسمياً مهيباً للملك هيثوم ملك أرمينيا، وعامله كملك لا كتابع، وإن كانت كل

بنود الاتفاق بينهما لا تصلح إلا بين سيد وتابع، لا لا بين مَلِكين. فبعد الاستقبال الحافل لملك أرمينيا الذي قدَّم نفسه على أنه من رعايا منكوخان. بدأ منكوخان يعطيه وعوداً كبيرة وهدايا عظيمة، يشتري بذلك ولاءه وتبعيته. فماذا هذا الذي أعطاه منكوخان لملك أرمينيا؟

١. ضمان سلامة الممتلكات الشخصية للملك هيثوم.

٢. إعفاء كل الكنائس المسيحية والأديرة من الضرائب.

٣ـ مساعدة الأرمن في استرداد المدن التي أخذها السلاجقة المسلمون منهم، خلال الحروب التي دارت بينهم.

٤ـ اعتبار ملك أرمينيا هو كبير مستشاري الخاقان الكبير منكوخان، فيما يختص بشئون غرب آسيا. وهكذا سعد ملك أرمينيا هيثوم، بقربه من ملك التتار [١١].

فائدة هذه المعاهدة للتتار

لابد للناظر لتلك المعاهد بين التتار بقوتهم الكاسحة هذه، وبين دولة أرمينيا التي لا تعتبر قوة بالأساس، بالنسبة لهم، وبالفعل الأمر لافت للنظر من اول وهلة، ولكن عند إمعان النظر، مع الأخذ في الاعتبار ان الحاكم المغولي يتحسب لك ما قد يُصيب رجاله الذين هم عدته وزخيرته، وما المانع مع كونهم يكتسحون العلم كالجراد المنتشر، أن يخفف عنهم كلما أمكنه هذا، ولننظر تلك الاستفادات العائدة على التتار من اتفاقهم مع دولة أرمينيا.

أولاً: ملك التتار سيستفيد من خبرة ملك أرمينيا في حرب المسلمين، فالعلاقة بين الأرمن والمسلمين قديمة، وقد خبر الأرمن بلاد المسلمين وطبائعهم، ولا شك أن المعلومات الصادقة التي سيَحملها ملك أرمينيا إلى ملك التتار سيكون لها ابلغ الأثر في حرب المسلمين.

ثانياً: سيحتاج ملك التتار إلى اعوان لإدارة هذه الأملاك الواسعة، فإذا كان المدير من أهل البلد، وله ولاء ووفاء له، فهو افضل من الإدارة الخارجية، وأقدر على التحكم في الموقف، وأقوى على تهدئة غضب الشعوب.

ثالثاً: بهذه الخطوة يفتح ملك التتار منكوخان باب المعاملات مع النصارى من جديد، الذين قد يحتاجهم بعد ذلك عند استكمال فتوحاته في داخل الشام ومصر، وقد يحتاج إلى ملك ارمينيا في استئناف المفاوضات مع مُلوك أوروبا، هذا بالإضافة إلى انه يَعلم أن في قلوب النصارى كراهية شديدة للتتار، وذلك بسبب المذابح البشعة التي قام بها التتار في روسيا وشرق اوروبا، وقد تكون فرصة المعاهدة مع ملك أرمينيا داعية إلى شيء من التعاون لرعاية المصالح المشتركة.

رابعاً: الاتحاد مع مملكة أرمينيا سيكون له عامل نفسي عند المسلمين، فالحرب مع التتار شيء، والحرب مع قوات التحالف شيء آخر، نعم القوات المتحالفة مع التتار لا تمثل شيئاً يُذكر في الجيش التتري، ولكن كلمة: التحالف لها وقع خاص في نفوس الناس [١٢].

خامساً: تم الاعتماد على القوات الأرمينية المتحالفة مع التتار في بعض المهام الخطرة، والتي قد يَرغب ملك التتار في تجنبها، وبذلك تكون الخسارة البشرية في جانب الأرمن بدلاً من التتار.

وهكذا عاد ملك أرمينيا هيثوم منتشياً بمعاهدته، فخوراً بعلاقته مع ملك التتار، معظماً في شعبه، لأنه استطاع بسياسته أن يُجنب مملكته ويلات الحروب.

الخان المغولي يواصل توقيع المعاهدات

لقد كان من رغبات منكوخان أيضاً، أن يعقد تحالفات مع أمراء الممالك الصليبية في الشام، وكان لهم أكثر من مملكة في أنطاكية وطرابلس وصيدا وحيفا وعكا، وذلك لشغل المسلمين في منطقة الشام، فلا يدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت [١٣].

ولزيادة التشجيع فإن ملك التتار منكوخان وعد الأمراء الصليبيين في الشام بأن يُعطيهم بيت المقدس هدية لهم، في حال اتفاقهم معه، وكان بيت المقدس قد حُرِّر مرة ثانية على يد الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٣ هـ، بعد أن أهداه أمراء الشام الأيوبيون إلى الصليبيين سنة ٦٢٦ هـ وكأن منكوخان يملك بيت المقدس، وله

الحق في إهدائه. ومع كل هذا التشجيع، إلا أن أمراء الممالك الصليبية بالشام، ترددوا كثيراً في قبول هذه الاتفاقيات، باستثناء أمير أنطاكية: بوهمند، الذي استحسن هذا الأمر، وانضم فعلاً إلى ملك التتار. وكان رفض من رفض من نوع الحيطة والحذر، وعدم الارتماء في حضن جهة لم يتأكد بعد تفوقها [١٤].

أيضاً سعى منكوخان إلى عقد بعض الاتفاقات مع نصارى الشام والعراق، وهؤلاء ليسوا من الأمراء أو الملوك، ولكنهم من النصارى الذين يعيشون في كنف الإمارات الإسلامية في الشام، أو في الخلافة العباسية في العراق، وهذه بالطبع لم تكن اتفاقات رسمية ولا مُعلنة، وإنما كانت اتفاقات سرية مع بعض رؤوس النصارى، ومع بعض القساوسة، وذلك لتسهيل مهمة دخول التتار إلى هذه البلاد، ولِنَقل الأخبار من وإلى التتار. وقد نجح منكوخان فعلاً في الوصول إلى عدد كبير من هؤلاء النصارى، وعلى رأسهم ماكيكا، بطريرك بغداد شخصياً، وكان عاملاً مساعداً هاماً في دخول بغداد.

عقد منكوخان أيضاً معاهدات مع مملكة الكرج النصرانية، في جورجيا الآن. ومع أن تاريخ التتار مع مملكة الكرج كان تاريخاً أسود، إلا أن تاريخ الكرج مع المسلمين كان أكثر سواداً، ومن ثم فضّل نصارى الكرج التعاون مع عدوهم الجديد التتار، ضد عدوهم القديم المسلمين، نظراً لأن الغلبة متوقعة للتتار، ولأن الحرب بين النصارى والمسلمين عقائدية، ومن المتوقع دوامها، وبالتالي ستدوم الكراهية من وجهة نظرهم مع المسلمين، بعكس التتار الذين لا دين لهم، أو يدين بعضهم بالنصرانية، وبالتالي عداوتهم مؤقتة. حسب المصالح، فإن فرغت المصالح أو تحققت، توقفت الحروب، وقد اتفقت مصالح مملكة الكرج النصرانية مع مصالح التتار الوثنية، فلا مانع من السير معاً في طريق واحد. وهذا أيضاً من السياسة [١٥].

عقد منكوخان أيضاً معاهدات مع مملكة الكرج النصرانية، في جورجيا الآن. ومع أن تاريخ التتار مع مملكة الكرج كان تاريخاً أسود، إلا أن تاريخ الكرج مع المسلمين كان أكثر سواداً، ومن ثم فضّل نصارى الكرج التعاون مع عدوهم

الجديد التتار، ضد عدوهم القديم المسلمين، نظراً لأن الغلبة متوقعة للتتار، ولأن الحرب بين النصارى والمسلمين عقائدية، ومن المتوقع دوامها، وبالتالي ستدوم الكراهية من وجهة نظرهم مع المسلمين، بعكس التتار الذين لا دين لهم، أو يدين بعضهم بالنصرانية، وبالتالي عداوتهم مؤقتة. حسب المصالح، فإن فرغت المصالح أو تحققت، توقفت الحروب، وقد اتفقت مصالح مملكة الكرج النصرانية مع مصالح التتار الوثنية، فلا مانع من السير معاً في طريق واحد. وهذا أيضاً من سياسة [١٦].

هناك معاهدات أخر خطيرة، تلك المعاهدات عُقدت مع بعض أمراء المسلمين لتسهيل ضرب بلاد المسلمين، ولم يعقدها منكوخان بنفسه، استهانة وبهؤلاء الأمراء الذين عُقدت معهم، فقد كان كل واحد منهم لا يملك سوى بضعة كيلومترات، ومع ذلك يُسمي نفسه أميراً، بل ويُلقب نفسه بالألقاب الخطيرة.

وكّلَ منكوخان أخاه هولاكو في عقد هذه الاتفاقيات المخزية، فجاء أمراء المسلمين الضعفاء يُسارعون يُلقون بأنفسهم تحت أقدام هولاكو. فجاء إليه: بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ليتحالف معه. وجاء سُلطانا السلاجقة وهما: كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع، فتحالفا أيضاً مع هولاكو، وكانا في مكان حساس جداً، فهما في شمال العراق (تركيا الآن)، وتحالفهما يؤدي إلى حصار العراق من الشمال، وقد كان كيكاوس الثاني متزلفاً إلى التتار بصورة مخزية جداً.

أيضاً جاء الناصر يوسف، أمير حلب ودمشق، وهو حفيد الناصر صلاح الدين الأيوبي، جاء بصورة مينة، ولم يكتفي بالولاء للتتار، بل أرسل ابنه العزيز ليبقى مع هولاكو في جيشه كأحد أمرائه. وكذلك جاء الأشرف الأيوبي، أمير حمص ليقدم ولاءه لزعيم التتار [١٧].

لقد حقق التتار بهذه التحالفات ميزات عديدة، فقد زادت جداً من قوتهم، إذ أصبحوا يحاصرون العراق من كل مكان، ويَعرفون أخبار البلاد من داخلها، علاوة على ما فعلته هذه التحالفات أدت إلى إحباط شديد عند الشعوب، التي رأت حكامها على هذه الصورة المخزية، فضعُفت الهمم، وانعدمت الثقة في القَادة، ومن

ثم لم يعد لهم طاقة على الوقوف في وجه التتار.

كذلك وصل هولاكو في مجهوده السياسي والدبلوماسي إلى شخصية خطيرة في البلاط العباسي نفسه، فقد وصل إلى كبير الوزراء في الخلافة العباسية، وهو الوزير: مؤيد الدين العلقمي الشيعي. الشهير بابن العلقمي. وكان رجلاً فاسداً رافضياً شديد التشيع، كارهاً للسنة ولأهلها، والعَجب أن يصل مثل هذا الرجل، إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصفة. لقد وصلت الخلافة العباسية إلى طريق مسدود، ولا أظن أنه كان هناك حل آخر غير هذا، بعد أن ترك هذا الخليفة المستعصم بالله لهذا الوزير المفسد في هذا المكان الخطير، أربعة عشر سنة كاملة، من سنة ٦٤٢ هـ، إلى سنة ٦٥٦ هـ. عندما سقطت بغداد [١٨].

لقد اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، مستغلاً فساده وتشيعه وكراهيته للسنة، واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة التي يُقدمها للخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك في مُقابل أن يكون له شأن في مجلس الحكم. الذي سيُدير بغداد بعد سقوط الخِلافة، والتخلص من الخليفة. وقد قام الوزيرابن العلقمي بدوره على أكمل ما يكون. وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة. وعلى الأحداث التي مرت بالمنطقة في تلك الأوقات.

بالاطلاع على هذه الجهود الدبلوماسية التي قام بها الخان الأعظم للمغول، منكوخان، وأخوه: وهولاكو، يتبين أنهما بذلا جهداً كبيراً ضخماً للإعداد لهذه الحملة الرهيبة، والتي تهدف إلى إسقاط عاصمة الخلافة الإسلامية. والتي لم تعد في ذلك الوقت غير رمز فقط دون سُلطان أو سُلطة حقيقية على الأرض.

وقد نتج عن هذه الجهود الدبلوماسية التترية، تحقيق تعاوناً قوياً ومهماً وبناءاً، مع ملوك أرمينيا والكرج وانطاكية النصارى. وحيّدوا إلى حد كبير جانب حكام الإمارات الصليبية بالشام، وأقاموا تحالفات سرية مع نصارى الشام والعراق، وكذلك تحالفوا مع بعض أمراء المسلمين، ومع الوزير مؤيد الدين

العلقمي. فكان لهذه الجهود الدبلوماسية دور ملموس في إسقاط الخلافة الإسلامية. في نفس الوقت كان المسلمون وكأنهم مغيبين، لا يُقدمون أي جهد للحيلولة دون وقوع الكارثة [١٩].

المحور الثالث: الحرب النفسية على المسلمين

سبق القول أن هولاكو، لكي يكسب حربه مع بغداد، ويتمكن من القضاء على الخلافة العباسية، سلك مجموعة من المحاور متوازية، منها إعداد الطرق، وتهيئة الوسائل اللازمة لضمان الإمداد والتموين للحملة التترية، ومنها بذل الجهود الدبلوماسية الهائلة التي قام الخان التتاري منكوخان بنفسه، لضمان إنجاح خطتهم في إسقاط الخلافة الإسلامية، وها هو هولاكو في محور ثالث يلجأ إلى الحرب النفسية على المسلمين. وكان له في تنفيذ ذلك أكثر من وسيلة:

١ ـ القيام ببعض الحملات الإرهابية في المناطق المحيطة بالعراق لبث الرعب، والتذكير بالحملات التترية الهمجية السابقة في عهود جنكيزخان وأوكيتاي، فقد مر على الحملات التترية الأولى بقيادة جنكيزخان أكثر من ثلاثين سنة، وهناك من لم ير هذه الأحداث ، وليس من سمع كمن رأى، أيضاً فقد كانت الحملة التترية الثانية في عهد أوكيتاي ولم ترتكب من أعمال التدمير والإفناء والإبادة مثل فعل جنكيز خان، علاوة على إنها كانت موجهة في الأساس لروسيا وشرق أوروبا، ومن ثم لم يتأثر بها المسلمون بصورة كبيرة.

لذلك أراد هولاكو أن يقوم ببعض الممارسات التدميري والإرهابي لتذكير المسلمين بأن حروب التتار ما زالت لا تقاوم، وأن جيوش التتار ما زالت قوية ومنتشرة.

وأيضاً أحب هولاكو أن يقوم بجمع المزيد من المؤن ومستلزمات الجنود، علاوة على عمل استطلاع لأكبر مساحة ممكنة من الأراضي العراقية، والوقوف على الطبيعة الجغرافية للمنطقة، فقامت فرقة تترية في سنة ٦٥٠ هـ، بمهاجمة مناطق الجزيرة وسروج وسنجار، في شمال العراق، فقتلوا ونهبوا وسبوا، واستولوا

على أموال ضخمة كانت في قافلة تجارية، بلغت أكثر من ستمائة ألف دينار [٢٠].

٢ ـ أيضاً من حربهم النفسية ضد المسلمين الحرب الإعلامية، وكان يقودها ويروجها بعض أتباع التتار في بلاد المسلمين، حيث يتحدثون فيها عن قُدرات التتار الهائلة، واستعداداتهم الخُرافية، والتي يصعب مقاومتها، خاصة بإمكانيات المسلمين هذه، فتتسربت هذه الأفكار، فينقلها التجار الشعراء والأدباء والقصاصون والمؤرخون، وقد ظهر في كتاباتهم ما يَجعل المسلمين يحبطون تماماً من قتال التتار وذلك مثل:

ـ التتار يعرفون أخبار الأمم، وكل الأمم لا يمكنه معرفة أخبارهم.

ـ التتار يخفون نياتهم قتحركاتهم، ثم ينقضون مرة واحدة.

ـ نساء التتار يقاتلن كأحسن الرجالهم.

ـ خيول التتار تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، ولا تحتاج إلى علف مخصوص.

ـ الإمدادات دائماً من التموين والمؤن، دائماً متوفرة لديهم، لأنهم يتحركون بالأغنام والبقر والخيول، ولا يحتاجون مددا من أحد.

ـ التتار قوم أقرب إلى الوحوش، يأكلون يأكلون كل شيء، حتى البشر [٢١].

٣ ـ أيضاً من وسائل التتار المشهورة في الحرب النفسية كتابة رسائل التهديدية، وإرسالها إلى أُمراء المسلمين، وكان هؤلاء الأمراء يكشفون هذه الرسائل للناس، فترهبهم من التتار، ومع أن بطش التتار وظلمهم قد انتشر واشتهر، إلا أن كلام التتار ورسائلهم، من أنهم ينتمون لأصول إسلامية، وأنهم ما جاؤا إلا لتخليص الناس من الحكام الظالمين، كان يدخل في القلوب المريضة والضعيفة، فيعطي لها المبرر لقبول اجتياح التتار، ويعطي لها المبرر لإلقاء السيف، والرضا بدخولهم إلى أراضيهم، خاصة وأ، تلك الرسائل كانت في الغالب يكتبها مسلمون، وباللسان واللغة التي اعتاد المسلمون قراءتها وسماعها في تلك الفترة.

ومن أمثلة الرسالة التي أرسلها هولاكو إلى أحد أمراء المسلمين:

نحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبَّر، وطغى وتكبَّر، وبأمر الله ما ائتمر، نحن قد أهلكنا البلاد، وأبَدنا العباد، وقَتلنا النساء والأولاد، فيا أيها الباقون، أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيها الغافلون، أنتم إليهم تُساقون، مقصدنا الانتقام، وملكنا لا يُرام، ونزيلنا لا يُضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر؟ دمرنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وأذقناهم العذاب، وجَعلنا عظيمهم صغيراً، وأميرهم أسيراً، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون، وعن قليل تعلمون على ما تقدمون، وقد أعذر من أنذر[٢٢].

٤ . أيضاً كان من وسائل التتار في حربهم النفسية على المسلمين، إعلان التحالفات بين التتار وبين الأرمن والكرج وغيرهم، وإبراز رغبة الملوك الصليبيين في أوروبا في التعاون مع ملك التتار، وتضخيم هذه التحالفات جداً، حتى يَعتقد المسلمون أنهم يقاتلون أهل الأرض جميعاً، وأنهم لا طاقة لهم بحربهم، مع أن للمسلمين مع الفرس والروم سابقة خير، ولكن الوهن دخل القلوب، وافتقد الناس القدوة والإمام المخْلِص الصادق، فضعفت نفوسهم عن المقاومة، وانبهروا بقوة عدوهم وحلفائه، خاصة بعد أن وجدو الكثير من الأمراء المنوط بهم الوقوف في وجه الغزاة، هم من يُسرعون بالتصالح والتعاون مع هذا الغازي. وبذلك أصبح المناخ مناسباً جداً لدخول القوات التترية الغازية [٢٣].

المحور الرابع: إضعاف جيوش الخلافة العباسية

قلنا قبل ذلك أن هولاكو، لكي يكسب حربه مع بغداد، ويتمكن من القضاء على الخلافة العباسية، سلك مجموعة من المحاور متوازية، منها إعداد الطرق، وتهيئة الوسائل اللازمة لضمان الإمداد والتموين للحملة التترية، ومنها بذل الجهود الدبلوماسية الهائلة التي قام الخان التتاري منكوخان بنفسه، لضمان إنجاح خطتهم في إسقاط الخلافة الإسلامية، ومنها استخدام الحرب النفسية، وها هو هولاكو في محور رابع يلجأ إلى وسائل خير شريفة، ولكنها مباحة في الحرب، وهي العمل على إضعاف القوة الحربية، العددية والمعاتية لجيش

المسلمين. وكان له في تنفيذ ذلك طريقته:

عمد هولاكو إلى أن يطلب من الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، أن يُقنع الخليفة العباسي المستعصم بالله أن يخفض من ميزانية الجيش، وأن يُقلل من أعداد الجنود، وأن لا يصرف نظره عن قضايا تسليح الجيش، والاستعداد للحرب، بل ويُحول الجيش إلى الأعمال المدنية من زراعة وصناعة وغيرها، وقام الوزير مؤيد الدين العلقمي بتنفيذ تلك الوصية، أو هذا الأمر بالفعل، والعجيب أن الخليفة قبل تلك الأفكار المخجلة والتي تحمل كل معالم الخيانة والتقصر في حق الدين والوطن والشعب، وذلك حسب مشورة الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، معللاً ذلك له بأن الإتيان به يطمئن التتار من ناحيته، ولا يثير حفيظتهم وغضبهم عليه ، وليثبت لهم أنه رجل سلام ولا يُريد الحروب.

وبالفعل قام الخليفة المنحل، الذي لا يصلح أن يتولى اي شيء من أمور المسلمين، قام فعلاً بخفض ميزانية التسليح، وقام بتقليل عدد الجنود، حتى اصبح الجيش العباسي من مائة الف فارس في آخر ايام المستنصر بالله والد المستعصم بالله سنة ٦٤٠ هـ اصبح لا يزيد على عشرة آلاف فارس فقط في سنة ٦٥٤ هـ، مما مثل نقصاً هائلاً في الإمكانيات العسكرية والقتالية للدولة، على مستوى العدد والعدة، وأصبحت الجنود في حالة مزرية من الفقر والضياع، حتى إنهم كانوا يَسألون الناس في الأسواق، وأُهملت التدريبات العسكرية، وفَقد قواد الجيش مكانتهم، وأُهمل أصحاب المواهب وأهل القدرة على التخطيط والإدارة والقيادة، ونَسي المسلمون فنون القتال والنِّزال، وغابت عن أذهانهم معاني الجهاد، والنخوة والحمية الوطنية والدينية [٢٤].

موقف هولاكو بعد خمس سنوات من التحضير

بعد خمس سنوات كاملة من الإعداد والتجهيز للحرب، وفي ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ/ يناير ١٢٥٦م، صار موقف هولاكو كما يأتي:

١- أصبحت كل الطرق الواصلة بين الصين والعراق قادرة على استيعاب

الأعداد الهائلة من الجيوش التترية، وصُنعت العربات اللازمة لنقل المعدات الثقيلة، وفرغت السهول والطرق من المواشي لترك الأعشاب لخيول التتار.

٢- سيطر التتار على كل المحاور المهمة في المساحات الشاسعة، التي تقع بين الصين والعراق، وبذلك تحققت مهمة تأمين الجيوش التترية أثناء سيرها واختراقها لهذه الأراضي، وأمن من أي مفاجأة غير سارة.

٣- توفرت لدى هولاكو المعلومات الكافية عن أرض العراق، وتحصينات بغداد، وأعداد الجنود العباسيين وحالتهم العسكرية، واطلع اطلاعاً كاملاً على خبايا الاقتصاد الإسلامي، وأيضاً توفرت له المعلومات عن عناصر القوة والضعف في الخلافة العباسية، بعد تنفيذ ابن العلقمي لما كُلف به، وعن الأسماء التي لها دور في تغيير مسار الأحداث، وكذلك جمع المعلومات عن حالة الناس النفسية، بعد كل هذا البث النفسي السلبي، كما تعرف تماماً على طموحات الناس ورغباتهم [٢٥].

٤- قام الخان الأعظم للتتار: منكوخان بعقد معاهدات وتحالفات مع نصارى الأرمن والكرج وانطاكية، وأخذ منهم الوعود بالمساعدة العسكرية والمخابراتية في المعركة القادمة.

٥- تم الاتفاق مع معظم أمراء الممالك الإسلامية المحيطة بشمال وغرب العراق : كتركيا وسوريا، على أن يُعطوا الولاء الكامل، والمساعدة غير المشروطة لهولاكو، وذلك في حال حربه مع الخلافة العباسية.

سابعاً: انهيار الروح المعنوية عند المسلمين في العراق وما حولها، واستوى في ذلك الحكام والمحكومون.

ثامناً: اقام هولاكو علاقات وثيقة مع وزير الدولة الأول مؤيد الدين العلقمي الشيعي، وضمن ولاءه التام له.

تاسعاً: وضح لهولاكو ضعف جيش الخلافة العباسية وعدم جدوى مقاومته، وأدرك العباسيون والمسلمون نفس النتيجة، انه لن يستطيعوا الدفع عن نفسه فضلاً عن بغداد

عاشراً: أدرك هولاكو كل شيء عن الخليفة العباسي: المستعصم بالله، وعَرف إمكانياته واكتملت هذه المنظومة المعلوماتية الاستخباراتية، لدى لهولاكو في سنة ٦٥٤هـ [٢٦].

وبعد خمس سنوات من الإعداد، اتضح لهولاكو أن كل العوامل والظروف أصبحت ملائمةً للانقضاض على الخلافة العباسية، وإسقاط بغداد، فحشد جنود التتار، ليجمع تحت يده أكبر جيوش التتار على الإطلاق، منذ قامت دولة جنكيزخان، بحيث كان الجنود المكلفون بحصار بغداد فقط أكثر من مائتي ألف جندي، بخلاف الأعداد الهائلة من الجنود المنتشرة في شمال العراق وشرقه، والقوات المكلفة بحماية الطرق وتأمين الإمداد والتموين، هذا غير الفرق المساعدة للجيش سواء فرق الإمداد والتموين، أو فرق الاستطلاع والمراقبة.

تركيبة الجيش التتري المرابض حول العرق

مع أن الجيش العراقي، والقاوات الإسلامية التي كان من المتوقع أو المحتمل أن تُشترك في الحرب ضد جيوش التتار، بقيادة القائد هولاكو، اخو الخان المغولي منكوخان، لم تكن بالحجم الذي يخيف المغول، إلا انهم، اي المغول ظلوا يستعدون للهجوم على بغداد خمس سنين، يدبرون خلالها أنفسهم بكل الوسائل، وهذا يعطينا تصوراً اظنه حقيقي، وهو انه لو توحد القوة الإسلامية في بلاد الشام، مع القوات الإسلامية في مصر لأمكنهم كسح التتار، وهو ما سيحدث على يد القوات المصرية بقيادة قطز فيما بعد، ولكن هذا قضاء الله.

ومن اجل أن تكون تلك القوات المرابضة، قادرة على تنفيذ المخطط لها من أول ضربة، حرص هولاكو ان يوفر لها كل عناصر القوة، فقام بما يأتي:

- ضم جيش التتار الأصلي، الذي يتمركز منذ سنوات في منطقة فارس وأذربيجان شرق العراق.

- ضم فرقة من جيش التتار المتمركزة في حوض نهر الفولجا الروسي، استدعاها هولاكو، وكانت تحت زعامة القائد التتري الشهير باتو فاتح أوروبا، فجاءت مع ثلاثة من أبناء أخي القائد باتو، الذي كان قد استقر هو وعائلته ،

وكونوا دولة مستقرة في منطقة حوض نهر الفولجا، وسموا أنفسهم االقبيلة الذهبية، وحصل لهم استقلالٌ نسبي في إدارة أمورهم، إلا إنهم كانوا في النهاية يتبعون زعيم التتار الخان: منكوخان.

- أرسل هولاكو في طلب فرقة من جيش التتار المكلف بفتح أوروبا، والذي كان يتمركز على أطراف الأناضول- شمال تركيا- ، فجاءت الفرقة وعلى رأسها القائد المغولي الكبير: بيجو، وقد جاءت هذه الفرقة مخترقة الأناضول وشمال العراق، ومتجهة إلى بغداد، ولم تلق أي نوع من المقاومة أثناء هذا الطريق الطويل؛ لأن حكام هذه المناطق المسلمة كانوا أخلوها لقوات التتار، فسارت في أمان وسط إمارات الأناضول والموصل وحلب وحمص، وكأنها ليست عربية ولا إسلامية.

- أرسل هولاكو إلى هيثوم ملك أرمينيا، وهو صديق له، يَطلب منه المساعدة، فجاءه بنفسه على رأس فرقة من جيشه [٢٧].

- وفاق ملك الكرج أن يرسل فرقة للمساعدة في حصار العراق، بناء على طلب هولاكو.

- دعَّم هولاكو جيشه المُعد لغزو العراق بألفاً من الرماة الصينيين المهرة، الذين اشتهروا بتسديد السهام النارية،

- وضع هولاكو ،القائد: كتبغا نوين، على رأس جيوشه، لكونه من أفضل قواد التتار معه، وكان هذا القائد علاوة على تميزه في القيادة، أنه كان نصرانياً، فهو يوفر عنصر تفاهم، يستطيع التعامل مع الأعداد الكبيرة النصرانية المشاركة في الجيش، وبذلك صار ضمن صفوف الجيش التتري ثلاثة من أمهر القادة العسكريين في تاريخ التتار، وهم: هولاكو وكتبغا وبيجو.

- حاول هولاكو أن يضم أكبر عدد من أمراء المناطق القريبة، فأرسل في طلب العون من أمير انطاكية: بوهمند، ولكن تعذر عليه أن يخترق الشام كله للذهاب إلى العراق، ولكنه أبدى كان على استعداداً تاماً للحرب لصالح المغول إذا سقطت العراق، حيث يشارك في إسقاط الشام.

- انضم الناصر يوسف أمير دمشق، للحرب بجانب هولاكو، فأرسل ابنه العزيز ليكون في جيش المغول.

- أرسل أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فرقة مساعدة لجيش التتار، وهاتان الفرقتان وإن كانتا هزيلتين إلا إنهما كانتا تحملان معاني كثيرة. فهناك في جيش التتار مسلمون يشتركون مع التتار في حرب المسلمين، عراقيون باعوا كل شيء في مقابل كرسي صغير أو إمارة تافهة او دارهم معدودات. أو لمجرد البقاء على قيد الحياة.

وبعد أن تم الإعداد بهذه الصورة المحكمة، احس هولاكو ان قواته قد صارت جاهزة للحرب، وأن جيشه صار مستعداً لغزو العراق، وبدأ في انزحف من فارس في اتجاه الغرب إلى العراق، وبدا هولاكو يَضع خطة المعركة [٢٨].

هولاكو يهاجم الإسماعيلية ويقضي عليهم

كانت طائفة الإسماعيلية الشيعية تتمركز في الجبال في غرب فارس، وشرق العراق، ووجد هولاكو أنه لو أقدم على قتال الدولةالعباسية، مع وجد هذه الفرق، وهل المشهورة بالفتك والجسارة في القتال، وبالحصون المنيعة، وهي طائفة لا عهد لها ولا أمان. وجد ان ذلك سيمثل خطورة على الجيش التتري، فطائفة الإسماعيلية مشهورة بقوة القتال، ومع ان التتار يَعلمون أن الإسماعيلية كانوا على خلاف شديد مع الخلافة العباسية، ومع أنهم راسلوا قبل ذلك التتار ليدلوهم على ضعف جلال الدين بن خوارزم، قبل مقتله في سنة ٦٢٩ هـ، ومع أنهم من المنافقين الذين يتزلفون لأصحاب القوة. مع كل هذه الاعتبارات إلا أن التتار لم يكونوا يأمنون أن تتحرك الجيوش التترية إلى العراق، ويتركون في ظهرهم قوات عسكرية للإسماعيلية.

هذا بالإضافة إلى ثأر قديم كان بين التتار والإسماعيلية، فقد قَتلت الإسماعيلية: جغتاي ابن جنكيزخان،وذلك ايام حملة جنكيزخان على فارس، منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم ينس التتار هذا الثأر لأنه يخص ابن الزعيم

الأكبر لهم، والذي جَعل منهم مملكة لها شأن في الدنيا، كما أن حكام التتار من نفس عائلة جنكيزخان، ويَعتبرون الثأر من الإسماعيلية مسألة شخصية بحتة، حتى إن الجيوش التترية كانوا يَصحبون معهم في حربهم ابنة جغتاي هذا، لزيادة حماستهم في القتال، ولكي تقوم بنفسها بالثأر لأبيها. كل هذا دفع هولاكو إلى التخلص من الإسماعيلية نهائياً، قبل ملاقات جيوش الدولة العباسية، وصدرت الأوامر من مقر الخانية المغولية، من قراقورم بمنغوليا، بإبادة هذه الطائفة من على الوجود [٢٩].

اقتلاع جذور الدولة الاسماعيلية:

في ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ/ يناير ١٢٥٦م، اصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق، وإقامة جسر على نهر جيحون حيث عبرت قواته النهر متوجهة إلى قلاع الإسماعيلية، فنزل في مرعى شبورقان بالقرب من مدينة بلخ، فامضى به الشتاء [٣٠].

ثم تحركت القوات المغولية ارئيسية، بقيادة هولاكو إلى قلاع الإسماعيلية الحصينة، واستطاع بالحيلة تارة، وبالقوة تارة اخرى أن يستولي على تلك القلاع، الواحدة تلو الأخرى، وتحركت أخيراً الجيوش المغولية الهائلة صوب معقل الإسماعيلية الأعظم، وأقوى حصونهم على الإطلاق وهو حصن آلموت، في غرب فارس، في أواخر سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م، وما هي إلا أيام حتى تم تطويق الحصن المنيع، ولما شاهد زعيم الإسماعيلية: ركن الدين خورزمشاه، هذه الأعداد التي لا تُحصى، طَلب ان يُقابل هولاكو، وقبل هولاكو أن يلتقي، ليختصر الوقت، فالإسماعيلية ليست إلا محطة صغيرة قبل الوصول إلى بغداد، والتقى هولاكو بركن الدين خورشاه، الذي أَعلن خضوعه الكامل لهولاكو، وقبَّل الأرض أمامه، وأعلن استعداده لتسليم القلعة الحصينة، ولكن قائد القلعة رفض التسليم، وصمم على القتال، عاصياً بذلك أمر قائده ركن الدين خورشاه، إلا أن التتار تمكنوا من فتح القلعة عنوة بعد ذلك بأيام، وذبحوا كل من فيها [٣١].

وبذلك تمكن المغول من الاستيلاء على كل قلاع الإسماعيلية التي بلغ عددها نحو المائة، والتي اتخذها هؤلاء الإسماعيليون أوكاراً لهم سنين طويلة، ولم يكتف هولاكو بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية فحسب، في تلك المناطق، بل طلب من ركن الدين خورشاه تسليم جميع قلاع الإسماعيلية في بلاد الشام، فطلب ركن الدين خورشاه من هولاكو أن يرسله إلى الخان الأعظم منكوخان، ليتفاوض معه شخصياً في تسليم كل قلاع الإسماعيلية، في مقابل بعض الوعود، وقد أرسله فعلاً هولاكو إلى منكوخان مُحاطاً بفرقةٍ تترية، ولكن منكوخان رَفض أن يقابله واستحقره جداً وقال: إن هولاكو قد أخطأ بإرهاق الخيول التترية الجيدة في هذه الرحلة الطويلة، من أجل هذه السفارة التافهة. ثم أمر جنوده بإعادة ركن الدين خورشاه إلى فارس، وفي الطريق قُتِل ركن الدين خورشاه كما يقولون في ظروف غامضة، وإن كانت الظروف ليست بغامضة فمن الواضح أن منكوخان قد أوصى بقتله، ولكن خارج البلاط المغولي لئلا يُتهم البلاط بالغدر، وهذا شيء عادي، بالنسبة للمغول كقتلة، وبالنسبة لجلال الدين كفاجر [٣٢].

وبعد قتل ركن الدين خورشاه قام هولاكو بخدعة في مناطق الإسماعيلية، فقد أظهر لهم أنه على استعداد للاتفاق معهم، والتعاون سوياً لدخول بغداد، وطلَب من قواد الإسماعيلية أن يقوموا باستدعاء الإسماعيلية من كل مكان حتى يقوم التتار بعملية إحصاء لأعداد الإسماعيلية، وعلى ضوء هذا الإحصاء سيكون الاتفاق، بينه وبينهم، لأنه يخشى أن يضخم الإسماعيلية أنفسهم للحصول على مكاسب أكبر. وبهذه الحيلة بدأ الإسماعيلية في جمع كل أعوانهم حتى جاء رجالٌ من العراق ومن الشام، وعندما اجتمع هذا العدد الكبير أوقع بهم هولاكو بمذبحة بشعة، وقتل كل من طالته يده، ولم ينس أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى سالقان خاتون، ابنة جغتاي، وحفيدة جنكيزخان لتقتلهم بيدها لتأخذ بثأر أبيها جغتاي المقتول على يد هؤلاء الإسماعيلية قبل ذلك [٣٣].

وهكذا تم في خلال سنة ٦٥٥هـ، استئصال شأفة الإسماعيلية في هذه المنطقة كلها تقريباً، ولم ينج منهم إلا الشريد الذي كان يعيش في الشام أو العراق، ولم يأت في عملية الإحصاء المزعومة.

وبذلك أصبح الطريق آمناً ومفتوحاً إلى بغداد، وبدأت الجيوش المغولية الرابضة في فارس تزحف ببطء، ولكن بنظام معلوم ومحدد، في اتجاه عاصمة الخلافة، ووضح للجميع أن اللحظات المتبقية في عمر العاصمة الإسلامية أصبحت قليلة جداً [٣٤].

المراسلات بين هولاكو والخليفة العباسي

بعد أن حقق هولاكو خان هدفه الأول، وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني، وهو القضاء على الخلافة العباسية، وفي رمضان سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م، أرسل هولاكو رسالة إلى الخليفة مليئة بالتهديد والوعيد، جاء فيها: لقد أرسلنا إليك رُسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تَبعث الجند، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطُغاة، فلم تُرسل إلينا الجند والتمست العذر، ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حل بالعلم والعالمين على يد الجيش المغولي، منذ عهد جنكيز خان إلى اليوم، والذي حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والاتابكية، وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مُغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملكاً لهم، فكيف يُغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟ [٣٥].

ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك احذر الحقد والخِصام، ولا تضرب المخصف بقبضة يدك، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب، ومع هذا فقد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة، فليهدم الحصون ويردم الخنادق، ويُسلم البلاد لابنه، ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور فيرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه، والدواتدر، ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقصان، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكن

واجبنا أن نُكن له الحقد، وسَنُبقي له على دولته وجيشه ورعيته، أما إذا لم يُصغ إلى النُّصح، وآثر الخلاف والجدال، فليُعَين الجند وليُعَين ساحة القتال، فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد، وحينما أقود الجيوش إلى بغداد، مندفعاً بثورة الغضب، فإنك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض... فسوف انزلك من الفلك الدوار، وسوف القيك من عليائك إلى أسفل كالأسد، ولن أدعك حياً في مملكتك وسأجعل مدينتك وإقليمك واراضيك طُعمة للنار، فإذا أردت أن تحفظ راسك واسرتك فاستمع لِنُصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله [٣٦].

ورفض المعتصم بشدة، وردّ على هولاكو برسالة كلها احتقار قال فيها: ايها" الشاب الحدث... المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً في يومين من الإقبال، متوهماً أن امره قضاء مُبرم، وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده؟ الا يَعلم الأمير انه من الشرق إلى الغرب، وانه من الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الباب ممن يؤمنون بالله ويَعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي. إنني حينما أُشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، واضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملؤ بالقلق والاضطراب.

غير أني لا أُريد الحقد والخصام، ولا أن أشتري ضرر الناس وايذائهم. كما انني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وانني مع الخاقان هولاكو خان قلب واحد ولسان واحد. واذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم. فاسلك طريق الود وعُد إلى خُراسان، وإن كنت تُريد الحرب والقتال، فلا تتواني لحظة ولا تَعتذر، إذا استقر رأيك على الحرب، أن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال، وانهم ليثيروا الغبار من ماء البحر، وقت الحرب والطعان [٣٧].

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطّلع على رسالة الخليفة، وعَلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد، غضب غضباً شديداً، وأعاد رسل المعتصم،

وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة، إذ يقول: لقد فتنك حب الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإن في أذنيك وقراً، فلا تسمع نصح المشفقين ولقد انحرفت عن طريق آباءك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم [٣٨].

وقبل أن يَقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجمين، فيما يتعلق بأحكام النجوم، وطوالع السعد والنحس، أما الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قِبل خان المغول الأعظم: منكوقاآن، فقد كان سُنياً يعطف على الخليفة العباسي، ويَحرص على أن يمنع هولاكو من غزو بغداد، فراح يؤكد له أن هذه الحملة تحدث خَللاً في نظام الكون، فضلاً على أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه، فكان مما قاله له: الحقيقة أن كل ملكٍ تجاسر على قصد الخلافة والزحف بالجيش على بغداد، لم يَبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الملك أن يستمع إلى نصائحي، وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ستة مصائب كبيرة:

. تموت الخيول كلها، ويمرض الجنود.

. لن تطلع الشمس.

. لن ينزل النبات في الأرض.

. لن ينزل المطر.

. تهب رياح شديدة، ويعاني العالم من الزلازل.

. يموت الخان الأعظم في هذا العام [٣٩].

وأما الأمراء المغول فقد قالوا: إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة، لذلك استدعى هولاكو خان: نصير الدين الطوسي لاستشارته، ويبدو أنه كان يَكره الخليفة، فعمل على إسقاطه، وأنقض كل ما قاله حسام الدين، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو، بل أيد وجهة نظره بالحجج

القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين، فذَكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ماتوا في الدفاع عن الدين، ومع ذلك لم تَقع أية كارثة، وإذا قيل أن ذلك خاص ببني العباس، فإن الكثير من الناس قد خَرجوا على هذه الأُسرة وقَتلوا منهم بعض الخلفاء، دون أن يَحدث أي خلل، وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمد الأمين، وبالأمراء الذين قَتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم [٤٠].

عقد العزم على التحرك نحو بغداد

بعد أن قضى هولاكو على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني، الذي رسمه له أخوه الخان الأعظم للمغول: منكو خان، وهو الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية، التي أدركتها الشيخوخة وظَهرت عليها مظاهر الضعف والانهيار، والضعف والتفكك من قبل مجئ المغول بمدة طويلة، بسبب عوامل كثيرة، منها ما ذكرناه أول الكتاب، وخلاله، ومنها: أنه قد تفككت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بمختلف الأمصار الإسلامية، حيث نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة العباسية وأطرافها وعندما بدأ المغول زحفهم على الممالك الإسلامية في الشرق، كان الخليفة العباسية في ذلك الوقت هو: المعتصم بالله - (٦٤٠/١٢٤٢م/ ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) [٤١].

تحرك المغول نحو عاصمة الخلافة العباسية

اجتمع هولاكو مع كبار مستشاريه في مجلس حرب يُعد من أهم مجالس الحرب في تاريخ التتار، لقد أخذ القرار بغزو العاصمة بغداد، وكان هولاكو قلقاً من أي مفاجئات، وبالذات من الأمراء المسلمين الذين انضموا إلى جيشه، ولذلك وضع على الفرق الإسلامية التي معه مراقبة شديدة، ولكن مخاوفه لم تمنعه من التقدم، كما أنها لم تكن حقيقية، لأن الأمراء المسلمين الذين انضموا إليه لم يكن في نيتهم أبداً الغدر بهولاكو، إنما كان كل العزم أن يغدروا ببغداد.

كان مجلس الحرب معقوداً في مدينة: همدان الفارسية - في إيران حالياً - وهي تقع على مسافة حوالي٤٥٠ كيلو متراً من بغداد إلى الشمال الشرقي، وقرر هولاكو في هذا المجلس تقسم جيشه إلى ثلاثة اقسام:

الجيش الأول: هو القلب، وهو القسم الرئيسي من الجيش، وسيقوده هولاكو بنفسه، وستلحق به الإمدادات التي سيرسلها الأمير: باتو زعيم القبيلة الذهبية التترية، وكذلك ستلحق به الفرق المساعدة من مملكتي أرمينيا والكرج، وهذا القسم من الجيش سيخترق الجبال الواقعة في غرب فارس، في اتجاه بغداد مباشرة، مروراً بمدينة كرمان شاه، وستكون مهمة هذا الجيش حصار شرق بغداد [٤٢].

الجيش الثاني: هو الجناح الأيسر لجيش التتار، وسيقوده كتبغا، افضل قُواد هولاكو، وسيتحرك هذا الجيش بمفرده في اتجاه بغداد أيضاً، ولكن إلى الجنوب من الجيش الأول، وقد تم فصل الجيشين حتى لا تستطيع المخابرات الإسلامية، لو فكرت في تتبع ابار التتار، ان تُقدر العدد الصحيح للجيش التتري، بالإضافة إلى أن الطُرق لا تستوعب هذه الأعداد الهائلة من الجنود، فضلاً على أن هذا الجيش ستكون له مهمة اختراق سهول العراق، والتوجه إلى بغداد من جهة الجنوب، وحصارها من جهتيها الجنوبية الشرقية.

ومع ان المسافة المطلوب قطعها، تبلغ ٤٥٠ كيلومتراً، إلا ان هولاكو كان على حذر كافٍ، بحيث استطاع أن يُخفي هذا الجيش عن عيون العباسيين، فلم يكتشف العباسيون الجيش إلا وهو على بعد كيلومترات معدودة من بغداد، ولعل من اتى لهم بالخبر أحد كان الرعيان، وليس عين مخابراتية.

أما الجيش الثالث: فكان هو الجيش التتري الرابض على أطراف الأناضول - في شمال تركيا الآن - والذي كان مكلفاً بفتح أوروبا قبل ذلك، وعلى رأس هذا الجيش الزعيم التتري الكبير بيجو، وكان على هذا الجيش أن يأتي من هذه المناطق الشمالية في اتجاه الجنوب حتى يَصل بغداد من شمالها، ثم يلتف حولها ليحاصرها من جهة الغرب، وبذلك تُحصر بغداد بين هولاكو

شرقاً، وكتبغا من الجنوب الشرقي وبيجو من الغرب، لولا أن ظهرت له مشكلتين كبيرتين:

الأولى: أن عليه أن يصل بغداد في نفس الوقت الذي يأتي فيه جيش هولاكو، حتى ل يجد نفسه يحارب العباسيين وحده، أو يترك هولاكو وحيداً إن تأخر في الوصول، ومع كل معوقات الاتصال وصعوته في تلك الأيام، إلا أن القائد بيجو وجيوشه الجرارة وصلوا في التوقيت المناسب إلى بغداد، بمهارة في التحرك، ودقة في الحساب، بهذا الجيش الكبير [٤٣].

الثانية: هي أن هذا الجيش الثالث لكي يصل إلى بغداد، عليه أن يخترق مسافة خمسمائة كيلومتر في الأراضي التركية، ثم خمسمائة كيلومتر أخرى في الأراضي العراقية، وهذه كلها اراضٍ إسلامية، أي أنه يجب أن يسير مسافة الف كيلومتر في أعماق العالم الإسلامي، حتى يصل إلى بغداد، وأقل المخاطر التي تواجه هذا الجيش أن يُكتشف أمره، فيفقد عنصر المباغتة، أو يجد مقاومة شرسة في طريقه المليء بالتجمعات السكنية الهائلة، وكلها تجمعات إسلامية، أو أن تُنصب له الكمائن، خاصة وأنه يمر في أرض يدخلها للمرة الأولى في حياته، لكن كل هذا لم يحدث، لقد قطع بيجو بجيشه ٩٥٪ من الطريق، أي حوالي ٩٥٠ كيلومترًا دون أن تشعر به، ولا بغيره الخلافة.

لقد باغتت الجيوش المغولية، سواء التي تحت قيادة القائد بيجو، أو التي تحت قيادة هولاكو، باغتت الخلافة العباسية، بأنها على بعد خمسين كيلومترًا فقط شمال غرب بغداد، لقد اكتشف العباسيون جيش بيجو، تماماً كما اكتشفوا جيش هولاكو، عندما كان كلا الجيشين على مسيرة يوم واحد من بغداد [٤٤].

لقد كان هناك خيانة كبرى من أمراء الأناضول والموصل المسلمين، فقد كان هناك كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع أمراء الأناضول، وبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل، الذي لم يكتف بتسهيل مهمة التتار، وبالسماح لهم باستخدام أراضيه للانتقال والعبور، بل أرسل مع التتار فرقة مساعدة تعينهم على غزو

العراق، وكان يبلغ من العمر ثمانين عاماً، وقيل: مائة، وقد مات بعد هذه الخيانة بشهور معدودات. وهكذا فتح أمراء البلاد الإسلامية الأبواب لجيش التتار، ولم يحدث أي نوع من المقاومة، وسار الجيش التتري كأنه في نزهة، وقد تخلى عن ارتكاب أي مزابح في طريقه لكي لا يلفت أنظار الخلافة في بغداد، ورضي الناس منه بتجنب شره، وخافوا أن يدلوا عليه خشية أن ينتقم منهم بعد ذلك [٤٥].

أحوال بغداد قبل السقوط

كانت بغداد في ذلك الوقت من أشد مدن الأرض حصانة، وكانت أسوارها من أقوى الأسوار، فهي عاصمة الخلافة الإسلامية لأكثر من خمسة قرون، وانفق على تحصينها مبالغ طائلة وجهود هائلة، لكنها كانت تحتاج إلى رجال، ولكن ندر الرجال في ذلك الزمن [٤٦].

يقول ابن كثير مثلاً: كان الخليفة العباسي المستعصم بالله، حسن الصورة جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه المستنصر بالله، في العدل، وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد، وكان سنياً على مذهب السلف، ولكن ماذا يقصد بأنه على مذهب السلف؟! لقد كان السلف يحبون الموت، يحب عدوهم الحياة، وكانو يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولقد عقب ابن كثير فقال: وقد كان رحمه الله سُنيا على طريقة السلف واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجَمعه، ومن جملة ذلك أنه استحل الوديعة التي استودعه إياها الناصر داود بن المعظم، وكانت قيمتها نحوا من مائة الف دينار، فاستقبح هذا من مثل الخليفة، قتلته التتار مظلوما مضطهدا في يوم الاربعاء رابع عشر صفر من هذه السنة، وله من العمر ستة واربعون سنة وأربعة اشهر، وكانت مدة خلافته خمسة عشر سنة وثمانية أشهر واياماً [٤٧].

لقد افتقر الخليفة العباسي المستعصم بالله، إلى: القُدرة على إدارة الأزمات، وكفاءة القيادة، وعلو الهمة، والأمل في سيادة الأرض والنصر على الأعداء، ونشر

دين الله، لقد افتقر إلى الشجاعة التي تمكنه من أخذ قرار الحرب في الوقت المناسب، لقد افتقر إلى القدرة على تجميع الصفوف، وتوحيد القلوب، ونبذ الفُرقة، ورَفع راية الوحدة الإسلامية، لقد افتقر إلى حُسن اختيار أعوانه، فتجمعت من حوله بطانة السوء، الوزراء يَسرقون، والشرطة يَظلمون، وقواد الجيش متخاذلون، لقد افتقر إلى محاربة الفساد، فعم الفساد وطغى، وكثرت الاختلاسات من أموال الدولة، وعمَّت الرشاوى، وطغت الوساطة، وانتشرت اماكن اللهو والفساد والإباحية والمجون، بل وأُعلن عنها صراحة، ودُعي إليها على رءوس الأشهاد، الراقصات الخليعات ما كنَّ يختفين في هذا البلد الإسلامي، بل يُعلنَّ عن أنفسهن صراحة [٤٨].

لقد ضعف الخليفة تماماً عن حمل مسؤولية الشعب، نعم كان الخليفة محسنًا في أداء شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة، نعم كان لسانه نظيفاً، وكان محباً للفقراء والعلماء، وكل ذلك جميل في مسؤوليته أمام نفسه، لكن اين مسؤوليته أمام مجتمعه وأمته؟ كان باستطاعة الخليفة أن يدبر من داخل العراق مائة وعشرين ألف فارس، فضلاً عن المشاة والمتطوعين، وكان الجيش التتري المحاصر لبغداد مائتي ألف مقاتل، وكان هناك أمل كبير في رد الغُزاة، لكن الخليفة كان مهزوماً من داخله، وكان فاقداً للروح التي تمكنه من المقاومة، كما انه لم يُربِّ شعبه على الجهاد، ولم يُعلمهم فنون القتال، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الخليفة لم يكن على قدر المسئولية والأمانة، لقد اهلك هؤلاء ولا يزالون يُهلكون الأمة بعدم جدارتهم لأي مسئولة، ومع هذا لا يزال الكثير ممن على شاكلة هذا الخليفة الفاشل، يتصدرون المشهد، فلا هم يتحركون ناحية الخير والصواب بأمتهم، ولا هم يتنحون ويَفسحون الطريق لأهل الكفاءة للنهوض بأمتهم [٤٩].

لقد كان الشعب في بغداد آنذاك كبيراً ضخماً، كان تعداد بغداد في هذا الوقت، حسب بعض التقديرات، يبلغ ثلاثة ملايين نسمة تقريباً، إلى جانب السكان في المدن والقرى المحيطة، إذن فلم يكن ينقصها الطاقة البشرية، ولكنهم

كانوا شعباً مترفاً، ألِف حياة الدعة والهدوء والراحة، الملتزم فيهم بدينه اكتفى بتحصيل العلم النظري، والصلاة في المساجد، وقراءة القرآن، ونَسوا الفريضة ذروة سنام الإسلام، وهو الجهاد.

أيضاً كان ببغداد الكثير من أهل الدينا، وأهل الشهوات، عاشوا لشهواتهم وملذاتهم، وتنافسوا في ألوان الطعام والثياب، وفي أعداد الجواري والغلمان، وفي أنواع الديار والحدائق والبساتين والدواب، ومنهم من التهى بسماع الأغاني والألحان عن سماع القرآن والحديث، ومنهم من شرب الخمر، ومنهم من سرق المال، ومنهم من ظلم العباد، وفوق ذلك ظلوا قرابة الأربعين سنة يَسمعون عن المذابح البشعة التي تتم على إخوانهم المسلمين في أقطار الدولة الخوارزمية، وبلاد فارس، وخُرسان وغيرها، ولم يتحركوا، بل قيل أن خليفتهم الناصر لدين الله جد المستعصم بالله هذا، كان يُساعد التتار ضد المسلمين الخوارزمية ولم يتحركو، وقد جاء اليوم الذي سيهلكهم الله، ولن يتحرك لنجدتهم أحد [٥٠].

حصار بغداد عاصمة الخلافة العباسية

وبينما المسلمون على هذه الحالة إذ ظهر فجأة جيش هولاكو قبالة الأسوار الشرقية لبغداد، وكان ذلك في يوم ١٢ محرم من سنة ٦٥٦ هجرية، وكان هولاكو قد نزل أوائل المحرم سنة ٦٢٥هـ/١٢٥٧م، من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان، وكان معه في تلك الغزوة الأمير أرغون والخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين، بهادر بن عبد الله الخوارزمي البينكجي، وعلاء الدين عطاء الجويني، وقد استطاع هولاكو أن يستميل إلى جانبه سكان الأماكن الجبلية المتاخمة للعراق،بواسطة الأموال التي كان يبذلها لهم، كما استطاع أن يضم إليه كثير من جنود سليمان شاه [٥١].

وبدأ هولاكو في نصب معدات الحصار الثقيلة حول المدينة، وجاء كذلك كتبغا بالجناح الأيسر من الجيش، ليحيط بالمدينة من الناحية الجنوبية الشرقية، وارتاع خليفة المسلمين، واجتمع بكبار مستشاريه، وعلى رأسهم الوزير مؤيد الدين العلقمي. بالطبع كان مؤيد الدين العلقمي وبطانته يؤيدون

مُهادنة التتار ومسالمتهم، وتقديم ما يلزم من التنازلات، وكان مؤيد الدين يوسع الفجوة جداً بين إمكانيات التتار وإمكانيات المسلمين، كي لا يبقى هناك أمل في المقاومة [٥٢].

وقام مجاهد الدين أيبك، وسليمان شاه يَحضان الخليفة على المقاومة، لقد جاء ذلك متأخراً جداً، لأن زمن الإعداد انتهى منذ فترة، وحان وقت الاختبار، لعلهما كانا يشيران بالجهاد ولا يَسمع لهما أحد، خاصة أن العلاقات كانت متوترة جداً بين مؤيد الدين العلقمي، ومجاهد الدين أيبك منذ زمن طويل، ولابد للعلاقات بين رجل خائن ورجل أمين أن تتوتر، لكن لطالما استمع الخليفة لكلام الخائنين [٥٣].

الخليفة يقرر قتال المغول

حاول الخليفة أن يجرب موضوع الجهاد، فخرجت فرقة هزيلة من الجيش العباسي يقودها: مجاهد الدين أيبك، لتلاقي جيش هولاكو المهول، وبمجرد خروج الجيش العباسي واستعداده لملاقاة هولاكو، جاءت الأخبار إلى مجاهد الدين أيبك، أن هناك جيشاً تترياً آخر يأتي من جهة الشمال، وهو جيش الأمير: بيجو القادم من أوروبا عبر أراضي تركيا وشمال العراق، وكان ذلك الجيش قد عَبر الأراضي العراقية شرق نهر دجلة، حتى إذا وصل إلى الموصل عبر نهر دجلة إلى الناحية الغربية منه، وسار في الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات حتى اقترب من بغداد، وأصبح على بعد خمسين كيلومترًا فقط منها، وعند هذه المنطقة في شمال بغداد وصلت الأخبار إلى مجاهد الدين أيبك.

أدرك مجاهد الدين أيبك أن هذا الجيش لو وصل إلى بغداد، فسوف يطوقها من الناحية الشمالية والغربية، وبذلك سيطبق الحصار تماماً على العاصمة الإسلامية، ومن هنا فكر مجاهد الدين أيبك بسرعة أن يتجه بجيشه شمالاً بين نهري دجلة والفرات، لمقابلة جيش بيجو، والتقى فعلاً بجيش التتار عند منطقة الأنبار، وهي المنطقة التي شهدت انتصاراً خالداً قبل ذلك بأكثر من ستمائة سنة، على يد البطل خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولكن في هذه المرة لم يكن

الانتصار حليف المسلمين، لقد بدا بيجو وكأنه أعرف بالمنطقة من أهلها، فبدأ يُظهر الانسحاب، ويستدرج خلفه جيش المسلمين، حتى أتى به إلى منطقة مستنقعات قريبة من نهر الفرات، ثم أرسل المهندسين التتر لقطع السدود المقامة على نهر الفرات في هذه المنطقة، وذلك ليقطع خط الهروب على الجيش العباسي، ثم حاصر بيجو الجيش العراقي، وفي التاسع عشر من المحرم، أي بعد أسبوع من ظهور هولاكو أمام الأسوار الشرقية لبغداد، بدأ في عملية إبادة واسعة النطاق، واستطاع مجاهد الدين أيبك بفرقة صغيرة جداً من الجيش العباسي أن ينسحب بحذاء النهر جنوباً حتى عاد إلى بغداد، ولكن بعد أن هلك معظم الجيش العباسي في منطقة الأنبار [٥٤].

لم يتوانى الأمير المغولي: بيجو، فبعد تدمير الجيش العباسي، تقدم مباشرة ولم يُضيع وقتاً حتى وصل إلى بغداد من ناحيتها الشمالية، في اليوم التالي مباشرة، ثم التف حولها ليضرب عليها الحصار من جهتها الغربية، وفي يوم الثلاثاء ٢٢ من المحرم ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، أحكم الحصار حول مدينة بغداد، واستمر حتى نهاية هذا الشهر، وفي خلال تلك الفترة كان المغول يطلقون يد التخريب في المدينة، ويَفتحون الأبراج حتى استولوا بهجماتهم على القسم الشرقي من التحصينات [٥٥].

وبذلك وُضِعَت بغداد بين فكي كماشة: هولاكو من الشرق، وبيجو من الغرب، وازداد حرج الموقف جداً، واستحكم الحصار حول عاصمة الخلافة، وأُسقط في يد الخليفة، وجاء مؤيد الدين العلقمي ليستغل الفرصة، وعَرض على الخليفة التفاوض مع هولاكو، وقَبِل الخليفة مضطراً، وقرر إرسال رجلين ليقوما عنه بالمفاوضات، هما مؤيد الدين العلقمي الشيعي، وأرسل معه ماكيكا. البطريرك النصراني في بغداد. فكان وفداً عجيباً لخليفة المسلمين، إثنان: أحدهما شيعي والآخر نصراني!؟

ودارت المفاوضات بين هولاكو وبين ممثلي الخلافة العباسية، وأُعطيت الوعود الفخمة من هولاكو لكليهما، إن ساعداه على إسقاط بغداد، وأهم هذه الوعود

أنهما سيكونان أعضاء في مجلس الحكم الجديد، والذي سيَحكم العراق بعد احتلالها من التتار، أقصد بعد إزاحة الخليفة [٥٦].

وفي شهر آخر محرم سنة ٦٥٦ هـ، الموافق شهر يناير من سنة ١٢٥٨م، عاد رسولا الخليفة من عند هولاكو، يحملان له طلباً عجيباً، الا وهو تسليم المتشددين المتطرفين، والذين يُنادون بالجهاد، وهذه الدعوة إلى الجهاد ستنسف كل مباحثات السلام مع التتار، وعليه يجب على الخليفة أن يُسلم، وعلى وجه التحديد: مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه، هذان اللذان يتزعمان فكرة الجهاد والمقاومة، وازداد الموقف صعوبة، والأزمة شدة، والرُّسل لا تنقطع بين هولاكو والخليفة، وأخيراً جاء ابن العلقمي ببعض الوعود من هولاكو، وفي نفس الوقت كانت هناك بعض الشروط التي على الخليفة أن ينفذها، أما الوعود فكانت: [٥٧].

١. إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وإقامة علاقة سلام دائم،

٢. يتم الزواج بين ابنة هولاكو الزعيم التتري الذي سفك دماء مئات الآلاف من المسلمين بابن الخليفة المسلم "المستعصم بالله"،

٣. يبقى "المستعصم بالله" على كرسي الحكم،

٤. يعطي الأمان لأهل بغداد جميعاً،

وأما الشروط فهي:

١. تدمير الحصون العراقية.

٢. ردم الخنادق

٣. تسليم الأسلحة.

٤. الموافقة على أن يكون حُكم بغداد تحت رعاية أو مراقبة تترية.

وختم هولاكو مباحثاته مع المبعوثين الساميين بأنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا لإرساء قواعد العدل والحُرية والأَمان، وبمجرد أن تستقر هذه الأمور، حسب رؤيته، سيعود إلى بلاده، ويَترك العراقيين يضعون دستورهم، ويديرون شئون بلادهم بأنفسهم [٥٨].

لم ينتظر هولاكو وقتاً طويلاً، ولم يمنح للخليفة العباسي مزيداً من الوقت للتفكير المتعمق، ولكنه قرر بدأ إطلاق القذائف النارية والحجرية على بغداد، مستخدماً في ذلك أحدث التقنيات العسكرية التي توصلوا إليها في ذلك الزمان، وبدأ القصف المروع لأسوار وحصون وقصور وديار بغداد، وقد بدأ القصف في الأول من صفر سنة ٦٥٦ هـ.

يقول ابن كثير: وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتَلها وهي تَرقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وفزع فزعاً شديداً، واحضر السهم الذي أصابها بين يديه، فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، اذهب من ذوي العقول عقولهم، فكان رد فعل الخليفة بدلً من الأمر بالتجهز للحرب أو حتى للدفاع،أمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة [٥٩].

وظل التتار على قصفهم مدة أربعة أيام، من أول صفر إلى الرابع منه سنة ٦٥٦ هجرية، وفي يوم الرابع من صفر بدأت الأسوار الشرقية تنهار، ومع انهيار الأسوار الشرقية انهار الخليفة تماماً، ولم يعد غير تقديم فروض الطاعة، والتي لن تُقبل، أو تُفيد [٦٠].

المفاوضات بين هولاكو الخليفة

لما رأى الخليفة ضعف موقفه، أراد أن يَصرف المغول، ويثنيهم عن عزمهم على إتمام الفتح، وذلك بإرسال الرسل والهدايا، ولكن هولاكو لم يستجب لهذا النداء [٦١].

فلجأ الخليفة إلى صديقه مؤيد الدين العلقمي الشيعي، وسَأله ماذا يَفعل؟ وأشار عليه الوزير أن يَخرج لمقابلة هولاكو بنفسه، لكي يُجري معه مفاوضات، وذهب الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتي الخليفة، ولكن ليس وحده، بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته، ووزرائه

وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأُمراء الناس والأعيان، حتى يحضروا جميعاً المفاوضات، وبذلك تُصبح المفاوضات مُلزمة للجميع، وبالفعل جَمع الخليفة كبار قومه، وخَرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو خارج الأسوار الشرقية لبغداد، وقد تحجَّرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتَسارعت ضربات قلبه، وتلاحقت أنفاسه، لقد خَرج الخليفة ذليلاً مهيناً، بعد ما كان له ولأجداده من المجد والعزة، ولكن من يُهن اللهُ فما له من مكرماً. اللهم أكرمنا ولا تُهنا [٦٢].

وكان الوفد كبيراً يضم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيه بالطبع وزيره مؤيد الدين العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتاري، ولم يَسمحوا لكل الوفد بالدخول على هولاكو، بل قالوا: إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجل فقط، أما الباقون فسيخضعون للتفتيش الدقيق. ودَخل الخليفة ومعه رجاله وحُجب عنه بقية الوفد، فأخذوا جميعاً إلى القتل. إلا الخليفة والذين كانوا معه فقد أفلتهم الموت، وقُتل في هذه المذبحة كُبراء القوم، ووزراء الخليفة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية، أما الخليفة فلم يقتله هولاكو، لأنه كان يُريد استخدامه في أغراض أخرى أكثر نفعاً من قتله، وبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر. واكتشف الخليفة أن وفده قد قُتل بكامله وعَرف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان، وصدرت الأوامر من هولاكو إلى الخليفة، بالتكليفات التالية:

أ . على الخليفة أن يُصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح يحملونه، والامتناع عن اي مقاومة.

ب . يُقيد الخليفة العباسي، ويُساق إلى المدينة بأغلاله، كي يدل التتار على كنوز العباسيين الثمينة، وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال [٦٣].

جـ . يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينيه، وبالفعل قُتل الولد الأكبر احمد ابو

العباس، وكذلك قُتل الولد الأوسط عبد الرحمن أبو الفضائل، وأُسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم.

د . يُستدعي من بغداد بعض الرجال بعينهم، وهؤلاء هم الرجال الذين ذَكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السُّنة، وكان ابن العلقمي يُكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعائهم جميعاً فكان الرجل منهم يَخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيَذهب إلى مكان خارج بغداد عيَّنه التتار بجوار المقابر، فيُذبح العالم كما تُذبح الشاة، وتُؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل، لقد كان الأمر مرعباً، فذُبح على هذه الصورة الشيخ محي الدين يوسف بن بن الجوزي، وأولاده الثلاثة، وذُبح مجاهد الدين آيبك وزميله سليمان شاه، اللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، وذُبح صدر الدين علي بن النيار، ثم ذبح بعد هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحَملة القرآن، كل هذا والخليفة يشاهد، وأدرك بوضوح العلاقة بين هولاكو وابن العلقمي، وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، ولكن بعد فوات الأوان [٦٤].

استباحة المغول لبغداد

بعد أن ألَقى أهل المدينة السلاح وبعد أن قُتلت تلك الصفوة من رجالات العراق، وبعد أن ساحت جند هولاكو في شوارع بغداد ومحاورها المختلفة، أصدر هولاكو باستباحة بغداد [٦٥].

فأتوا على كل ما فيها، فخرَّبوا المساجد بقصد الحصول على قبابها المذهبة، وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تُحف نادرة، وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء، وكان استهتار المغول بالنفوس فوق الحد، فيروى أن أحدهم دخل زقاقاً، فوجد به أربعين طفلاً فقتلهم، حين علم أن أمهاتهم قُتلن من قبل [٦٦].

ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى، في عملية اجتياح بغداد بنحو ثمانمائة ألف نسمة [٦٧].

ولم يقتصر التتار في قتلهم على الرجال الأقوياء فقط، وإنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء، إلا من استحسنوه منهن، فإنهن كانوا يأخذونها سبياً، وهذا شيء معروف ومتوقع من كل غازي لا يعتد بأي أعراف، فما بالنا بالتتار [٦٨].

ولم يسلم إلا من اختفى في بئر او قناة، وقد استمرت هذه الغارة أربعين يوماً، اندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب، فالتهمت كل ما صادفها، واتت على الأخضر واليابس، وخُرِّبت أكثر الأبنية وجامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة [٦٩].

وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد، قصد قصر الخلافة، وجلس في الميمنة، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم، وأمر بإحضار الخليفة، وقال له: انت المضيف ونحن الضيوف فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة، فصدَّق الخليفة قوله، وكان يرتعد فَرقاً وخوفاً واستولت عليه الدهشة واعتراه الذهول، لدرجة انه لم يعد يَعرف أين وضع مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر الأقفال، وإخراج ألفين من الثياب، وعشرة آلاف دينار، ونفائس ومرصعات، وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو خان الذي لم يعر تلك الأشياء التفاتاً، ووزعها على اتباعه، ثم قال للخليفة: هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح، وهذه تُعد غنيمة، فتكون من نصيب جنودنا، والآن نريد ان تكشف لنا عن الأموال والدَّفائن، فما هي وأين توجد؟ عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان وجدوه مملوءاً بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال، ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة وحاشيته، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا وألفاً من الخدم [٧٠].

وعندما وقف الخليفة على تعداد نسائه قال في تضرع: أمنحني تلك النسوة اللائي لم يكن يَطَّلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر، فأمر هولاكو بأن يَختار من بينهن مائة من النسوة، ممن هنَّ من اقاربه والمحببات إليه، ثم رَجع إلى معسكره ليلاً وفي الصباح كلَّف قائده سونجاق، بأن يذهب إلى المدينة ليضبط أموال الخليفة ويُخرجها، فجمع هذا القائد المغولي، كل ما كان الخلفاء

العباسيون قد ادَّخروه خلال خمسة قرون [٧١].

وأخيراً أصدر هولاكو أمره بالكف عن القتل، وبأن ينصرف كل إلى عمله، ولما نُودي ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والمقابر، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، ولقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يَعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، عمَّهم الوباء الناتج من تحلل جثث الموتى، مع الصدمة النفسية الرهيبة التي حلت بهم [٧٢].

مقتل الخليفة العباسي المعتصم بالله

عامل هولاكو الخليفة معاملة سيئة للغاية، بحيث أنه حرَّم عليه الطعام، فلما أحس الخليفة بالجوع طلب طعاماً، فقَدم له هولاكو طبقاً مملوءاً بالذهب، وأمره أن يأكل، فقال الخليفة: كيف يمكن أكل الذهب؟ فرد عليه هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل، فلماذا احتفظت به ولم توزعه على جنودك، حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولم لم تُحَول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام، وتُسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبور؟ فلزم الصمت، ولم يحر جواباً [٧٣].

أما عن كيفية قتل الخليفة العباسي: المستعصم، فلم يقع الاطلاع على كيفيتها، فقِيل خنق، وقِيل وضِع في عدل ورفسوه حتى مات، وقِيل غُرِّق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك [٧٤].

واشتهرت بين المؤرخين قتل المستعصم في غرارة، حيث تم رفسه إلى إن مات. وذلك انه شق على مستشاري هولاكو خان من المسلمين، أن يُراق دم الخليفة وهو أمير المؤمنين وزعيمهم الديني، فحذَّروا الخان المغولي أن يُقدم على تلك الفعلة، حتى قيل أن أحد المنجمين قال لهولاكو: إذا قتل الخليفة، فإن العالم يصير اسوداً مظلماً وتظهر علامات القيامة [٧٥].

وفي هذه المرة أيضاً نفى نصير الدين الطوسي هذا الادعاء وأيَّد رايه ببراهين عملية تثبت أن عدة خلفاء من بني العباس قُتلوا ولم يَحدث خلل يُذكر، فلما

صمم هولاكو على قتله، احترز من أن يُريق دمه فقتله بالطريقة السابق ذكرها.

إذن لِمَ قَتَلَ هولاكو، الخليفة المستعصم دون أن يُريق دمه، لا خوفاً من تحذير العلماء المسلمين، وإنما جرياً على عادة المغول، وأنه كان من عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً. وكان جنكيز خان يمارس تقاليد قومه التي كانت تحرم إراقة دم زعيم أي قبيلة يجري في عروقه الدم الملكي، ويستعملون طريقة خمد الأنفاس تحت ضغط أقمشة ثقيلة.

وعلى هذا يبدو أن السبب الثاني هو الأرجح، لأن المغول حتى في دفنهم للمستعصم، جَرَوْا على سننهم وتقاليدهم، إذ دفنوه في مكان مجهول، لدرجة أن السيوطي ينقل عن الذهبي قوله: وما أظنه دفن، ويقول ابن الغوطي: أمر السلطان - أي هولاكو - بقتله، فقتل يوم الأربعاء الرابع عشر صفر ولم يهرق دمه، بل جَعل في غراره ورفس حتى مات ودفن وعفي أثر قبره [٧٦].

والمعروف في سلاطين المغول وأمرائهم أنهم كانوا يدفنون موتاهم في موضع بعيد عن العمران، ويَجعلون قبورهم من الأسرار المخفية، وهكذا ظل المغول محافظين على هذا التقليد حتى جاء السلطان غازان خان - (٦٩٤ - ٧٠٣هـ) واعتنق الإسلام، فأبطل هذه العادة، وبنى لنفسه مقبرة كبيرة لتكون مقر دفنه، فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول، يُدفن في مقبرة ظاهرة [٧٧].

ماذا فعل التتار مع مكتبة بغداد الهائلة

بعد أن أتم هولاكو وجيشه المغولي التتاري، قتل أهالي بغداد، وتدمير عمرانها ومعالمها الحضارية، ووسائل تلك الحضارة الإنسانية، أمر هولاكو، قادته وجيوشه بنهب بغداد فعاث جند المغول والتتار فساداً، بعد أن جعل ضرب المنجنيقات أكثر مساكنها وأسواقها ركاماً، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات، وأشعلوا النيران فيها أيضاً، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، فنهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخُلفاء العباسيون وأهالي بغداد، من أثاث وسجاد وأقمشة من حرير وأقطان وكتان،

وفساطيط، وسُروج الخيل وأفرشة وبسط، ودام القتل والنهب أربعين يوماً، بعد هذه الأربعين يوماً أصبحت بغداد في حالة من الدمار والخراب لا مثيل لها [٧٨].

بعد أن فرغ التتار من القتل والنهب، وبعد تدمير المباني والنشآت، جاء الدور على الثقافة العربية الإسلامية، لذلك حمل جنود التتار الكتب الثمينة التي تزخر بها مكتبة بغداد، ملايين من الكتب القيمة، ألقوا بها في نهر دجلة، ألقو بعلم وجهد العلماء والكُتاب القرون الماضية في نهر دجلة، فتحول ماء النهر إلى اللون الأسود، من أثر مداد الكتب حتى قيل أن الفارس المغولي، كان يَعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى، لقد اَقفو جريمة جديدة إلى التاريخ ، جريمة لم تكن فريدة من نوعها بل تكررت عبر التاريخ في الأندلس في مكتبة قرطبة وغرناطة وطليطلة وأشبيلية وبلنسية وسرقسطة وغيرها، وفي مكتبة طرابلس اللبنانية، أحرقوا ثلاثة ملايين كتاب، وفعلها الصليبيون في فلسطين، في مكتبة غزة والقدس وعسقلان، ثم فَعلها بعد ذلك المستعمرون الأوربيون فيما بعد، ولكن هؤلاء كانوا أكثر ذكاء، وكان حقدهم محسوباً وليس بربرياً، فإنهم سرقوا الكتب ولم يَحرقوها، ولكن أخذوها إلى أوربا.

لقد كانت مكتبة بغداد أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن، أسسها الخليفة العباسي المسلم هارون الرشيد، الذي حكم الدولة الإسلامية من سنة ١٧٠ هجرية إلى سنة ١٩٣ هجرية، ثم ازدهرت المكتبة جداً في عهد المأمون خليفة المسلمين من سنة ١٩٨ هجرية إلى سنة ٢١٨ هجرية، وما زال الخلفاء العباسيون بعدهم يضيفون إلى المكتبة الكتب والنفائس حتى صارت داراً للعلم لا يُتخيل كمّ العلم بداخلها. وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون، من علوم شرعية، كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك، هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر، فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم.

الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك، علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمان [٧٩].

لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس، ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس، وسبحان الله، لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد. عندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هجرية، قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط، قام القسيس كمبيس بحرق مكتبة قرطبة تماماً، كما حرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بُذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأُنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعَرق والجهد، لكن هذه كانت سنتهم طبعهم، حروبهم حروب إبادة وتدمير، للحضارة والمدنية والإسلام، بل وعلى الإنسانية كلها [٨٠].

كانت مكتبة بغداد تشتمل على عدد ضخم من الحُجرات، وقد خصصت كل مجموعة من تلك الحُجرات لمادة من مواد العلم، فهناك حُجرات مُعينة لكتب الفقه، وحُجرات أخرى لكُتب الطب، وهناك حُجرات ثالثة لكُتب الكيمياء، ورابعة للبحوث السياسية وهكذا، وكان في المكتبة المئات من الموظفين الذين يقومون على رعايتها، ويواظبون على استمرار تجديدها، وكان هناك النساخون، الذين يَنسخون من كل كِتاب أكثر من نُسخة، وكان هناك المناولون، الذين يناولون الناس الكتب من أماكنها المرتفعة، وكان هناك المترجمون، الذين يترجمون الكتب الأجنبية، وكان هناك الباحثون، الذين يَبحثون لك عن نقطة معينة من نقاط العلم في هذه المكتبة الهائلة، وكانت هناك غُرف خاصة للمطالعة، وغُرف خاصة للمدارسة، وحلقات النقاش والندوات العلمية، وغُرف خاصة للترفيه والأكل والشرب، بل وكانت هناك غُرف للإقامة لطُلاب العلم الذين جاءوا من مسافات بعيدة [٨١].

لقد حوت هذه المكتبة عصارة الفكر الإنساني في الدنيا بأسرها، وجمعت كل علوم الأرض في زمانها، إذن فنحن نتحدث عان جامعة، وليست مجرد مكتبة من المكتبات، لقد اشترط المأمون على ملك الروم في معاهداته معه، بعد انتصارات

المأمون المشهورة على الروم، أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكُتب التي في مكتبة القسطنطينية،وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثاً عن الكتب العلمية بأي لغة، لتترجم وتُوضع في مكتبة بغداد، بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل [٨٢].

لقد حمل التتار الملايين من الكتب الثمينة، المترجمة من اللغات: اليونانية والسريانية والهندية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية وغيرها، وفي بساطة شديدة القوا بها جميعاً في نهر دجلة، كان الظن أن يحمل التتار هذه الكتب القيمة إلى عاصمتهم: قراقورم، ليستفيدوا منها، وهم لا يزالون في بداية التحضر، لكنهم لم يعو ذلك، ولم يقدروه قدره، فكان ما اتو به، وهو سد النهر بتلك الكتب النادرة، وهذا التراث البشري العظيم.

ومازالت المكتبات الكبرى في أوربا تحوي مجموعة من أعظم كتب العِلم في الأرض، الفها المسلمون على مدار عدة قرون متتالية، ولا يشك أحد في أن أعداد الكتب الأصلية الإسلامية، والموجودة في مكتبات أوربا، تفوق كثيراً أعداد هذه المراجع الهامة في بلاد المسلمين انفسهم. لقد كان هم الغُزاة على طول العصور، أن يحرموا هذه الأمة من اتصالها بأي نوع من انواع العلوم، إما بحرق الكتب أو بإغراقها في الأنهار أو بسرقتها أو بتغيير مناهج التعليم، كما هو حادث الآن، لأنهم يَعرفون جيداً قيمة العلم في دين الإسلام، ويَعرفون قيمة المسلمين إذا ارتبطوا بالعلم [٨٣].

وبعد أن فرغ المغول من تدمير مكتبة بغداد، انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق، وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات، فقد أحرقوها، وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى رُكاموخرابات، يتصاعد منه ألسنة النار والدخان. وقد استمر هذا الوضع الأليم اربعين يوماً كاملة،وامتلأت شوارع بغداد خلالها بتلال الجثث المتعفنة، واكتست الشوارع باللون الأحمر، وخاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة المتعفنة، فقرر هولاكو الآتي:

أ . خروج الجيش التتاري بكامله من بغداد، إلى بلد آخر في شمال العراق، حتى لا يُصاب الجيش بالأمراض والأوبئة، وتُترك حامية تتارية صغيرة حول بغداد، فلم يعد هناك ما يُخشى منه في هذه المنطقة.

ب . إعلان الأمان حقيقي في بغداد، فلا يُقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين، ليقوموا بدفن موتاهم، وتنظيف المدينة من الجثث.

جـ . أصدر قراراً بتعيين مؤيد الدين العلقمي، رئيساً على مجلس الحكم المعين من قبل المغول على بغداد، على أن توضع عليه بالطبع وصية مغولية [٨٤].

مؤيد الدين العلقمي، يحكم بغداد

لم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للمغول، وتعرض للإهانة من قبلهم لتحطيم نفسيته، ولكي يُصبح تابعاً ذليلاً لهم، وحصل له من الإهانة في أيامه والقلة والذلة، وزوال ستر الله، ما لا حد لوصفه، فقد رأته إمراة وهو راكب في أيام التتار برذوناً وسائق يضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه وقالت: يا بن العلقمي هكذا كان بنو العباس يُعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمداً، في مستهل جماد الآخر من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودُفن في قبور الشيعة، وقد سمع بأذنيه ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يُحد ولا يوصف. وتولى ولده من بعده الوزارة [٨٥].

في ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ، وبعد سقوط بغداد بسنة واحدة، توفي الوزير عز الدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي، فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطاء ملك الجويني، وكان من أُسرة إيرانية عريقة في الآداب والإدارة، ولها مكانة مرموقة في إيران، وبتعيينه خَرج امر الوزارة من يد عرب العراق، وارتبطت إدارته بالإدارة المركزية المغولية في إيران، وكان الجويني من عمال الديوان للأمير المغولي أرغون حاكم إيران، وقد قام الجويني بعدة اسفار في بلاد المغول، واطّلع بصورة مباشرة على احوالهم وأحوال بلادهم، ودرس أحوال الأقوام التركومغولية، وتمكن من أن يَجمع مادة تاريخية وفيرة،

كتب على أساسها بالفارسية تاريخ تلك الأقوام، وسمى ذلك الكتاب: تاريخ جهانكشاي، أي تاريخ فاتح العالم، ويَعني به جنكيز خان، فصار كتابه هذا المرجع الرئيسي لتاريخ المغول، والذي توقف به عند ذكر وقائع حروب هولاكو مع الإسماعيلية في بلاد الجبل، إذ كان الجويني مُصاحباً له في تلك الحروب، وفي زحفه نحو بغداد [٨٦].

حكومة هولاكو الإيلخانية بالعراق

بعد سقوط بغداد قام هولاكو بتنظيم الإدارة وتدعيم سلطته في العراق، فأرسل قوات عسكرية نحو الفرات الأوسط، واستقبلهم السكان في الحلة والكوفة، ونصبوا لهم جسوراً للعبور، ومن هناك انحدرت تلك الفرقة العسكرية نحو واسط، وكان فيها جمعٌ من بقايا عسكر المماليك، فاشتبكوا معهم في قتال شديد، إنتهى بتصفية عساكر المماليك وقَتل عدد كبير من سكان المدينة، وبعد ذلك سار عسكر المغول نحو خوزستان، وهم يتعقبون فلول المماليك الهاربين، وانتهت تلك العمليات بالقضاء على غالبية المماليك بينما استسلم الباقون.

في هذه الأثناء اقر هولاكو أُسس إدارة العراق التي تركها بيد العراقيين، فلم يُدخل تعديلات كبيرة على إدارة البلاد عدا الإدارة العسكرية وواجبات الشرطة، التي سلّم أمرها إلى علي بهادر الخُراساني، الذي عيَّنه بمنصب الشحنة، وهو ما يقابل الحاكم العسكري، وقد أبقى هولاكو على مؤسسة الديوان، واقر فخر الدين ابن الدامغاني في منصب صاحب الديوان، وأبقى كذلك على منصب الوزارة، وأقر فيه الوزير المستعصم مؤيد الدين بن العلقمي، الأسدي، غير أن أيام هذا الوزير لم تطل بعد تلك النكبة، كما ذكرنا من قبل، فخلفه في منصب الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل، وجرى تقسيم العراق إلى خمس مناطق إدارية بدلاً من سبعة، كان يُدير كل منطقة منها مسئول بمنصب الصدر، كان يرتبط به عدد من النواب والنُظار، وكانت المناطق كما يلي:

- الأعمال الشرقية، وكانت تشمل الخالص والبندنيجين وطريق خراسان. وعين هولاكو نجم الدين أحمد بن عمران صدراً لها.

. الأعمال الفراتية.

. الأعمال الكوفية والحلية.

. الأعمال البصرية والواسطية.

. أعمال دجيل والمستنصرية.

وجاء هذا التقسيم مناسباً للتقسيم الجغرافي للمناطق الزراعية في العراق [٨٧].

أيضاً تم وضع تاج الدين علي بن الدوامي صدراً للأعمال الفراتية، وكان يشغل في عهد المستعصم منصب صاحب الباب، وعز الدين بن أبي الحديد، لمنصب كاتب السلة، غير أن أيامه هو الآخر لم تَطل، فقد توفي بعد فترةٍ قصيرة، وكان كاتب السلة يرتبط بصاحب الديوان، وبحكم وظيفته يطّلع على أسراره إدارة الدولة، وقد اكتسبت كتابة السلة أهمية كبيرة في العهد الإيلخاني، حتى صار يطلق على صاحبها: كاتب العراق. الذي كان يشغل أحياناً منصب صاحب الديوان، وأما الوظائف الدينية فكان على راسها منصب قاضي القضاة، فقد أُحضر القاضي عبد المنعم البندنيجي عند هولاكو، فأقرّه عل منصب قاضي القضاة، وأما الأوقاف فإن جميع الأوقاف الإسلامية في الدولة الإيلخانية وضعت تحت إشراف نصير الدين الطوسي

وفي بغداد جرى تعيين شهاب الدين بن عبد الله صدراً للوقوف، فأشرف على ترميم جامع الخليفة الذي تعرض للحريق، وترميم مشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر، وعلى فتح المدارس والربط وإثبات الفقهاء والصوفية، وإدرار المشاهرات والأخباز عليهم، وبعد أن اقر هولاكو أُسس إدارة العراق، عاد إلى إيران، إذ أصبحت خُراسان في تلك الأيام قاعدة النفوذ المغولي، ومركز دولة هولاكو الإيلخانية، التي حكمت ثمانين عاماً، بينما أصبح العراق إقليماً تابعاً لتلك الدولة [٨٨].

وكانت الدولة الإيلخانية بفارس والعراق تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي، ومن السند إلى الفرات، وبعض أراضي آسيا الصغرى، وكان حُكام إيران

يحملون إيلخان للدلالة على تبعيتهم للخاقان الأعظم في الصين، وقد تعاقب على حكم إيران الإيلخانات حتى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، حيث زالت دولتهم [٨٩].

وفود الملوك والأمراء على هولاكو

لقد أصاب سقوط بغداد العالم الإسلامي بالفزع والذهول والحيرة، وهرع المستضعفون من حكامه إلى الطاغية هولاكو، يُقدمون له فروض الطاعة والتهنئة، ويتملقونه خوفاً من بطشه واتّقاء شره، فكان ممن حضر لتهنئته في مراغة في أذربيجان: أتابك الموصل الهرم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ - (٥٧٠ - ٦٥٧ هـ = ١١٧٤ - ١٢٥٩ م)، بهدايا جليلة وتحف. ولما قصد السفر من الموصل جاءه أهلها وقالوا: إنا نخشى عليك من سطوة هذا الملك الجبار فقال: أرجو أن أتمكن منه وأعرك أذنيه فلما جاءه وقدم ما معه أعجب هولاكو وأقبل عليه. فلما فرغ من تقدمته قال : قد بقي معي شيء خاص بالقان وأخرج له حلقتي أذن من الذهب، فيهما درتان كبيرتان، فأعجباه فقال: أشتهي القان يُشرفني بأن أجعلهما بيدي في أذنيه، ليعظم قدري بذلك عند الملوك وأهل بلادي، وأعلم رضاه عني فأصغى إليه بأذنيه فمسكها ووضع الحلقتين فيهما، ونظر إلى من معه من أهل الموصل يعني: أنني قد قلت قولاً وقد حققته [٩٠].

وأرسل أبو بكر أتابك فارس إبنه للغرض نفسه، ووصل كذلك إلى معسكر هولاكو بالقرب من تبريز إثنان من سلاطين سلاجقة الروم، وهما الأخوان المتنافسان: السلطان عز الدين كيكاوسي الثاني، والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع، أما عز الدين فكان يرتجف رعباً، لأن جنوده حاولوا أن يصمدوا أمام القائد المغولي بايجونويان، فدحرهم في آقسرا، فلما سقطت بغداد على يد هولاكو أحسّ عز الدين بحرج مركزه وخشي بطش الخان، فحاول أن يُخلص نفسه من تلك الورطة بنوع من التملق والخضوع والذلة، وذلك أنه رسم صورته على نعل زوج من الأحذية، وقدّمها للخان الساخط قائلاً له: عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها، فتبشش له هولاكو، ورفعت دوقوزخاتون من قَدره، وتَشفعت له، فعفا عنه الإيلخان هولاكو،

وهكذ بلغ الهوان ببعض الحكام المسلمين، ثم عفى عن السلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع أيضاً، وقسَّم البلاد بينه وبين كيكاوسي الثاني على ما قرره منكوقان [٩١].

استيلاء هولاكو على ميافارقين

في سنة ٦٥٦هـ، أيضا أرسل هولاكو طائفة من عساكره إلى ميافارقين صحبة صرطق نوين وقطغان نوين، وكان بها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر غازي، بن العادل أبي بكر ابن أيوب، فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق من كل ناحية، فقاتله أهلها، وامتنعوا وصبروا على شدة الحصار، وقلت الأقوات عندهم حتى أكلوا الكلاب والسنانير والميتة. ففتحها التتار بعد سنتين، في سنة ٦٥٨هـ، بعد أن فنى الجند من كثرة القتال، وأُسر من بقي، وأخذ الملك الكامل صاحبها وتسعة نفر من مماليكه، وأُحضروا بين يدي هولاكو فقُتلوا، وحُمل رأسه على رمح، وطيف به البلاد ومروا به على حلب وحماه، ووصلوا به إلى دمشق في سابع عشرين جمادى الأولى من السنة، وطافوا به في دمشق بالمغاني والطبول، وعُلق رأسه بباب الفراديس فلم يزل إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين، فَدُفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس [٩٢].

ولم يُبق هولاكو إلا على مملوكاً واحداً يُسمى قراسنقر، سأله عن وظيفته، فذكر انه أمير شكار، فأبقاه وسلم إليه طيوره. وجاء قراسنقر هذا بعد موت هولاكو إلى الديار المصرية في الأيام الظاهرية، فجَعله السلطان من مقدمي الحلقة المنصورة. وكان استيلاء التتار على ميافارقين في سنة ثمان وخمسين وستماية [٩٣].

ذكر وفاة الأمير بيجو مقدم التتار

في سنة ٦٥٦ هـ، أيضا نقم هولاكو على القائد بيجو، لما بلغه عنه من إضمار الخلاف، وتأخير المتعمد عن الحضور عنده، لما طلبه وانه قصد الانفراد ببلاد الروم. فلما فرغ هولاكو من فتح بغداد والعراق سقاه سُماً فمات. وقيل إنه كان

قد أسلم قبل موته، ولما حضرته الوفاة اوصى بأن يُغسل ويُدفن على عادة المسلمين. وكان له من الأولاد افاك، وسوكناي. وافاك هذا هو أبو سلامش وقطقطو اللذين وفدا إلى الديار المصرية في الأيام المنصورية.

ذكر منازلة هولاكو مدينة حلب وغيرها

في سنة ٦٥٧هـ، وجَّه هولاكوا، القائد أرغون وهو من أكابر المقدمين في جيش إلى كرجستان، فغزا تفليس واعمالها، فأغار ونهب وعاد إليه وهو بالعراق. وفي نفس العام قدم هولاكو إلى شرقي الفرات، ونازل حران وملَكها، واستولى على البلاد الجزيرية، وذلك بعد وفاة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

وأرسل هولاكو أحد أولاده إلى حلب، فوصل إليها في العشر الآخر من ذي الحجة من سنة ٦٥٧هـ، وكان الملك المعظم تورانشاه- (٥٧٧ - ٦٥٨ هـ = ١١٨١ - ١٢٦٠ م)، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بحلب، ينوب عن ابن أخيه الملك الناصر، فخرج بالعسكر الحلبي لقتال التتار، فأكمن التتار كميناً عند الباب المعروف بباب الله، قريب من مدينة حلب من شمائلها، والتقوا واقتتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتار بين يدي العسكر الحلبي وتبعهم العسكر حتى خرجوا عن البلد، ثم عطفوا عليهم، فطلب المسلمون المدينة والتتار يقتلون فيهم. وهلك في الأبواب جماعة من المنهزمين.

ثم رحل التتار إلى اعزاز وتسلموها بالأمان، ثم تقدم هولاگوخان بجيوشه، فبدأ بالبيرة فملكها، ووجد بها الملك السعيد ابن الملك العزيز، أخا الملك الناصر معتقلاً فأطلقه، وسأله عما كان بيده فقال: الصبيبة وبانياس، فكتب له بذلك اماناً، ثم تقدم هولاكو إلى حلب [٩٤].

وفي سنة ٦٥٨هـ، عَبر هولاگوخان الفرات بجُموعه، ونازل حلب، وأرسل إلى الملك المعظم توران شاه - (٥٧٧ - ٦٥٨ هـ = ١١٨١ - ١٢٦٠ م)، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف يقول : إنكم تَضعفون عن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر- (٦٠٣ - ٦٥٦ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٥٨ م)، فاجعلوا عندكم شحنة - اي حاكماً عسكرياً من قبل المغول- وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى

العسكر فإن كانت الكسرة عليهم كانت البلاد لنا، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين. وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين إن شئتم القتل أو الإطلاق. فقال له الملك المعظم: ليس له عندي إلا السيف. وكان الرسول إليه من جهة هولاكو صاحب أرزن الروم، فعجب من جوابه، وتألم لما علم من ضعف المسلمين عن ملاقاة التتار.

وأحاط التتار بحلب في ثاني صفر، سنة ٦٥٨هـ، وهجموا على البواشير في الثالث من الشهر، فقتل من المسلمين جماعة، منهم أسد الدين ابن الملك صلاح الدين. واشتدت مضايقة التتار لحلب، وهجموه من عند حمام حمدان، وذلك في يوم الأحد التاسع من صفر، وصعد إلى القلعة خلقٌ كثير. وبذل التتار السيف والنهب في أهل حلب إلى يوم الجمعة، الرابع عشر من الشهر، فأمر هولاگوخان برفع السيف، ونودي بالأمان، فقُتل منها في هذه المدة ما لا يُحصى كثرة، وكان قد تجمع بها من أهل القُرى خلق كثير. وسبي من النساء والذراري زهاء مائة ألف، بيعوا في جزائر الفرنج وبلاد الأرمن [٩٥].

ولم يَسلم ممن كان بحلب إلا من التجأ إلى أماكن كان مع أهلها فرمانات من هولاكو منها: دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين أخي مزدكين، ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانقاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود. فقيل إن الذين سلموا في هذه الأماكن يزيدون على خمسين ألف إنسان.

واستمر الحصار على القلعة والمضايقة لها نحو شهرن، فوثب جماعة ممن بالقلعة على صفي الدين بن طرزة رئيس حلب، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون، فقتلوهما لأنهم توهموا أنهما باطنا التتار. ثم سأل من بالقلعة الأمان، فأُمنوا، وتسلمها التتار في يوم الإثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، وامر هولاگوخان من كان بالقلعة أن يعود كل منهم إلى داره وملكه وأن لا يُعارض. ونزل العوام والغرباء إلى الأماكن التي أُحميت بالفرمانات. وكان بقلعة حلب في الاعتقال جماعة من البحرية

الصالحية الذين حبسهم الملك الناصر، منهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وسكز، وترامق، وغيرهم، فأخذهم وأضافهم إلى مقدم يُسمى سلطان جق من أكابر القفجاق. وكان سلطان جق هذا قد هرب من التتار، لما استولوا على بلاد القفجاق وقدم إلى حلب، فأكرمه الملك الناصر وأحسن إليه وأقام عنده، فلم توافقه البلاد فالتحق بهولاكو فأكرمه.

أخبار التتار في حماه

وأما حماه فان صاحبها الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود، ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب، فكان قد فارقها وتوجه إلى دمشق، وتَرك بها الطواشي مرشد. فلما بلغه أخذ حلب فارق حماه، وتوجه إلى الملك المنصور بدمشق، فتوجه أكابر حماه بمفاتيحها إلى هولاكو. وسألوه الأمان لأهل البلد، وطلَبوا منه شِحنة يكون عندهم، فأمَّنهم وأرسل معهم شحنة من العجم، اسمه خسرو شاه، كان يَدَّعي انه من ولد خالد بن الوليد، فقدم حماه واقام بها وآمَّن أهلها. وكان بقلعة حماه مجاهد الدين قايماز أمير جاندرا، فسلَّم القلعة إليه. ودخل في طاعة التتار.

ووصل إلى هو لاگوخان وهو على حلب جماعة، منهم: الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه، وهو صاحب حمص، فأكرمه هو لاگوخان وأعاد له حمص. وكان الملك الناصر - (٦٠٣ - ٦٥٦ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٥٨ م)، قد أخذها منه في سنة ٦٤٦هـ، وعوَّضه عنها تل باشر، فأعادها هو لاگوخان عليه الآن [٩٦].

ووصل إليه أيضاً من دمشق، القاضي محيي الدين بن الزكي، فأقبل عليه هو لاگوخان، وخلع عليه وولاه قَضاء الشام. ولما عاد ابن الزكي إلى دمشق لبس خلعة هو لاگوخان، فكانت مُذهبة، وجَمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو. ثم رحل هولاكو إلى حارم بعد أن ولي على حلب عماد الدين القزويني. فلما وصل إليها طلب تسليمها، فامتنع من بها أن يسلموها إلا إلى فخر الدين متولي قلعة حلب. فأحضره هو لاگوخان فتسلمها، فغضب

هولاكوخان وأمر بقتل من بها فقُتلوا عن آخرهم، وسُبيت النساء.

استيلاء التتار على دمشق

وجرد هولاكو إلى دمشق مقدماً يُسمى السبان، وبصحبته علاء الدين الكازي، وزين الدين الحافظي وزير الملك الناصر بحلب، وكان قد خدم هولاكو. وكان الملك الناصر - (٦٠٣ - ٦٥٦ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٥٨ م)، قد فارق دمشق في منتصف صفر، فوصل التتار إلى دمشق، وملكوا المدينة بالأمان، ولم يتعرضوا إلى قتل ولا إلى نهب. وعصيت القلعة عليهم فحاصرها التتار، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، وضايقوا القلعة ونصبوا عليها المجانيق، ثم تسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى من السنة. ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها فتسلموها وخربوا قلعتها.

وجرَّد هولاكو إلى الشام كتبغا نوين، في اثني عشر ألف فارس، وأمره أن يُقيم بالشام، فوصل إلى دمشق وهو الذي حاصر قلعتها وفتحها وقتل واليها بدر الدين بن قرمجاه ونقيبها. ونزل كتبغا بالمرج، وحضر إليه رُسل الفرنج بالساحل، وأحضروا معهم التقادم، وحَضر إليه أيضاً الملك الظاهر أخو الملك الناصر، وكان بصرخد فأقرَّه على حاله.

ثم توجه كتبغا إلى عجلون، فامتنعت عليه قلعتها، فحاصرها وأُحضر إليه الملك الناصر، وهو في حصار عجلون، فأمر من بالقلعة أن يسلموها إلى التتار فسلموها. وجهز كتبغا الملك الناصر إلى هولاكو فوصل إليه وهو بحلب فسأله عن عساكر الديار المصرية، فقال: عساكر ضعيفة، وهم نفر قليل وصغرهم عنده. وقال: يكفيهم القليل من الجيش. فاقتصر هولاكو عند ذلك على كتبغا نوين ومن معه ولم يردفه بغيره [٩٧].

وعاد هولاكو من حلب إلى بلاد قراقروم لطلب القانية لنفسه، فوجدها قد استقرت لأخيه قُبلاي - (٦٥٨ - ٦٩٣هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٩٤م)، ولما فارق حلب أمر عماد الدين القزويني في المسير إلى بغداد، ورتب مكانه رجلاً اعجمياً. وأمر هولاكو أن يُخرب أسوار قلعة حلب، وأسوار المدينة، فخُربت عن آخرها. وأمر الملك الأشرف

موسى صاحب حمص، ان يتوجه إلى حماه ويُخرب أسوارها وأسوار قلعتها، فوصل إلى حماه ونزل بدار المبارز، وشرع في تخريب سور القلعة، فخُربت أسوارها وأُحرقت زردخاناتها، وبيعت الكتب التي بدار السلطنة بأبخس الأثمان، وسلمت أسوار المدينة، لأن حماه كان بها رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية، كان ضامن الجهة المفردة، فبذل لخسروشاه جملة كثيرة من المال وقال: إن الفرنج بالقرب منا، في حصن الأكراد، ومتى ضربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام بها. فأخذ منه المال وأبقى أسوار المدينة. ولم يزل خسرو شاه بمدينة حماه إلى أن انهزم التتار على عين جالوت ففارقها وعاد إلى هولاكو.

وأما كتبغا نوين فإنه أرسل إلى الملك المظفر قطز صاحب الديار المصرية، يُطالبه ببذل الطاعة أو تعبية الضيافة، فقَتل قطز رُسله إلا صبياً واحداً، فإنه استبقاه وأضافه إلى مماليكه. وتجهز وسار إلى لقاء التتار، فتجهز كتبغا لقتاله والتقوا بعين جالوت، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم التتار واخذهم السيف والأسار، وقتل كتبغا نوين، وفر من بقي من أصحابه إلى هولاكو.

خبر هولاكو بعد تولي قُبلاي للخانية المغولية

لما استقرت القانية المغولية إلى قبلاي – (٦٥٨ – ٦٩٣هـ/ ١٢٦٠ – ١٢٩٤م)، استقر لهولاكوخان الأقاليم التالية:

إقليم خُراسان: وكرسيه نيسابور ومن مدنه المشهورة طوس وهراة وترمذ ولحج ومرو. ويضاف إليه همذان ونسا وكنجة ونهاوند.

أيضاً ملك عراق العجم: وكرسيه أصفهان. ومن مُدنه قزوين وقم وقاشان وسجستان وطبرستان، وكيلان وبلاد الاسماعيلية وغيرها.

أيضاً ملك عراق العرب: وكرسيه بغداد، ومن مدنه واسط والكوفة والبصرة والدينور وغير ذلك.

أيضاً ملك أذربيجان: وكرسيها تبريز وهي توريز؛ ومن مدنها الأهواز وغيرها.

أيضاً ملك بلاد فارس: ومدينتها شيراز، ومن أعمالها كتشن وكرمان وكازرون والبحرين.

أيضاً ملك أيضاً ملك ديار بكر: وكرسيها الموصل، ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار، وأسغرد وراس العين ودنيسر وحران والرها، وجزيرة ابن عمر وخرتبرت وملطية وسمياط وغيرها.

أيضاً ملك بلاد الروم: وكرسيها قونية، وتشتمل البلاد الرومية على عدة أعمال منها: أرمينية الكبرى، ومن مَلَكَها سمى شاه أرمن. ومن مدنها خلاط. وأعمالها وان وسطان وأرجيس وما معها.

أيضاً ملك أرزن الروم وأعمالها: ومن مدنها شهر وبانوب وقجمار، وتسمى دار الجلال.

أيضاً ملك مدينة التى وأعمالها: وهي متصلة ببلاد الكرج وتخومها، وهي ذات قلعة حصينة.

أيضاً ملك أرزنجان وأعمالها: ومن مدنها، أقشهر ودرخان وكماج وقلعة كغونية وما مع ذلك. سيواس وبلاد دانشمند وتُسمى دار العلاء، ومن مدنها: اماسيه وتوقات وقمنات وبلاد كنكر وبلاد انكورية، ومدينة سامسون وكستمونية وطرخلوا وبرلوا، وهذه متصلة بسواحل البحر المحيط، وطنغزلوا وأعمالها وقرا حصار ودمرلوا واقصرا وأنطاليا والعلايا (٩٨).

موت هولاكوخان ونبذة من أخباره

في التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ، وبالقرب من كورة مراغة. مات هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان، وقيل إنه حُمل إلى قلعة تلا ودُفن بها. وكانت مدة ملكه منذ فتح بغداد، وحتى موته سبع سنين وشهوراً، ومنذ وفاة أخيه منكوقان واستقلاله بالملك خمس سنين.

وكان له من الأولاد الذكور خمسة عشر وهم: جمغار وهو أكبرهم سنا، وأباقا وهو أبغا، وهو الذي ملك بعده. ويصمت، وتشتشين ويكشي وتكدار وهو احمد، وملك بعد ابغا. واجاي. والاجو وسبوجي. ويشودار. ومنكوتمر. وقنغرطاي. وطرغاي، وطغاي تمر وهو أصغرهم. ولما مات هولاكو ملك بعده ابنه أبغا [١].

تم بحمد الله تعالى كتاب: هولاكو .. الأمير السفاح، يوم السبت ٦/أغسطس/٢٠١١م، الموافق ٦ رمضان ١٤٣٢هـ. الصاوي محمد الصاوي

المصادر والمراجع

تنويه

هناك ملحوظتان مهمتان أُحب أن ألفت إليهما نظر القارىء الكريم، قبل أن يَقرأ ما سأثبته هنا، من أسماء كُتب، وأرقام أجزاء، وأرقام صفحات، استخدمتها كمصادر ومراجع أثناء إعدادي لهذا الكتاب، والملحوظتان هما :

١- أنني قد أضع اسم المصدر، أو المرجع فتنظر في الأصل، فلا تجد ما تقرأه عندي بالضبط مثل ما في المرجع المشار إليه، فأنا آخذ النص الأصلي، إما أضعه كما هو، أو أُعيد تدويره وإنتاجه، بما يتناسب وما يَسبقه، وما يَحلق عليه من كلام، خاصة إذا كان الأسلوب اللفظي لن يكون متسقاً، وخاصة إذا كان الأصل المنقول عنه من هؤلاء الذين يتّبعون إسلوب السَّجع، أو لغتهم بعيدة عن تلك التي يدور بها الكلام هنا.

على كل حال فإنك ستجد النص الأصلي، إن رجعت إليه، إما بنفس اللفظ، أو باختلاف قليل، أو تجده مختلفاً في ترتيب فقراته، أو كلماته: ولعلك لا تجد منه شيئاً من لفظه، ولكنك ستجد روح النص بكل تأكيد. وهذا حقي، أن أُدَوِّر مادتي وأَسبكها وأُعيد إنتاجها، بما يَتناسب وما أود قوله، وما أَرى فيه المصلحة، من حيث توضيح المقصود، والتعبير عن وجهة نظري، مع المحافظة على الحقائق التاريخية، وعدم هضم حق أصحاب تلك الأصول التي رجعت إليها، سواء بالنقل المباشر، أو باقتباس الأفكار دون الألفاظ، وهو ما أشرت إليه، بأنك قد تجد المصدر، ولكن لا تجد النص الذي تقرأه هناك، ولكنك بالتأكيد ستجد شيئاً يُشْعرك أنني كُنتُ هناك.

وإذا كانت تلك المصادر التي ستجد الإشارة إليها كثيرة خلال الكتاب، تمثل

المادة الخام التي صنعت منها كتابي، فأنا أحفظ فيها حق مؤلفيها، بالإشارة إليهم في كل موضع، ثم لا أبخس نفسي حقها، من حيث إعادة إنتاجها بما يتناسب مع الموضوع، كماً وكيفاً.

٢- كل الكُتب المستخدمة، والتي رَجعت إليها وذكرتها كمصادر، أو كمراجع خلال هذا الكتاب، هي من المكتبة الشاملة، الموجودة على الشبكة الألكترونية، إلا ما أُشير إليه وأُنوه عن كونه نُسخة ورقية.

المصادر والمراجع

أصل المغول وبدايتهم وحياتهم

[١] العيني: السيف المهند ١٧٩، النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي ١١، دائرة المعارف الإسلامية ٢١٢/٩، عباس إقبال: تاريخ إيران ٣٤٥، برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ٢٠، فامبري: تاريخ بخارى ١٦١، ستانلي لين بول: طبقات سلاطين الإسلام ١٨٦؛ عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ١١، خليل أدهم آلدم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٤٦٥/٢.

[٢] خليل أدهم آلدم: تاريخ الدول الإسلامية ٤٦٥/٢.

[٣] عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦.

[٤] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ١٣). تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان، ص: ١٥٢. تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: د. أحمد السعيد سليمان، ص: ١٥٢.

[٥] برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ٢٠. تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي– (ص: ١٤).

[٦] جوبي: لفظ مغولي معناه الصحراء الجدباء الخاوية (فامبري: تاريخ بخارى ١٦١) .

[٧] عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦. المغول، د. الباز – (٢٨_٣٦). المغول في التاريخ، د. الصياد – (٢٧- ٢٨). تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي– (ص: ١٤، ١٥).

[٨] العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز – (ص٢٦، ٢٧). تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي– (ص: ١٤، ١٥).

[٩] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ١٥). جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله – (ج١/ ٧٣). محمد عبد الوهاب القزويني، نقلاً عن: جامع برزين – (ج٦/ ٥٢).

[١٠] عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٣٤٦.

[١١] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ١٦). جامع التواريخ، رشيد

الدين فضل الله – (ج١/ ٦١).

[١٢] العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز – (ص٢٦، ٢٧).

[١٣] رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ ١/٦١.

[١٤] عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران ١٧.

[١٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، د. راغب السرجاني – (١/١٠).

[١٦] كتاب الحياة السياسية في العراق في عهد المغول، د. محمد صالح – (٣- ٥). العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز – (ص١٩).

[١٧] كتاب المغول، د. السيد الباز – (٥: ٨).

[١٨] كتاب الحياة السياسية في العراق في عهد المغول، د. محمد صالح – (٣- ٥).

[١٩] تاريخ بخارى، أرمينوس، ترجمة د. الساداتي، د. الخشاب – (ص: ١٦١).

[٢٠] تاريخ الدولة المغولية في إيران، د. عبد السلام فهمي – (ص: ١١- ١٢). العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز – (ص٢٠).

[٢١] تاريخ الدولة المغولية في إيران، د. عبد السلام فهمي – (ص: ١١- ١٢).

[٢٢] المغول للعريني صد١٣. العالم الإسلامي والغزو المغولي صد٢٠.

[٢٣] الحياة السياسية في العراق للدكتور القزاز صد٥.

[٢٤] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٢٨). المغول/ د. الباز، – (ص:٣٨).

[٢٥] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٣١).

[٢٦] البداية والنهاية لابن كثير – (ج١٣- ١١٨: ١١٩). العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٣١).

[٢٧] المصدر السابق – (ص: ٣١).

[٢٨] المغول في التاريخ، للدكتور عبد المعطي الصياد –(صد٣٣٠: ٣٣٤).

[٢٩] البداية والنهاية لابن كثير – (ج٧ جزء: ١٣- ٨٨). العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٢٨).

[٣٠] البداية والنهاية – (١٣ / ١٣٩).

[٣١] الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د.القزاز – (ص:٢٠ . ٢١).

[٣٢] المصدر السابق – (ص:٢٠ . ٢١). العالم الإسلامي والغزو المغولي – (ص: ٣٣).

[٣٣] المصدر السابق – (ص: ٢٨). الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د.القزاز – (ص:٢٠ . ٢١).

[٣٤] العالم الإسلامي والغزو المغولي. صـ٣٤. الحياة السياسية في العراق في العهد السيطرة المغولية د. القزاز حاشية – (ص: ٢٧٦).

[٣٥] العالم الإسلامي والغزو المغولي – (ص:٣٤).

[٣٦] الدعوة إلى الإسلام، أرنولد صـ٢٥١. العالم الإسلامي والغزو المغولي – (ص: ٣٤).

[٣٧] المصدر السابق – صـ٣٥. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد صـ٢٥١.

[٣٨] البداية والنهاية – (١٣ / ١٣٩).

أحوال العالم الإسلامي الأخلاقية

[١] تفسير ابن كثير، سورة المائدة الآية ٩٠. ٩١.

[٢] العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٦٩.

[٣] المصدر السابق – صـ ٦٩. تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني د. شوقي صـ٩٥.

[٤] لعالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٧٠).

[٥] تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني صـ٧١.

[٦] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز الخالدي – (ص: ٧٣).

[٧] المصدر السابق – (ص: ٧٤).

[٨] البداية والنهاية (١١/ ٢٩١) العالم الإسلامي والغزو المغولي صـ٧٥.

[٩] البداية والنهاية (١١/ ٢٩١، ١٣/ ١٨٧). العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي – (ص: ٧٥). حياة الحيوان الكبرى – (١ / ٩٤).

[١٠] العالم الإسلام والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي – (ص: ٧٦).

[١١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٨/١).

[١٢] المصدر السابق – (٩/١).

[١٣] السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي صـ١١٨. العبر للذهبي (٤/ ١٤٨). الأتراك الخوارزميون – (ص: ٢١).

[١٤] المصدر السابق – (ص: ٢٤). الكامل في التاريخ – (٥ / ٢٩٠). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ٧٣).

[١٥] الكامل في التاريخ – (٥ / ٢٩٠). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ٧٣).

جنكيز خان وبداية الدولة المغولية

[١] منتدى ليلاس www.liilas.com/vb3/t99729.html. جنكيزخان إعصار من الشرق، ثروت عُكاشة – ص: ٥٤).

[٢] المصدر السابق – (ص: ٢٠). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نقلاً عن مسالك الأبصار - (٤ / ٣١٠). تاريخ ابن خلدون - (٥ / ٥٢٥).

[٣] منتدى ليلاسس.. www.liilas.com/vb3/t99729.html. جنكيز خان، للمؤلف - (تحت الطبع).

[٤] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٤٤).

[٥] المصدر السابق – (ص: ٤٥، ٤٦).

[٦] المصدر السابق – (ص: ٤٥، ٤٦). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة – (ص: ٥٣).

[٧] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٥٤). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة – (ص: ٥٣).

[٨] المصدر السابق – (ص: ٤٦).

[٩] المصدر السابق – (ص: ٤٩).

[١٠] المصدر السابق - (ص: ٣٩، ٤٩).

[١١] الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين - (ص: ٣٩).

جنكيز خان مؤسس امبراطورية المغول

[١] الغزو المغولي لديار الإسلام - (ص: ٤١). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة – (ص:٦١).

[٢] الغزو المغولي لديار الإسلام - (ص: ٤١). إعصار من الشرق، ثروت عكاشة – (ص:٦١، ٦٢). كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٥٠).

[٣] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٥١)

[٤] الغزو المغولي لديار الإسلام – (ص: ٤٢).

[٥] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٤٥: ٥٢). الغزو المغولي لديار الإسلام – (ص: ٤٥).

[٦] سقوط الدولة العباسية للقحطاني – (ص: ٧٣).

[٧] المصدر السابق – (ص: ٧٦).

[٨] جنكيز خان قاهر العالم صـ ٢٣٨. حروب المغول د. حطيط – (ص: ١٨: ٢١).

[٩] جنكيز خان قاهر العالم صـ ٢٤٠. حروب المغول د. حطيط – (ص: ٢٤).

[١٠] المصدر السابق – (ص: ٣٦).

[١١] المصدر السابق – (ص:٢٦، ٣٦).

[١٢] المصدر السابق – (ص:٢٧، ٣٦).

[١٣] المصدر السابق – (ص: ٢٨).

دستور الدولة المغولية: (الياسا)

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٨). تاريخ المغول عباس إقبال صـ١١٣.

[٢] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٨). الدولة العربية الإسلامية صـ٤٧٣. جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣٩، ١٠٤).

[٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٣٨).

[٤] المصدر السابق – (ص: ٣٤٠: ٣٤١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ٢١٢).

[٥] المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، خطط المقريزي - (٢ / ٤٢١). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص:٣٤١: ٣٤٣).

[٦] دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج ٧ العدد الرابع – (ص: ١٣٧). مادة جنكيز خان. المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد - (ص: ٣٤٣).

[٧] المصدر السابق – (ص: ٣٤٣).

أخلاقيات المغول الجنكيز خانية

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٤٤).

[٢] المصدر السابق – (ص: ٣٤٦).

[٣] تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية – (ص: ٥٦١).

[٤] المصدر السابق – (ص: ٣٥٠). الأعلام للزركلي - (ج ٧ / ص ٤٦).

التنظيمات الإدارية للدولة الجنكيزخانية

[١] المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس – (ص: ٣٩).

[٢] المصدر السابق – (ص: ٣٩).

[٣] قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية النبراوي – (ص: ٧٢).

[٤] الغزو المغولي لديار الإسلام د. محمد فتحي – (ص: ٨٦).

[٥] المصدر السابق – (ص: ٨٦: ٨٧).

[٦] المصدر السابق – (ص: ٨٧). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٦٢). قيام دولة المماليك الأولى في مصر، د. العبادي – (ط: ١٤٦: ١٤٧).

[٧] الغزو المغولي لديار الإسلام د. محمد فتحي – (ص: ٩٠).

[٨] المصدر السابق – (ص: ٩١: ٩٢). تاريخ جهانكشاي، الجويني - (١/ ١٨). المغول في

التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٦٤).

[٩] المصدر السابق – (ص: ٣٦٥). صبح الأعشى، القلقشندي – (ج٤/ ص: ٤٢٣).

[١٠] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٦٥).

[١١] دائرة المعارف الإسلامية – (مادة: جنكيزخان، المجلد السابع، العدد الرابع من الترجمة العربية، ص: ١٣٧). الكامل في التاريخ - (٥ / ٣١١).

[١٢] المغول تاريخ جهانكشاي، الجويني - (١/ ٨٣). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٥٤: ١٥٥).

[١٣] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ٣٢٨).

[١٤] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٣٥٩).

[١٥] جنكيز خان، العقيد محمد أسد الله صفا – (ص: ١٧٤: ١٧٥).

العادات والتقاليد عند المغول

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥١: ٣٥٢).

[٢] حبيب السير، خولدمير – (٣/ ١٧٩).

[٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥٢). جامع التواريخ، رشيد الدين، نشر: كاترمير – (ص: ٩٢، حاشية: ١٤)

[٤] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٣٥٢- ٣٥٦). جنكيز خان وجحافل المغول، هارولدلام، الترجمة العربية – (ص: ٤٣).

[٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥٦). محنة الإسلام الكبرى، د. مصطفى طه بدر – (ص: ٦٩).

[٦] كتاب المغول، د. السيد الباز العريني – (ص: ٣٥٨) . المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥٨- ٣٥٩).

[٧] المصدر السابق – (ص: ١٤٣).

زحف جنكيزخان على العالم الإسلامي

[١] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٣٦٤).

[٢] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٣، ٣٦٤).

[٣] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٣). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٤٠).

[٤] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦، ٣٠٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت

- (١٤/١). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٤٠، ٤١).

[٥] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٧). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ٩٦). سيرة جلال الدين منكبرتي، المنشئي – (ص: ٤٨).

[٦] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢١٠). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٤١).

[٧] سيرة السلطان جلال الدين – (هامش ص: ٨٥). عودة الروح للخلافة - صـ١٨٣. المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٢). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٤١).

[٨] تاريخ الدولة المغولية في إيران، عبد السلام فهمي – (ص: ٥٠). قصة التتار د. راغب السرجاني – (ص: ٢٢).

[٩] الكامل لابن الأثير (١٢ /١٤٩). عودة الروح للخلافة – (ص: ١٨٠).

[١٠] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ٦٧). عودة الروح للخلافة – (ص: ١٨٠)

[١١] المصدر السابق – (ص: ١٨١). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٦). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦).

[١٢] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٣، ٨٤). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٦).

[١٣] المصدر السابق - (٢٧ / ١٦٦). تاريخ الخلفاء للسيوطي – (ص: ٤٦٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ٦٨). تاريخ الترك في آسيا الوسطى، برتولد. الترجمة العربية – (ص: ١٥٩). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٦٨- ٦٩).

[١٤] المصدر السابق – (ص: ٨٥- ٨٨). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٧). كيف دخل التتار بلاد المسلمين د. سليمان العودة صـ٢٣. الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١٠٥). تاريخ بخارى – (ص: ١٥٨، ١٥٩).

[١٥] مختصر تاريخ العرب، سيد أمير – (ص: ٣٤٣). عودة روح الخلافة– (ص: ١٨٧، ١٨٨). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٧- ٨٨). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٧). هارلود لام، جنكيز خان – (ص: ٩٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٦).

[١٦] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص١٩٤، ١٩٥). سيرة السلطان جلال الدين – (ص١٠٠). تاريخ الخميس في أحوال انفس تفيس – (٢/٣٨٦). الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٣٥٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢، ١١٣).

[١٧] سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٨٩، ٩٠). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري -

(٢٧ / ١٦٧، ١٦٨). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٧).

(١٨) عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٥). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ٩١). الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٣٧، ١٣٨). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢، ١١٣).

(١٩) الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٣٩). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١١/٢٧). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٣).

(٢٠) تاريخ الخميسي - (٢/ ٣٦٨). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٦). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠).

(٢١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٦٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦١). سيرة السلطان منكبرتي، النسوي – (ص:٣٨).

(٢٢) المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢: ١١٤). الدولة الخورازمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٠). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩).

(٢٣) الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٠). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢: ١١٥).

(٢٤) الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٠: ١٤٣). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢: ١١٥).

(٢٥) الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ١٤٤). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٥: ١١٦). تاريخ جها نكَشاي – (ج١/ ٧١: ٧٤).

(٢٦) سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ١٤٠). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٨). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٢).

(٢٧) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٣). نهاية الأرب، للنويري - (٢١١/٢٧). سيرة السلطان جلال الدين – (ص: ١٠١). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٦).

(٢٨) الكامل في التاريخ - (٩. ٣٣٢). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ١٩٨). الدولة الخوارزمية للمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٣). العالم الإسلامي والغزو المغولي، الخالدي – (ص: ٧٩). نهاية الأرب، للنويري - (٢١٢/٢٧).

(٢٩) تاريخ بخارى – (ص: ١٩٩). عودة الروح للخلافة – (ص: ١٩٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٤).

(٣٠) المصدر السابق – (ص: ١٤٥). نهاية الأرب، للنويري - (٢١٢/٢٧). تاريخ جها نكَشاي – (ج١/ ٨٠: ٨١). المغول في التاريخ، الصياد – (ص: ١١٧).

[٣١] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ أحمد – (ص: ١٤٥). العالم الإسلامي والغزو المغولي: الخالدي – (ص: ٧٩، ٨٠). الكامل في التاريخ نقلاً عن قصة التتار د. السرجاني – (ص: ٣٠).

[٣٢] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (٩ – ٣٣٣). عودة الروح – (ص: ٢٠١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩).

[٣٣] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (٩ - ٣٣٣). تاريخ بخارى– (ص: ١٧٣). عودة الروح – (ص: ٢٠١).

[٣٤] قصة التتار د. السرجاني – (ص: ٣١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٨).

[٣٥] الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية – (ص: ٣٣، ٣٤). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩). الدولة الخوارزمية ص١٢٤، عودة الروح – (ص: ٢٠٢).

[٣٦] تاريخ بخارى – (ص: ١٧٤). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٣). نهاية الأرب، للنويري، القلقشندي - (٢١٣/٢٧). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٤٣). الكامل في التاريخ (١٢ - ١٦٩)، الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٧، ١٤٨). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩، ١٢٠).

[٣٧] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٣). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٠). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٠سقوط الدولة العباسية صـ١٢٣. المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١١٩).

[٣٨] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧١).

[٣٩] المصدر السابق - (٢٧ / ١٧١). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٤). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٩؛ ١٥١٠).

[٤٠] نهاية الأرب، للنويري - (٢١٤/٢٧). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٤٣). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٨). تاريخ ابن خلدون - (٥٢٠/٥). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٠).

[٤١] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٤).

[٤٢] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧١). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٢٥). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣٠٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٩، ١٥١). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢١؛ ١٢٢).

[٤٣] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧١). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٢٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥١).

[٤٤] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ

حمدي – (ص: ١٥١، ١٥٢).

[٤٥] سيرة السلطان جلال الدين - (ص / ١٠٦: ١٠٨). تاريخ بخارى - (ص / ١٧٧). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٤٩: ١٥٢). [٤٦] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٢). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، النسوي – (ص: ٤٨). تاريخ الخلفاء، السيوطي – (ص: ١١٣). تتمة المختصر في أخبار البشر، ابن الوردي – (ص: ١٥٥). نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧٢). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (٤٤ / ٢٥). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٢، ١٢٣).

[٤٧] نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري - (٢٧ / ١٧٣). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٢).

[٤٨] المصدر السابق – (ص: ١٥٤). نهاية الأرب، للنويري - (٢١٥/٢٧).

[٤٩] المصدر السابق - (٢١٥/٢٧). العبر للذهبي (٥/ ٦٤ ـ ٦٤٥). تاريخ الخميسي - (٢/ ٣٦٨). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٦، ٢٠٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٢، ١٥٤).

[٥٠] تاريخ ابن خلدون (٥/ ٥٢٠). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠) الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٥).

[٥١] نهاية الأرب، للنويري - (٢١٥/٢٧). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠، ٣١١). مرآة الجنان - (٤/ ٣٧ ـ ٣٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٥، ١٥٦).

[٥٢] عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٧). مرآة الجنان - (٤/ ٣٧ ـ ٣٨). نهاية الأرب، للنويري - (٢١٥/٢٧). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٠، ٣١١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٥، ١٥٦).

[٥٣] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٦/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٦، ١٥٧). مرآة الجنان لليافعي (٤/ ٣٧. ٣٨)، عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٨).

[٥٤] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٦/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٨). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/ ٥٠، ٥١). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢٠٩).

[٥٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥٨). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٢). عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢١٠).

[٥٦] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٣). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع -

(٢١٧/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٥٢/١).

[٥٧] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٣، ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٨/٢٧).

[٥٨] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٩/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٥٤/١).

[٥٩] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢١٩/٢٧).

[٦٠] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٤). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٠/٢٧).

[٦١] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢٠/٢٧، ٢٢١).

[٦٢] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢١/٢٧).

[٦٣] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢١/٢٧).

[٦٤] الكامل في التاريخ، ابن الأثير - (ج ٥ / ص ٣١٥). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٢١/٢٧).

أخبار المغول مع السلطان جلال الدين

[١] اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، إدوارد فنديك - (١ / ١٣٠). نهاية الأرب في فنون الأدب . موافق للمطبوع - (٢٧ / ١٧٣، ١٧٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٦٠).

[٢] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٢٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٢). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٥).

[٣] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٢٦). تاريخ ابن خلدون - (١٤٠/٥).

[٤] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٥). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٤). تاريخ ابن خلدون - (١٤٠/٥). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٥).

[٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٠).

[٦] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٥). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٢- ١٥٤).

[٧] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٦). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٣٣، ١٣٤). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨).

[٨] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٧، ٢٢٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٤). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٥).

[٩] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٧). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٤، ١٥٦). تاريخ ابن خلدون - (٥/١٤٠). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٥).

[١٠] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٧، ٢٢٥). سيرة السلطان جلال الدين منكيرتي، للنسوي – (ص: ١٥٦، ١٥٧). تاريخ ابن خلدون - (٥/١٤٠). الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٨).

[١١] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٧). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٨، ١٥٩). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٦).

[١٢] نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧ / ١٧٨). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، للنسوي – (ص: ١٥٩). تاريخ ابن خلدون - (٥/١٤٠). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨٦، ١٨٧).

[١٣] الكامل في التاريخ - (ج ٥ / ص ٣١٩). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٢٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٨١).

[١٤] الدول المستقلة في المغرب الإسلامي – (ص: ١٨٨، ١٨٩). قصة التتار – (ص: ٦٥). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٩٢).

السيطرة على إقليمي خوارزم وخُرسان

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣٥، ٤١). الروض المعطار في خبر الأقطار - (ج ١ / ص ٢٢٥).

[٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣٥). المغول في التاريخ، د. الصياد – (ص: ١٢٥).

[٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣٦).

[٤] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٤). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئي – (ص: ٩٠، ١٧٠).

[٥] المصدر السابق – (ص: ١٧١). نهاية الأرب، للنويري – (٢٢٦/٢٧).

[٦] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦).

[٧] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٦/٢٧). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦).

[٨] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٦/٢٧). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئي – (ص: ١٧٢). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦).

[٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٤١/١). الكامل في التاريخ – (١٢/ ١٨٢).

اجتياح التتار لخُراسان

[١] الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (ج ٥ / ص ٣١٦). نهاية الأرب، للنويري – (٢٢٢/٢٧).

[٢] الموسوعة العربية العالمية – (مادة: خرسان / ص ١).

[٣] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٧).

[٤] المصدر السابق – (ص: ١٦٦، ١٧١). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٦/١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦، ١٧١). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٦/١). الموسوعة العربية العالمية – (مادة: خرسان / ص ١).

[٥] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٦٦، ١٧١). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٦/١). الموسوعة العربية العالمية – (مادة: خرسان / ص ١). الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (ج ٥ / ص ٣١٦).

[٦] المصدر السابق – (ج ٥ / ص ٣١٦). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٢/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٧/١).

[٧] الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (ج ٥ / ص ٣١٦، ٣١٧). نهاية الأرب، للنويري – (٢٢٢/٢٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٨/١).

[٨] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٧٤: ١٧٥). الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (ج ٥ / ص ٣١٧). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٨/١).

[٩] المصدر السابق – (ص: ١٧٤: ١٧٥). الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (ج ٥ / ص ٣١٧). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٢/٢٧).

[١٠] قصة التتار، د. راغب السرجاني – (ص: ٤٧). الكامل في التاريخ، ابن الأثير – (ج ٥ / ص ٣١٧). نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع – (٢٢٣/٢٧).

[١١] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٧٢). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، المنشئي – (ص: ١١٤).

[١٢] الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٧٤: ١٧٦).

[١٣] الكامل في التاريخ – (١٢/ ١٨١). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٧٧).

[١٤] الكامل في التاريخ – (١٢/ ٣٤٣). الدولة الخوارزمية والمغول، حافظ حمدي – (ص: ١٥١).

[١٥] المصدر السابق – صـ١٥٢. عودة الروح للخلافة الإسلامية – (ص: ٢١٩). الكامل في التاريخ – (٩/ ٣٤٣). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٣٧/١).

[١٦] المصدر السابق – (٤٠/١).

الأحداث حتى وفاة جنكيز خان

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٥٦/١).

[٢] المصدر السابق – (٥٧/١). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٢٦).

[٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٥٨/١).

[٤] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٢٥). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٦٣/١).

[٥] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٢٦). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٦٣/١). المختصر في أخبار البشر – (ج ١ / ص ٤٠١).

[٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٦٤/١).

[٧] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٢٨). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٦٦/١).

[٨] الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٢٨). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٦٦/١).

[٩] المصدر السابق – (٦٧/١).

[١٠] المصدر السابق – (٦٨/١).

[١١] المصدر السابق – (٦٨/١). الكامل في التاريخ – (ج ٥ / ص ٣٣٩).

[١٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (٦٩/١).

وفاة مؤسس الدولة المغولية جنكيز خان

[١] المصدر السابق – (٦٩/١:٧٠).

[٢] الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ٢٤٠: ٢٤٤). جنكيز خان - (١/٢٧٥).

[٣] جنكيز خان - (١/٢٧٧، ٢٧٨).

[٤] المغول في التاريخ د. العباد – (١٣٧، ١٣٨). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٢٨).

[٥] جنكيز خان إعصار من الشرق، عكاشة – (ص: ٢٢٥). المغول في التاريخ د. العباد – (١٣٧، ١٣٨).

ما بعد جنكيز خان

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٦٤).

[٢] نهاية الأرب، للنويري، موافق للمطبوع - (٢٧/٢٣٠).

[٣] المصدر السابق - (٢٧/٢٣٠). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٦٥).

[٤] المصدر السابق – (ص: ١٦٥).

[٥] نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٣٠). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٦٥).

تعيين الخان الأعظم للمغول

[١] المصدر السابق – (ص: ٣٥٧). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٣١).

[٢] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٦٧). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٣١).

[٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٣٥٧). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٣١).

[٤] المصدر السابق - (٢٧/٢٣٢). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٦٧).

[٥] المصدر السابق – (ص: ١٦٧).

حروب المغول في أيام أوكتاي بن جنكيز

[١] المصدر السابق – (ص: ١٧١).

[٢] المصدر السابق – (ص: ١٧١).

[٣] المصدر السابق – (ص: ١٧٩).

[٤] المصدر السابق – (ص: ١٧٩).

[٥] المصدر السابق – (ص: ١٧٩).

[٦] المصدر السابق – (ص: ١٨٠).

[٧] المصدر السابق – (ص: ١٨١).

[٨] المصدر السابق – (ص: ١٨١). الحوادث الجامعة لابن الفوطي صـ١١٣.

[٩] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٨٣).

[١٠] المصدر السابق – (ص: ١٨٥).

[١١] المصدر السابق – (ص: ١٨٦).

[١٢] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٨٧). تاريخ مختصر الدول لابن العبري صـ٢٤٨.

[١٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٨٨). تاريخ مفصل إيران، عباس إقبال – (١/ ١٤٨).

[١٤] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٨٩).

[١٥] المصدر السابق – (ص: ١٨٩).

[١٦] المصدر السابق – (ص: ١٩٠).

[١٧] المغول، العريني – (ص: ١٦١). جامع التواريخ، رشيد رضا – (٢/ ٤٨).

[١٨] المغول، د. الباز العريني – (ص: ٦٢).

[١٩] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٢، ١٩٣).

[٢٠] المصدر السابق – (ص: ١٩٤). جامع التواريخ، رشيد رضا – (٢/٦٢ . ٦٣). الجويني – (ص: ١٦٣).

[٢١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٨٨). جامع التواريخ، رشيد رضا- (ج٢/ ص٥١).

ولاية كيوك خان

(٦٤٤ . ٦٤٧هـ = ١٢٤٦ . ١٢٤٩ م)

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٤، ١٩٥).

[٢] المصدر السابق – (ص: ١٩٥).

[٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٥، ١٩٦). تاريخ مفصل إيران، عباس إقبال – (١/ ١٥٢).

[٤] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٦). جامع التواريخ، رشيد رضا- (ج٢/ ٢٤١، ٢٤٢). المغول، د. الباز العريني – (ص: ١٨٩). الجويني – (١/ ٢٠٥، ٢٠٦).

[٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٧).

[٦] الجويني – (١/ ٢١٣).

[٧] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٨) . تاريخ مختصر الدول صـ٢٥٧

[٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٨. ١٩٩) . جامع التواريخ، رشيد رضا- (ج٢/ ٩ ٢٤٩).

[٩] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٩) . تاريخ الأدب في إيران، الترجمة العربية – (ص: ٥٧٤) . قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٣/١).

[١٠] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٠٠) . تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة.د. الباز العريني – (١/ ٤٤٧) . قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٣/١).

[١١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٠١) .

[١٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/ ٨٣، ٨٤) .

[١٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٥) .

انتخاب منكوقآن خاناً أعظم للمغول

(٦٤٨ – ٦٥٥/ ١٢٥٠ – ١٢٥٧).

[١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٠٦) . قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٤/١).

[٢] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٠٨) . قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٦/١).

[٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٠٩) . جامع التواريخ، رشيد رضا، تصحيح بلوشيا – (٢٩٦/٢١ . ٢٩٧).

[٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٦/١).

[٥] المصدر السابق - (٨٧/١).

[٦] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٠٩، ٢١٠) . المغول، د. الباز العريني – (ص: ١٩٤).

[٧] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢١٠) .

[٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ١٩٥، ٢١١) . تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، الترجمة العربية – (٣/ ٥٠٩) .

[٩] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢١١) . الجويني – (٣/ ٨،٩) .

[١٠] المصدر السابق – (ص: ٢١٦) . قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٨/١).

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٨٩/١).

[٢] جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين - (٤٧/١).

[٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٩٠/١).

[٤] المصدر السابق - (٩٠/١).

[٥] المصدر السابق - (٩١/١).

[٦] المصدر السابق - (٩١/١).

[٧] تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، برون – (ص: ٥٧٥) . المغول في التاريخ: د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢١٢) . تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (ج ٤١ / ص ١٨: ٢٠).

[٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢١٢) . الدولة الخوارزمية والمغول – (ص: ٢٤٨) . المصدر السابق – (ص: ٢٤٨) . تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، الترجمة العربية – (٣/ ٥١٠، ٥١١) .

[٩] تاريخ مفصل إيران، عباس إقبال - (١٦٠/١) . المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢١٢: ٢١٤) .

[١٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (٩٢/١).

[١١] المصدر السابق - (٩٣/١).

[١٢] المصدر السابق - (٩٤/١).

[١٣] المصدر السابق - (٩٥/١).

[١٤] المصدر السابق - (٩٦/١).

[١٥] المصدر السابق - (٩٧/١).

[١٦] المصدر السابق - (٩٧/١).

[١٧] المصدر السابق - (٩٨/١).

[١٨] المصدر السابق - (٩٩/١).

[١٩] المصدر السابق - (١٠٠/١).

[٢٠] المصدر السابق - (١٠١/١).

[٢١] المصدر السابق - (١٠٢/١).

[٢٢] المصدر السابق - (١٠٣/١، ١٠٤)..

[٢٣] المصدر السابق - (١/١٠٤).

[٢٤] المصدر السابق - (١/١٠٥).

[٢٥] المصدر السابق - (١/١٠٦).

[٢٦] المصدر السابق - (١/١٠٧).

[٢٧] المصدر السابق - (١/١٠٨).

[٢٨] المصدر السابق - (١/١٠٩).

[٢٩] المصدر السابق - (١/١١٠).

[٣٠] جهاد المماليك للغامدي - (١/٤٨). نقلاً عن جامع التواريخ.

[٣١] جهاد المماليك للغامدي - (١/٤٩). نقلاً عن جامع التواريخ. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١١١).

[٣٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١١١). جهاد المماليك للغامدي - (١/٤٩). نقلاً عن جامع التواريخ.

[٣٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١١٢). جامع التواريخ - (١/٢٤٠). جهاد المماليك ضد المغول - (١/٤٧).

[٣٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١١٢). جامع التواريخ - (١/٢٤٠). جهاد المماليك ضد المغول - (١/٤٧).

[٣٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٤٩). جامع التواريخ - (٢/٢٤٣: ٢٤٥).

[٣٦] الحوادث الجامعة، ابن الفوطي – (١/ ٢٦٢). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٥٥). جامع التواريخ، (تاريخ المغول في إيران) ص: ٢٣١/٢٣٠. الترجمة العربية – (ص: ٢٦٨:٢٦٧).

[٣٧] وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حمادة – (ص: ٣٤٧). جامع التواريخ، (تاريخ المغول في إيران) ص: ٢٣٨. الترجمة العربية – (ص: ٢٧١).

[٣٨] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٥٨).

[٣٩] المصدر السابق – (ص: ٢٥٩).

[٤٠] المصدر السابق – (ص: ٢٦٠). جامع التواريخ، (تاريخ المغول في إيران) ص: ٢٦٢. الترجمة العربية – (ص: ٢٨٠).

[٤١] جهاد المماليك للغامدي - (١/٥٠). نقلاً عن جامع التواريخ.

[٤٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١١٤). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد

المعطي الصياد – (ص: ٢٦٠).

[٤٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١١٥/١). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٠).

[٤٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١١٦/١).

[٤٥] المصدر السابق - (١١٧/١).

[٤٦] المصدر السابق - (١١٧/١).

[٤٧] البداية والنهاية - (ج ١٣ / ص ٢٣٨).

[٤٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١١٨/١).

[٤٩] المصدر السابق - (١١٩/١).

[٥٠] المصدر السابق - (١٢١/١).

[٥١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٠، ٢٦١).

[٥٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٢٢/١).

[٥٣] المصدر السابق - (١٢٣/١).

[٥٤] المصدر السابق - (١٢٤/١).

[٥٥] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦١).

[٥٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٢٥/١).

[٥٧] المصدر السابق - (١٢٦/١).

[٥٨] المصدر السابق - (١٢٦/١، ١٢٧).

[٥٩] البداية والنهاية - (ج ١٣ / ص ٢٣٣). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٢٨/١).

[٥٩] البداية والنهاية - (ج ١٣ / ص ٢٣٣). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٢٨/١).

[٦٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٢٩/١).

[٦١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٢).

[٦٢] قصة التتار – (ص/١٤٩، ١٥٠). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٣٠/١).

[٦٣] المصدر السابق - (١٣٠/١).

[٦٤] المصدر السابق - (١٣١/١).

[٦٥] المصدر السابق - (١٣٢/١).

[٦٦] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٥).

[٦٧] دول الإسلام الذهبي (٢ .١٢٣). المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٥).

[٦٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، د. راغب السرجاني - (١/١٣٣).

[٦٩] بغداد في عهد الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس – (ص/٢٩٢، ٢٩٣). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٣٦).

[٧٠] تاريخ مختصر الدول ص:٢٧١. المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٦). تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رونسيمان – (٣/ ٥٢٠: ٥٢١). العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل عبد العزيز – (ص: ٨٩).

[٧١] جامع التواريخ صـ٣٠٠ . ٣٠٢. المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٦).

[٧٢] المصدر السابق – (ص: ٢٦٦). البداية والنهاية (١٣ . ٢٠٣).

[٧٣] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٧).

[٧٤] المختصر في أخبار البشر (٣ . ٢٠٣)، المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٨).

[٧٥] مجالس المؤمنين صـ٤٠٠ . المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٦٩).

[٧٦] المصدر السابق – (ص: ٢٧٠).

[٧٧] المصدر السابق – (ص: ٢٧٠).

[٧٨] مآثر الأنافة في معالم الخلافة - (٢/٩١). بغداد مدينة السلام وغزو المغول - (٢/٢٥٥). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٣٦). نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري - (٢٧/٢٥٨).

[٧٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٣٨، ١٣٩).

[٨٠] المصدر السابق - (١/١٣٨).

[٨١] المصدر السابق - (١/١٣٩).

[٨٢] المصدر السابق - (١/١٤٠).

[٨٣] المصدر السابق - (١/١٤١).

[٨٤] المصدر السابق - (١/١٤١).

[٨٥] البداية والنهاية - (١٧ . ٣٨٠). قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٤٢).

[٨٦] العراق بين سقوط الدولة العباسية والدولة العثمانية - (ص/ ١٤٠، ١٤١).

[٨٧] المصدر السابق - (ص/ ١٣٨).

[٨٨] العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية - (ص/ ١٣٩).

[٨٩] الدولة المستقلة في المشرق – (ص: ٢٠٥).

[٩٠] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٧٩). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٥٩).

[٩١] المغول في التاريخ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد – (ص: ٢٧٩). نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٥٩).

[٩٢] المصدر السابق - (٢٧/٢٥٨). ذيل الروضتين، (ص:٢٠٥). شذرات الذهب – (٥: ٢٩٥).

[٩٣] نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٥٩).

[٩٤] المصدر السابق (٢٧/٢٦٠).

[٩٥] المصدر السابق - (٢٧/٢٦١)

[٩٦] المصدر السابق - (٢٧/٢٦٢).

[٩٧] المصدر السابق - (٢٧/٢٦٣).

[٩٨] المصدر السابق - (٢٧/٢٦٤، ٢٦٥).

موت هولاكوخان ونبذة من أخباره

[١] نهاية الأرب، للنويري - (٢٧/٢٦٦). تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (ج ٤٩ / ص ١٩).

أعمال مطبوعة للمؤلف

في التاريخ :

١ – تاريخ الحاكم بأمر الله

٢- دولة المرابطين الإسلامية

٣ – دولة الموحدين بالشمال الأفريقي

٤ – الجزء الأول من الدولة الفاطمي

٥ – الجزء الثاني من الدولة الفاطمية

٦- دولة بني مرين

٧- دولة بني الأحمر

٨- الجزء الأول موسوعة تاريخ العالم الإسلامي.

٩- الجزء الثاني موسوعة تاريخ العالم الإسلامي.

١٠- الجزء الثالث موسوعة تاريخ العالم الإسلامي.

١١- موسوعة تراجم خلفاء وأمراء وسلاطين العالم الإسلامي

١٢- تاريخ وحضارة سلطنة عُمان

١٣- جنكيز خان .. فاتح العالم

١٤- هولاكو .. الأمير السفاح

١٥- قطز .. منقذ العالم

في الفقه الإسلامي .

١ - كتاب : الإيمان

٢ – كتاب : آفات اللسان

٣ – كتاب : النفاق والمنافقين

في الأدب :

١ – رواية : مغامرات مجند

٢ – رواية : شيخ البلد

أعمال تحت الطبع للمؤلف

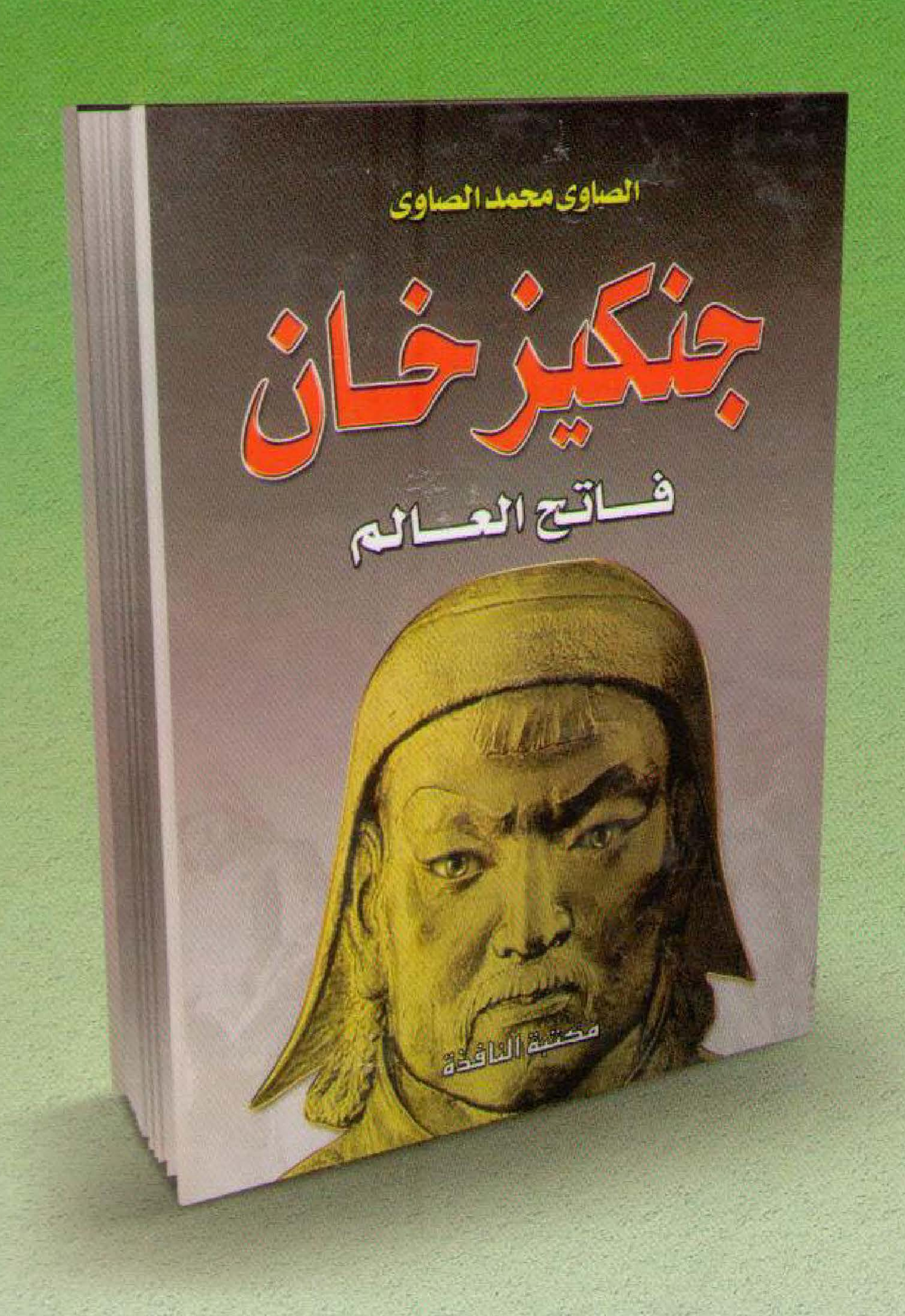
١ – كتاب : فضائل الأعمال

٢ – رواية : النجار

٣ – رواية : ولاد مصر

مقالات ودراسات

للمؤلف العديد من المقالات والدراسات في أكثر من جريدة مصرية.



مكتبة النافذة